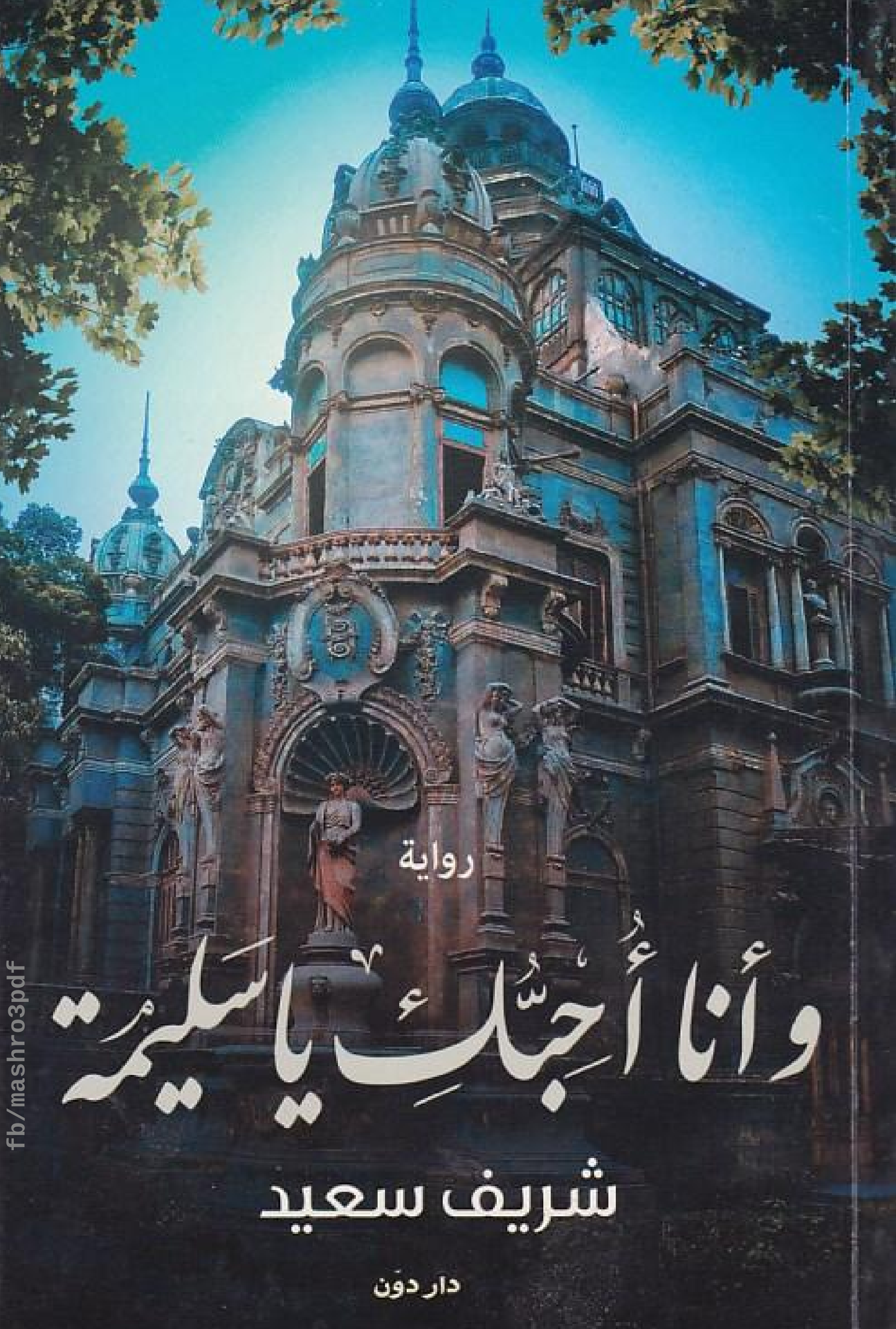

fb/mashro3pdf

وأنا أُحِبُّكِ يا سَليمة

fb/mashro3pdf

شريف سعيد: وأنا أحبك يا سليمة، رواية
الطبعة العربية الأولى يناير ٢٠١٧
رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢١٦٤٨ - الترقيم الدولي: 978-977-806-024-9
جَميـعُ حُـقـوقْ الطَبْـعْ والنَّشرْ محـفُوظة للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.
© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

fb/mashro3pdf

شريف سعيد

وأنا أُحِبُّكِ يا سَليمة

رواية

دَوِّنْ
للنشر و التوزيع

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إهداء

إلى سَليمة.. في كُلّ زمان وفي أيّ مكان..

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

حسام

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة صباحًا حين تجمَّع المارة بكثافة غير معتادة في هذا التوقيت من النهار حول بائع الصحف الذي يفترش الأرض على حافة ميدان الجيش في قلب القاهرة. ظننت أن معركة شوارعية قد نشبَتْ بالقُرب من فَرشة الجرائد هناك، لكن بدا أن الأمر ليس كذلك، استوقفت أحدهم قادمًا من وسط هذا الصخب لأسأله ماذا يدور؟! لم يجب سوى بأربع كلمات:

- مجلة اللوتس يا باشا.

الكل كان يتهافت من أجل مطالعة الغلاف، اقتربت وحاولت تدقيق النظر في الأعداد التي يحملها الناس من حولي، تبينت صورة عارية وعنوانًا مُثيرًا من كلمتين!! توزيع المجلة سيكون تاريخيًّا في هذا الصباح، الكل يريد شراء نسخته وسط حالة من الإثارة والذهول!! كل الناجين من الدوامة البشرية حول الفَرشة كانوا يحملقون بعيونهم في صمتٍ بالغلاف!! وبخشوع يُقلّبون الصفحات الداخلية للعدد، لم أستطع مقاومة فضولي، من العبث أن يقاوم الإنسان فضول اكتشاف فضيحة جسدية على غلاف مجلة قومية!!

fb/mashro3pdf

حاولت اختراق الدائرة حتى وصلت إلى عين الإعصار، نجحت باقتناص عددًا ساخنًا مقابل جنيهين من المعدن البائس، وسط الزحام لم أميّز تفاصيل الجسدين اللذين تصدّرا غلاف اللوتس على خلفية سوداء. خرجت من هذا الحشد نحو الهواء، ترامى إلى أذني همسات من آخرين بين أيديهم ذات العدد، قال أحدهم لصاحبه بصوتٍ نابعٍ من أقدم كهوف الرغبة:

- هل ترى كيف فنحت قدميها؟!

ردَّ عليه صديقه بنبرات قادمة من أعمق آبار الحرمان:

- مَن هذا الجاحد الذي قسمها إلى نصفين هكذا؟!

ما حييت لن أنسى هذا المقطع من الحوار الصادق الرخيص الذي دار بينهما، لكنني لم أستطع أن أنصت جيدًا لما تيسر من باقي ضحالته بعدما تدفقت الدهشة بسرعة من الغلاف إلى عينيَّ وأنا أطالع هذه الأنثى الجميلة المستلقية على ظهرها وهي تأوي بين ساقيها رجلًا ممشوقًا له لحية بلون أسود الليالي!! قُبِضَ صدري وتسربت البرودة إلى أطراف أصابعي وأنا أقرِّب المجلة إلى وجهي بكثيرٍ من البطء والتردد بعدما لفت نظري بالغلاف شيء حتمًا لم يلفت نظر أحد، لم يستوقفني صدرها الذي تم طمسه جزئيًا، ولا نحت ساقيها ولا انحناءة خصرها ولا خصلات شعرها البني الغزير، فقط واصلت تركيزي في أدق تفصيلة بالغلاف!! قلبي كان يخفق بضربات مُدويّة في داخلي، هل هذا حقيقيّ أم أن الله كما يقولون يخلق من الشبه أربعين!! كان على فخذها الأيمن من الخارج نقش رائع لشامة بديعة بلون مساحيق الورود!!

أخذت أقلّبُ صفحات المجلة بتردد وتوتر بالغين، وجدت نفس

fb/mashro3pdf

الصورة بالداخل ولكن باللونين الأبيض والأسود، بالإضافة لصور أخريات مطموسات العيون والأعضاء مع ذاتِ الرجل!! صباح بمثل هذه البداية النادرة كان من الطبيعي معه ألا أواصل طريقي نحو مبنى التليفزيون. اتصلتُ برئيسة القناة كي أخبرها بأني لن أقوى اليوم على تصوير أو مونتاج، أبدًا لم تغضب ولكنها ردت بكل ما تحمله إناث العالم من جينات للحنان:

- حبيبي أنت يا حسام، ولا يهمك يا عمري.

قطعت الميدان مَرَّة أخرى عائدًا نحو البيت، صوت فرامل السيارة التي كادت أن تصدمني يُدوي بآذان جميع المارة إلا أنا، عبرت الطريق غير عابئ بسباب السائق أو لعناته، لم أكن أشعر إلا بالشكوك التي لم تترك شبرًا من روحي إلا وأخذت تنهش فيه بقسوة، متى يكف القدر عن ممارسة ساديته تجاه قصة حياة الإنسان؟!

في طريق العودة كنت أمشي بخطوات جنائزية وبصرٍ شاردٍ غير مصدِّق، هي الشامة بذات الرسم والألوان وفي نفس المكان!! هل تكون هي بالفعل؟! هذا لا يحدث إلا بالأفلام والروايات، استكملت المسير، دخلت إلى عمق شارع الشيخ قمر الواصل بين ميداني الجيش والسكاكيني، هذا الشارع الذي يقف في نهايته قصر حبيب جبرائيل سكاكيني باشا وسط ميدانه الصغير وبطرازه الإيطالي وتماثيله العارية كنتوء تاريخي راقٍ لا علاقة له بكل العبث الدائر من حوله الآن، على كل حال أنا لا أدري كيف حملتني قدماي حتى وصلت لميدان السكاكيني!! الأسطورة تقول إن الصيف لا يأتي بخير أبدًا إلى مواليد الشتاء!!

fb/mashro3pdf

دخلت حجرتي، أغلقتُ عليّ الباب، حاولتُ الاتصال بها ثلاث مرات، وفي كل مَرَّة ترد عليَّ نفس السيدة التي تخبرني بأن هذا الهاتف ربما يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة، فتحت شاشة الكمبيوتر وبالطبع لم أجدها في هذا التوقيت النهاري على الـ Yahoo Messenger، تركتُ لها رسالة:

- بيرو، اتصلي بي للضرورة.

ما هذا العبث الذي أُقدم عليه!! من الجنون أن يتصل الإنسان بحبيبته في الصباح ويناديها باسم دلالها كي يسألها إن كان الجسد المكشوف على غلاف المجلة التي تعمل بها كصحفية يخصها أم يخص غيرها؟!

وفي محاولة أخرى، فتحت شاشة الهاتف وضغطتُ على اسم «بشير»، كان الجرس يتواصل لكن أحدًا لم يرد، ربما يكون نائمًا أو سائقًا على الطريق، رغم السنوات العَشر التي يكبرني بها، كان بشير النوبي هو صديقي الوحيد الذي يمكن أن أبوح له وأفضفض ويبوح لي ويسرد، أنا في حاجة ماسة للحكي أمام إنسان لا أخشى من تجارته بما يسمع وإلا سأنفجر، مَرَّة أخرى يتواصل الجرس ولا أحد يرد، أرسلت له رسالة نصية:

- بشير، كلمني فورًا.

كنت على وشك الاختناق بين جدران الحجرة الضيقة، دفعت ضلفتي الشيش الأخضر نحو الخارج بحثًا عن نجاة لروحي التي بدأت في الاشتعال، لكن عارية منحوتة على جدار القصر من الخارج داهمتني في وجهي وأعادتني مباشرة إلى غلاف المجلة التي أحاول

fb/mashro3pdf

الفرار منها!! لم يكن أمامي سوى محاولة إشغال نفسي ببدايات القرن التاسع عشر كباب طارىء للخروج، رُزمة كبيرة من الأوراق المُصفرة منقوشة بخط يد «سليمة»!!

سليمة هي الجدة الكبرى لبشير، وقد أعارني أخيرًا هذا الكنز المكتوب والمتوارث سرًا في سلسالهم بعدما حكى لي عنه كثيرًا، وبعدما ألححت عليه أنا أكثر حتى أقنعته أن أطالعه بنفسي لعله يكون موضوع فيلمي الوثائقي الأول، كان بحثي قد طال عن قصة تستحق، قال بشير وهو يُسلمني أوراق جدته في وقت متأخر مساء أمس أمام إحدى البوابات الحديدية للقصر:

- ورق سليمة أمانة في رقبتك يا حسام، وصدقني، لو أن أنطوان تزوجها قبل قرنين لرُبما كنتُ الآن فرنسيًّا ببشرة بيضاء!!

أخذتُ أقلّب في الأوراق المتهالكة على مهلٍ، سرحتُ في سطورها المنمقة تارة والمائلة إلى الأسفل تارة أخرى، رنّ الهاتف قبل أن أبدأ في قراءة السطر الأول، انتفضت بقوة على أمل أن تكون هي لكنه كان بشير، تعجب من صوتي قائلًا:

- أمك وأختك بخير يا حسام؟!

- بخير، لكن لا أقسى على إنسان من نهار يشك فيه أن حبيبته تنسحق تحت رجلٍ آخر على غلاف مجلة وأسفلها عنوان..

- حسام، أنت مجنون!! هل تقصد..

ثم انقطعت المكالمة، حاولتُ الاتصال به لكن بدا أن بطارية هاتفه قد ماتت، تمددتُ على السرير وأغمضت عينيّ، شعرت بشيطان يسري على نحو شبحي بين خزائن ذاكرتي ليدير مفاتيحه في أقفالها ببطء

fb/mashro3pdf

ونجاح، كثير مما نعانيه كان سينقضي لو أن الله قد أضاف إلى الإنسان خاصية الحذف الفوري لبعض مساحات الذاكرة!!

التقليب في أوراق الجدة الكبرى لصديقي بشير قد يكون بابًا مثاليًا للهروب من هذا المستنقع، الفرار نحو القرن التاسع عشر أفضل كثيرًا من تذكر هذا اليوم الأسود الذي رأيت فيه بيرو سنة ١٩٩٢ وهي بقميص النوم في الشارع!!

سأهرب إلى أوراق سليمة

***

fb/mashro3pdf

أوراق سليمة

بلغتُ السابعة عشر من عمري في بلاد السودان مع آخر فيضان للنهر في «شندي»، لا أحد يعلم على وجه اليقين متى دبَّت الحياة في هذه الأرض، الأهرام الصغيرة المنسية بالمكان تقف وحدها شاهدة دون غيرها على حقيقة ما جرى، أما الناس فقد اختلفوا في أسباب تسمية شندي، العجائز يحكون أن السبب الأشهر هو أن شندي كلمة تعود في جذورها إلى النوبية القديمة وتعني «الدفع نقدًا»، شندي كانت مُلتقى لطرق تجارة الرقيق بين الجنوب والشمال، ويُقال إن سوقًا كبيرًا قبل دخول الإسلام كان يُنصب فيها لبيع العبيد والإماء، وأن أهلها هم من نظموا عمليات البيع والشراء وكانوا لا يقبلون سوى الدفع نقدًا أي «شندي»، لذا سُميت بهذا الاسم.

هذا عن أرضي، أما أنا فقد كنت أميل إلى النحافة بصدر برتقالي الحجم برز عن جسدي مبكرًا وتمرد عليه، شالي الأزرق وجلبابي السماوي كانا قد رُسما عليَّ في رِقة بالغة، نقش الحناء على يدي وقدمي كان يوحي للناظرين بأميرة قديمة استيقظت فجأة وفرَّت للتوّ من جوف أهرام البجراوية المتناثرة، لكنها تنكرت بين الخلق في زِيّ راعية غنم برونزية خرجت بعنزاتها بعيدًا عن البشر وعيونهم، إلى ضفة النهر عند الصخرة الكبيرة.

fb/mashro3pdf

من غير المعلوم على وجه الدقة ما هو سبب انقباض قلوب أهل شندي المتوارث من هذه الصخرة الكبيرة المُلقاة بغرابة في تلك الأرض المنبسطة!! تروي الحكايات أن تلك الصخرة هي بالأصل نجمة صغيرة قذفت بها السماء في إحدى الليالي لدكّ عُشة للبغاء هناك، في تلك البقعة النائية كنت أنسل من شالي وأنفك من قيودي، أرقص وحدي وأغنّي بحُريّة، وحينما تشتد الشمس كنت أفترش الشال داخل تجويف الصخرة لأثني قدميَّ وأستند برأسي إلى ركبتيَ شاردة ببصري إلى النهر المسافر وحيدًا نحو الشمال، وأحيانًا كنت أؤنس وحدتي بكتابٍ قديم من كتب والدي حسن العطار الذي علّمني القراءة والكتابة في أرضٍ ندُرَ فيها من يفكّ طلاسم الخطوط.

ومنذ بلغتُ مبلغ البنات ونُحِتَ جسدي، كان يتقدم لخطبتي كل يوم شاب من شباب شندي لكنني لم أكن أقبل بهم، لم أرغب في أن أكون مجرد عنزة يستولدها ذَكر في الظلام بعد أن يبصق في المصباح ليُعاشرها حتى آخر الليل، أبدًا لم أكن من هؤلاء، كنت في حاجة إلى من يحتل قلبي ويستولي عليه بلا إرادة مني، لذا وبمرور الوقت كان هاجس العنوسة يُقلق دارنا كثيرًا وخاصة أمي زينب التي كانت تدخل كل بيوت البلد بطبيعة عملها كقابلة، ومع كل حبلٍ سُري تقطعه كانت تُواجَه بالسؤال البغيض:

- متى نفرح بسليمة يا أم سليمة؟!

ليعقب الاستفهام سؤال فضولي نسوي آخر عن أسباب عزوفي عن الزواج رغم كثرة أولاد الحلال، فترد أمي بإجابات مبتورة لا تخلو من التحجج بالقسمة والنصيب، ومع الأيام كثرت حولي الأحاديث من بيوت الشباب المرفوضين وتناثرت الشائعات، بعضهم اغتاظوا منّي

fb/mashro3pdf

وقالـوا إني مغـرورة ومتكـبرة، وآخـرون سـفهاء سـفلة تهامسـوا بعـاري وتلاسنوا بسـيرتي عـلى المقهـى في المسـاء دون بينـة أو برهـان!!

وفي النهايـة حـزم أبي أمـره وقـرَّر أن يتخلـص منِّـي ويُزوجنـي لأول رجـل يـدق بـاب الـدار، وإلى أن يـأتي هـذا المُنتظَـر، كان والـدي قـد أعـدَّ وصفـة عُشبية قديمة تُدعى «شرف النسـاء» وهـي أعشـاب برية مطحونـة تقـضي عـلى رغبـات الأنثـى وتكبـح جمـاح شـهواتها، كان ذلـك امتـدادًا لختـاني سُـنيا وأنـا طفلـة، وتأكـده مـن أن أمـي لم تـترك مـن البظـر شـيئًا حفاظًا على شرفي، كان حسـن يأمر زينب أن تخلـط وصفـة شرف النسـاء سرًّا بطعامـي خشـية أن يحـدث لي مـا لا يُحمَـد عقبـاه، فتخلـط أمـي وهـي حزينـة انتظـارًا لأول ذَكـر يـأذن لـه أبي باغتصـاب جسـدي تحـت مسـمى الحـلال!! لكـن هـذا لم يحـدث لأن العسـكر كانـوا أسبق منـا جميعًـا!!

بـلاد السـودان لـن تنسـى هـذا الصيـف الأسـود الـذي حـلَّ عليهـا عـام ١٨٢٠، تحـرك جيـش محمـد عـلي بقيـادة ابنـه الشـاب إسـماعيل في حملـة نحـو الجنـوب، هدفهـم الأهـم كان اصطيـاد العبيـد وحشـدهم مكبلـين في القيـود إلى الشـمال حتـى ينخرطـوا في الجيـش النظامـي الجديـد الـذي حَلُـم بـه الباشـا المولـع بجيـش نابليـون، محمـد عـلي أراد عـلى الأقـل ثلاثـة رؤوس منّـا أمـام كل رأس في جيشـه القاتـل!! «كـورتي» كانـت البقعـة التـي أرادهـا ابـن الباشـا عِبرة لـكل السـودان فافتتـح بهـا سـيرته الدمويـة بيننـا، وخـلال ثـلاث سـاعات قـام العسـكر بالتسـلي واصطيـاد حـوالي ثمانمائـة مـن أهلهـا في مـران للقنـص تحـت قـرص الشـمس، ولم يكتفـوا بهـذا فقـط بـل قامـوا أيضًـا بحـرق بيوتهـا ومسـاجدها!!

رائحـة اللحـم البـشري المحـترق في البيـوت زكمـت أنـوف جميـع بـلاد السـودان، أصبحـت كـورتي وسـيرتها كابوسًـا يُداهـم النائمـين وقـدرًا

fb/mashro3pdf

بانتظار كل من تسوَّل له نفسه التفكير بالوقوف أمام إرادة الباشا وعسكر الباشا!! كل أحداث هذه المأساة كانت تدور وفي رفقة الحملة ثلاثة من مشايخ الأزهر وهم: «محمد الأسيوطي وأحمد البقلي والسلاوي المغربي». بدا لنا أن الهدف من وجود هؤلاء الأزاهرة برفقة العسكر هو حياكة المقصد الشرعي لسفك أي دم!!

تم حشر السودانيين من أهل كورتي داخل الأقفاص الخشبية وفوق ظهور المراكب النيلية للتجنيد جبرًا بمعسكرات أسوان أو البيع في أسواق عبيد القاهرة، هذه الحكايات المُرعبة كانت تنتشر بيننا في شندي كما النار في الهشيم، لذا وفي تلك الأجواء العاصفة التي هدَّدَت وجود الرجال من الأساس، لم يكن من المتوقع لأحدهم أن يطرق باب دارنا طلبًا للزواج منّي!!

ثم جاء أوان شندي وقُراها، وقبل أن يصل ابن الباشا بجيشه إليها كان الملك نمر برجاله وجنوده قد خرجوا له على مشارفها، لا للدفاع والمقاومة بل للاستقبال والتسليم!! آثر ملك شندي السلامة وأعلن خضوعه وولاءه الكامل للفاتح الجديد وأبيه الذي في القصر. الكل كان قد تعلَّم من درس كورتي، هذا الصباح الذي استسلمت فيه شندي كان بائسًا، خلت الطرقات من المارة وأُغلِقت المحال وانكمشت البيوت على أهلها، الناس في شندي كانوا يدركون أن دماءهم قريبًا سوف تُسفك وأجسادهم سوف تُستعبَد، لكن أين المفر؟! جنود إسماعيل ستلاحقهم أينما كانوا، ومن لم يُؤت به من شندي سيُلاحق في أم درمان أو سنار، شباك محمد علي فوق السودان كانت قد ارتمت بلا رحمة.

وفي المساء وعلى مأدبة عشاء عامرة بالغزلان المشوية أعدَّها الملك نمر على شرف إسماعيل ورجاله، تم الاتفاق على أن يبقى الملك نمر

fb/mashro3pdf

على كرسيه مقابل دفع حصة ثابتة من الضرائب وأخرى من الذكور للانضواء في الجيش الجديد الذي يكوِّنه الباشا في مصر، أهالي شندي الذين كانوا يُرددون أذكار وأدعية فك الكرب خلف جدران بيوتهم تحسُّبًا لوقوع البلاء من عسكر إسماعيل، لم يخطر ببالهم أن إسماعيل نفسه في هذا المساء لم يكن مُنشغلًا باستعبادهم قدر انشغاله بـهند جارية نمر!!

كان هذا ما دارَ بين جدران الملك، أما في دارنا فقد تأكدتُ في هذه الليلة أن أكثر القصص صدقًا تلك المنقوشة بأجود أحبار المرارة!!

قبيل تناولنا العشاء، لاحظتُ نظرات خاصة تحمل إيماءات غامضة من أبي نحو أمي، والتي أصرَّت ليلتها ألّا أساعدها في تحضير الطعام، قامت هي بنفسها وصبت لنا ثلاثة صحون من العدس الأصفر ورصتهم على الطبلية إلى جوار البصل الأخضر والخبز الجاف وكوز ماء، ومباشرة عقب أن انتهينا وقبل أن نقوم من حول الصينية غامت الدنيا في عينيّ ودارت رأسي بشدة فاستندت بظهري إلى الجدار من خلفي، حينها سمعت أبي يقول:

- احمليها معي، هذا المزيج الذي تناولتْهُ سيُذهِب عنها نصف وعيها، وسيُخفِّف عنها بعض آلامها، الختان الفرعوني لا قلب له!!

بُهِتُّ من الجملة الأخيرة وانقبض قلبي لكن لساني كان ثقيلًا وغير قادرٍ على الحديث أو المقاومة، وعندما وضعاني على الفراش قالت أمي:

- قلبي سينفطر عليها يا حسن، لن أتحمل صراخها، ما اقتطعته منها وأنا أختنها سُنيًّا وهي طفلة لم يبرح ذاكرتها بعد، ولا يكف عن إفزاعها في منامها حتى اليوم.

- لا مفر يا أم سليمة، هو خير لنا ولها، تماسكي وستتمّ أمرها

fb/mashro3pdf

الليلة، لا تجعليني أشعر أنها المرة الأولى التي تقومين فيها بمثل هذا العمل يا زينب!!

- لكنها الآن شابة، ألم يكفها منا خلطة شرف النساء!!

- وهل سننتظر حتى يغتصب العسكر بنتنا الوحيدة كما حدث مع بنات كورتي؟! يجب أن نُغلقها تمامًا ولا نترك لهم سبيلًا إلى رحمها، فقط أحضري الحبل والخيط والموسيات والمقراض، أتقني عملك وإلا هلكَتْ منا، أحيانًا يكون من الشرف بتر الشرف!!

كنت أسمع أصواتهم وكأنها قادمة من عالم الأحلام وأرى صورهم كأطياف منام، كنت مسلوبة الإرادة لا أقوى على نطق أو حركة، كتَّفني أبي من خلف رأسي ولم أدرِ لماذا!! شعرتُ بعدها بأمي وهي تجرد نصفي الأسفل من كل ما يسترني، ثم فتحت قدميّ وربطتهما بأعمدة السرير النحاسي الأصفر، امتدت بيدها نحو موضع عِفّتي، دوت في شندي صرختي الأولى ولم تُدوَ الثانية، فقد وضع أبي وسادة على فمي كي أعض عليها، بعدها بكى وانتحب حتى كادت قواه أن تخور ويديه أن تنفلت من ورائي، نقاط الدم على فخذيَ سرعان ما تحولت إلى بقاع وعناقيد على الملاءة البيضاء، دائمًا ما كانت الملاءات شاهدات صامتات على لحظات الحب والخيانة والألم، ولو استُنطِقَت الملاءات يومًا لانفضح أغلب البشر وهم حينها من الخجل عرايا!!

قبل الفجر كانت زينب قد أزالت كل شيء وأتمت المهمة بأمانة ووجه جامد وشعور مُتبلد وقلب من صوان لا ينفطر وكأنها في تلك الساعة قد شيّعت أمومتها إلى الأبد!! وبينما كانت ملامحي تنصهر عرقًا، عقدت هي خيوطها بنجاح وأغلقتني تمامًا وشذبتني بالمقراض، وبخِرْقة مبلّلة أزاحت آثار الدم الغزير من فوق فخذيَّ وطهَّرت

fb/mashro3pdf

الجرح، ثم فكت قدميَّ عن أعمدة السرير وأعادت ربطهما من جديد مع بعضهما بحبلٍ قويٍّ، كل ذلك وأنا ذاهلة العينين غير مصدقة أن هذا الكابوس حقيقة!!

ثم استدارات بعدها نحو أبي الذي لم تعد قدماه تتحملانه وقرفص على الأرض واضعًا رأسه بين يديه، قالت له بوجه ميت ونبرات شُقت من صخر:

- معك حق يا حسن، أحيانًا يكون من الشرف بتر الشرف!! قُم واحمل سليمة.

بدون أن ينطق، استدعى أبي كل ما تبقى له من عزمٍ وحملني بين ذراعيه كما كان يحملني وأنا طفلة ووضعني على فراشي، في حين قامت أمي بتنظيف المكان وجمعت الخرق المبعثرة المُلطخة بالدم وطوتهم جيدًا على ما استقطعته من جسدي وخرجت تحت جُنح الظلام وألقت ما كان معها في كومة للزبالة بخرابة وسط البيوت ثم عادت مُتسحبة في صمت، آل حسن إلى الفراش مهزومًا في داخله بينما ظلت زينب إلى جانبي وأنا أتأوّه من فرط الألم وتباريحه، كانت قد أنهت مهمتها واستعادت أمومتها فظلت تجفف لي جبيني وتُقبّلني وهي تنظر إليَّ بعينين دامعتين وشعور بالذنب ووخزٍ في الضمير حتى رحتُ في النوم ونعسَتْ إلى جواري، ولم نفق من غفوتنا إلا على صخب عواء غير معتاد لكلابٍ في الخارج!! قامت أمي متثاقلة نحو النافذة لتزيح الستار وترقب ماذا يجري!! اتسعت عيناها وتسمرت في مكانها، استندت بظهرها نحو الجدار ثم تهاوت إلى الأرض ببطء وهي تُتمتم:

- أي فأل هذا يا الله!!

fb/mashro3pdf

كانت معركة غامضة في الخرابة قد نشبت بين كلاب مسعورة حول الخرق المطوية والمُخضَّبة بالدم وسط كومة الزبالة، ظلت الكلاب تتناتش وتتنازع حول قُطيعات صغيرة من لحم بشريّ متناثر!! فاز بها في النهاية أحدهم ثم فرَّ وفي أعقابه باقي الكِّلاب، حَرفيًّا نهشت الكلاب في لحمي وتناولت عرضي!!

وفي الليلة الرابعة عشرة من ليالي الجرح وكما وُرثت النساء، دخلت زينب إلى مخدعي، فكَّت ربطة الحبل المعقودة حول قدميَّ ثم باعدت بين ساقيَّ ورمقت لحمي بنظرة مُتفحصة، ارتسمت على ملامحها أمارات الارتياح وهي تقول:

- طاب جرحك يا سليمة، أنتِ الآن حرة الحركة، قومي اشطفي نفسك بماءٍ دافئ وغيِّري هدمتك.

أومأتُ برأسي في صمتٍ، قامت وأغلقتْ من ورائها الباب، تركتني على الفراش وأنا مشلوحة متباعدة الساقين كعاهرة انتهى منها للتوّ عابر سبيل، مُهانة وبقسوة في روحي قبل جسدي، صابرة على ألم الجرح الذي التحم عنوة، ساخطة على هذا القدر البغيض الذي كفرت به، لا أدري ما الذي يتوجب عليَّ فِعله بعد شطف نفسي وتغيير هدمتي؟! راودتني فكرة الفرار من المكان واختلاق فضيحة لهذا الدار الذي فعلَ بي كل ما فعل وختنني مرتين باسم العِرض والشرف!! قد تأتي على المُختتنة ليلة تتمنى فيها مُضاجعة كل ذكور الأرض نكاية في كل جزاري الشرف!!

أمِن أجل الشرف يُنتهك الشرفٍ؟! لماذا يخلق الله بين أقدام الأنثى تلك الزوائد النجسة إن كانت حقًا مجرد زوائد ونجسة؟! مقابل أي جُرم اقترفناه يُعذبنا الله بصمتِه تجاه هؤلاء الذين يُعدّلون خلقته تحت

fb/mashro3pdf

سمعه وبصره؟! وماذا عن الرجال؟! لماذا يدفنون رؤوسهم بالتراب مثل النعام وكل خطاياهم اقترفوها مع إناث مختتنات مُتطهرات؟! أي ختان هذا استطاع منع البنات والزوجات والمُطلقات والأرامل حولنا من ارتكاب الخطايا خلف حيطان البيوت وأبواب الزرائب وعيدان الحقول وأكوام الخرائب!! لو كسرت المُختتنات أقفال صناديق الماضي لأدرك بعض الرجال أن بين جدرانهم مومسات مُتنكرات في زِيّ ربات للبيوت!!

حتى أبي لم يعلم كم كانت أمي المُختتنة حانية على فرسه وهي وحيدة معه في ظلال الزريبة!! وقع هذا منذ سنوات وكنت طفلة، وكان أبي في دكانه، اكتشفتُ أمرَها صدفة من الباب المُوارب، وعندما لمحتني ارتبكت من المفاجأة وتوقفت عمّا كانت مُنهمكة فيه، ضربتني بشدة وحذرتني من التلصص عليها ثانية وخوفتني بما أعدَّه الله من نارٍ للمتجسسين، ومنذ ذلك اليوم كانت كلما دلفتْ إلى الزريبة أوصدت الباب جيدًا من ورائها، فأتركها ولا أزعجها حتى تخرج بوجهٍ متورّد، ويوم مات الفرس بعد مرض، انتحبت أمي كما لم تنتحب من قبل، وحين أشفق أبي عليها من البكاء قال:

- كم أنتِ وفية للعشرة يا زينب، أمن أجل حصاني كل هذا البكاء؟!

- وهل لدينا غيره يا سيد الرجال!! كان مثل ابني يا حسن، والعشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام.

- سيرزقنا الله بغيره إن شاء الله يا أم سليمة.

ثم رزقنا الله واشترى أبي غيره فاستأنفت أمي دخول الزريبة، ومع الأيام نُحِتَ جسدي وشبَّ نهدي وتوليت مهام البيت وتنظيفه، أما

fb/mashro3pdf

أمي فقد كبرت في العمر وذبلت رغبتها تجاه تحميم الحصان وتنظيف الزريبة، هذه الزريبة التي كلما دخلتُ إليها لتنظيفها، انتصبت لي زينب على بابها لتحثني على الانتهاء منها سريعًا كما لو أنها تغار منّي على فرسها القديم!!

هكذا عاقبتهم جميعًا في مخيلتي بهذا القدْر من اجترار الذكريات الفاضحة لشرف المختتنات مع البشر والحيوانات!! ثم تحركتُ من الفراش نحو الحمّام كي أشطف جسمي امتثالًا لأوامر أمي التي جهزت لي «طشتًا» من المياه الدافئة.

خلف باب الحمّام وعقب تردد وخوف شديدين قررت النظر إلى أسفلي، أمسكت المصباح واقتربت، لم أصدق!! اقتربت بالمصباح أكثر فأكثر وأنا ما زلت غير مصدقة!! هالني ما رأيت!! كنت أسمع عن الختان الفرعوني كثيرًا لكني لم أتوقعه على هذا النحو!! زينب لم تترك لي شيئًا!! أصبحت مسخًا!! في ذهول جلست على الكرسي الخشبي الصغير وصرت أعبئ كيزان المياه الدافئة من الطشت النحاسي وأسكب فوق شعري المتهدل وجسدي الجريح، وفجأة انصهر ذهولي وعدم تصديقي إلى بكاء نسوي مكتوم. كبرياء الأنثى لا ينهار أو يُقر بهزيمة قاسية إلا وهو مُوارى بعيدًا عن العيون وغالبًا خلف باب حمام!!

صُمتُّ عن الكلام معها وصرت خرساءً، فقط أستيقظ عند الفجر لإشعال النار في عيدان الفرن، أعاون أمي في خبيز الصباح ليجلس ثلاثتنا على طبلية فطور بلا روح، ثم يخرج أبي إلى دكانه فتبدأ طقوس الغسيل، حظرت عليَّ أمي في هذا الأوان احتواء طشت الغسيل بين قدميّ خشية على الجرح، فقط صرت أنتظر ما يُغسل كي أنشره على الحبال فوق سطح الدار، ثم أذهب لتنظيف الزريبة التي لم تعد أمي

fb/mashro3pdf

تنتصب لي عند بابها ولا تحثني على الانتهاء منها سريعًا، لم أدرِ إن كان هذا نابعًا من ثقتها في جرحي أم ثقتها في الحصان!!

وعقبَ الزريبة كنت أخرج بعنزاتي لأرعى ناحية الصخرة الكبيرة، وفي السبيل إليها صار من المعتاد لي ولأهالي شندي رؤية عسكر محمد علي يتسكعون بالطُرقات، لم يكن منهم حتى ذلك الوقت نَهْبٌ ولا سَلْبٌ، فقط كان إقبالهم بالأسواق على شراء المُخمر من الشراب والمسحوق من الأعشاب الحاثة على المعاشرة الجسدية والمؤججة للشهوات من العطارين!! كانت الناس تتساءل لمَ إقبالهم هكذا على تلك الوصفات العشبية وهم في معسكر بلا نساء؟! كثرت الأقاويل، من بينها أنهم يُقاومون زيت الكافور الذي يُخلط بطعامهم، تهامس البعض بأنهم يأتون بمخيمهم أفعال قوم لوط بعدما لم يطيقوا صبر فراق النساء، وآخرون قالوا إن عاهرات شندي راجت أسواقهن داخل خيام الجند وأنهن يتسللن إلى هناك ليلًا، وإن إحداهن شوهدت الليلة الماضية من بعض مُصلي الفجر وهي قادمة من ناحية المعسكر، فما كان منهم إلا أن ربطوها من قدميها وسحلوها ببغلة عرجاء حتى فارقت الحياة قبل الظهيرة ولم يُصل عليها أحد.

ثم مرت شهور وأنا صائمة عن الكلام، هذا الصمت الذي طال ولم ينكسر إلا في ليلة أخيرة كان الطَّرْق فيها على باب الدار شديدًا ومصحوبًا بلكنة تركية لحروف عربية:

- افتح باب، افتح باب.

كل ما دار بدءًا من هذه الليلة لم أفصح عنه أو أسرده تفصيلًا إلا عقب سنوات خلف المشربية وأنا في حضن الفرنسي الذي سترني وأنا عارية في الدرب الأصفر بالقاهرة!!

***

fb/mashro3pdf

حسام

- صارحني أنا أختك، لماذا لم تذهب للتليفزيون ورجعت فجأة بوجه متغير؟!

- لا شيء يا شوشو صدقيني، فجأة أبلغوني بإلغاء التصوير لاعتذار الضيف، فقط أنا مرهق وبحاجة للنوم عقب سهر مونتاج الأيام الفائتة.

- صحيح!! بدليل أني وجدتك غارقًا في النوم!!

خرجت شيماء وأغلقت الباب بعدما أفاقتني من الاستغراق بأوراق سليمة وأعادتني لما كنت أحاول الفرار منه، عاودتُ الاتصال ببشير وما زال هاتفه مغلقًا، حاولتُ أيضًا الاتصال بها لكن هاتفها خارج نطاق الخدمة، سهمتُ بعينيَ في الفراغ ورغم أنفي داهمتني ذكرى لقائي بها وهي بقميص النوم في الشارع.

****

منذ أيام مدرسة السكاكيني الابتدائية وأنا أركض من ورائها فوق تراب الحوش حتى يُضرب الجرس ويمسك كلٌ منّا بيد الآخر ضبطًا للصف، لا أعرف إن كان القدر هو الذي ساقها منذ البداية كي تقف

fb/mashro3pdf

إلى جواري أم أنا الذي وقفت بجوارها، ما أدركه جيدًا هو أنها اليدُ الأولى واللمسة الأولى والدفء الأول، حورية صغيرة بمريول أزرق مُنقط، أناملها غاية في الرقة، بشرتها بيضاء حانية، خصلاتها بنية غزيرة تجمعت على هيئة ذيل بديع لمُهرة صغيرة، وهي جواري على الدكة كنت ببراءة الأطفال أقترب بأنفي من رقبتها كي أتشبّع من عطر زجاجة الشبراويشي «سيكريه» التي تفوح من أنحائها.

وعقب تخرجُنا في المدرسة الابتدائية انفصلنا، غيابها عن دكتي الجديدة كان قاسيًا ومؤثرًا، افتقدتُ عطرها وخُصلاتها ورقة أناملها ومسّ كتفها في صباحات الشتاء بحثًا عن الدفء في الحصص الأولى، صرتُ منتظرًا لفرصة قدرية أراها فيها وبدا أنها لن تأتي، ظل فضولي يبحث عنها في وجوه بنات المدارس الإعدادية اللواتي كن يقفن بمكتبات الظاهر والسكاكيني وميدان الجيش لتصوير أوراق الدروس، وكثيرًا ما كنت أسأل نفسي هل سأعرفها إن رأيتها؟! هل طرأ عليها ما طرأ علينا وأصبحت آنسة يافعة وجميلة؟!

بالشهور الأولى في المدرسة الإعدادية لم أكن قد وصلت إلى سن البلوغ في حين كان مدرس الدين يُحذّرنا من لعنة اسمها العادة السرية!! تلك العادة الشيطانية التي يُبعَث من يمارسها يوم القيامة ويده حُبلى جزاءً له على فعلته!! كان خيالي قاصرًا عن إدراك كيف سيقف الإنسان أمام الله يوم الحساب حاملًا لجنين في كف يده!! ولمّا حاصرته بأسئلتي الفطرية ضجر منّي وعنفني وقام بتغيير الموضوع وسط نكات وسخرية مَن حولي، لكن سيرة هذا السائل الذي يخرج أيضًا من البنت مثلنا كما قال أستاذ الدين ويوجب عليها الاستحمام، ظلَّ عالقًا بذهني وفاتحًا

fb/mashro3pdf

كل ليلة أمامي قبل أن أنام جميع أبواب مسارح الخيال!!

وكان طبيعيًا أن أسأل نفسي ذات مساء ما هو شكل البنات من الأسفل؟! من المؤكد أنهن أجمل، تذكرتُ أني ذات مَرَّة تلصصت على إحدى قريباتنا أثناء تغييرها لملابس ابنتها، كان لها بين قدميها شق عجيب لم أفهمه!! كان مُختلفًا عما اعتقدت عليه بين ساقيّ!! كل تلك الأفكار الحائرة صارت تتوهج داخلي شيئًا فشيئًا بتلك الليلة وتُحرِّك ما كان منّي ساكنًا، وبشغف المُستكشفين الأوائل تململت وقمت لأغلق الباب، خلعت ملابسي وكأني أراني أول مَرَّة!! شعرت بانتشاء لم أشعر به من قبل في حياتي!! فطرة داخلي ألهمتني كيف أمارس الحب مع نفسي!! نبضات قلبي تسارعت، حرارات جسدي ارتفعت، روحي انسحبت نحو الأسفل، شيء ما غامض أراد أن يتحرر منّي بجنون نحو الخارج!! عشقتُ ذاتي بهوس لا أعرف ما وراءه!! بلا إرادة أغمضت عينيَّ ودون ترتيب مسبق وعلى نحو تلقائي وجدتني أستعيد كل مشاهد الأنثى بحياتي!!

لعبة العريس والعروسة فوق أسطح البيوت مع بنات الجيران والقبلات الطفولية المُختلسة اللاتي لم نكن نُدرك في حينها لماذا تُسعدنا!! النهد الساطع لإحدى صديقات أمي وهي تُرضع طفلتها أمامي بلا خجل أو قلق بحجة أني طفل صغير!! القاسية ميرفت أمين على حافة حمام السباحة بفيلم الحفيد وقميص نومها الذي صعدتْ به سرير نور الشريف، الحوريات اللاتي ارتدين قطعًا سُفلية مُلونة على أغلفة الملابس الداخلية في محال اللانجيري بشوارع العباسية والموسكي والعتبة، الأقدام الملائكية الممشوقة على عُلب جوارب شارمين، جميع

fb/mashro3pdf

قُمصـان النـوم المتروكـة خلـف أبـواب حمامـات أقاربنـا والتـي كنـت أتفحـص الدانتيـل المُزيـن لهـا بنهـم بـصري لا يشـبع، بـل وأجـد متعـة غامضـة في بقايـا العطـور المختلطـة بعرقهـا، كل الأزرار المفتوحـة والمنسـية سهوًا في قمصـان جميـع بنـات العـالم، كل تلـك الحكايـات والصـور العاريـة صـارت تتدفـق مـن داخـلي وتفـور بغـير سـيطرة منّـي وكأن أحدهـم فتـح عـليَّ هويـس ذاكـرة الجسـد!!

وفجـأة انطلـق منّـي مـا كان يجب أن ينطلـق وكأني انتزعتـه مـن جسـدي الصغـير نزعًـا قبـل الأوان، فُزعـت ولم أصـدق مـا أنـا فيـه، هـل هكـذا صرت بالغًـا؟! هـل هـذه هـي العـادة السريـة التـي يتحدثـون عنهـا؟! أي ذنـب هـذا اقترفتـه عـلى خلفيـة أصـوات قـرآن المحـال التـي يسـتعد أصحابهـا لإغلاقهـا!! اضطربـت بقـوة وبكيـت بشـدة، بحثـتُ عـن مناديـل ورقيـة أواري بهـا سـوء مـا فعلـت، لم أرم المناديـل بصفيحـة الزبالـة كـي لا أتـرك أثرًا لجريمتـي، سـترت نفـسي وألقيـت بالمناديـل في قـاع المرحـاض ثـم قمـت بضغـط مقبـض صنـدوق الطـرد، وتأكـدت مـن زوالهـا تمامًـا، أيقنـت فيـما بعـد أن ثـراء التاريـخ السري للإنسـان يُقـاس بعـدد المناديـل التـي وارى بهـا مـا تبقـى مـن آثـار شـهواته!!

ومـن فـرط الشـعور بالذنـب، وضعـت جسـدي بسرعـة تحـت الميـاه واغتسـلت، ثـم هرعـت لأصـلي ركعتـين لله أطلـب فيهـما العفـو والمغفـرة، تدريجيًّـا هـدأت نفـسي وارتاحـت، صعـدت إلى السريـر واسـتكنت، ومـا هـي إلا دقائـق حتـى عـدت أسـترجع ذكريـات الإحسـاس الـذي انتابنـي لحظـة التجربـة الأولى قبـل قليـل، قلـت في نفـسي كـم كان إحساسًـا رائعًـا وممتعًـا!! لم أتـردد، أعـدت الكـرة وفي هـذه المـرَّة كنـت أنـا مـن اسـتدعيت

fb/mashro3pdf

عمدًا الصور العارية من داخلي وصرت أضفي عليها من إبداعي الخاص، وبالفعل أتممت التجربة الثانية في تاريخي بنجاح بالغ ومتعة ساحقة، ولم أدخل لأستحم بل رحت في نوم عميق هادئ بلا أدنى شعور بالذنب، صرت عضوًا رسميًّا بنادي ممارسي العادة السرية غير عابئ بأساطير مدرس الدين!!

وصلنا في الفصل إلى سن البلوغ تباعًا وكنا نتهامس بذلك على سبيل التفاخر، وحين علمَ أحد البالغين الأولين بخبري أراد الاحتفاء بي على طريقته الخاصة، وبصوت خفيض وعدني بمجلة جنسية كاملة على سبيل الاستعارة، كان هذا فوق مستوى أحلامي!! وحين أوفى بوعده كان التحدي الأكبر هو كيف سأعبر بها من باب الشقة وأين سأواريها؟! لو أني ما زلت أذهب للمدرسة بشنطة لكنت قد وضعتها فيها، لكن التعليم في مصر كان قد تدهور لدرجة أننا صرنا نذهب للمدرسة بأجندة، لذا لم يكن أمامي سوى دس المجلة أسفل ملابسي وفي البيت أسترُ لحمها تحت مرتبة السرير.

صعدت السلم وضغطت جرس الباب فزقزقت العصافير، فتحت لي أمي وكنت قد نسيتُ أن هذا هو اليوم الأسبوعي للتنظيف عندنا، ولأن الأرض كانت للتو ممسوحة ولم تجف، طلبتْ أمي بضجر معهودٍ أن أخلع حذائيَ قبل الدخول حتى لا ألطّخ الأرضية، امتثلت لتعليماتها وكدت أن أنزلق أثناء عبوري فقامت بمحاولة إسنادي لتأتي يدها على صدري حيث العاريات المختبئات، سألتْ بتعجب:

- ما هذا الذي تُخفيه في ملابسك؟!

ارتعدتُ بشدة وارتبكت، وبفطرة المذنبين هرعت بلا إرادة نحو

fb/mashro3pdf

غرفتي هربًا ثم أغلقت الباب خلفي بالترباس، ضاعف هذا من شكوكها، ظلتْ تدق على الباب، تسارعت دقات قلبي ولم أعرف ما الذي يتحتم عليَّ فعله؟! الغرفة مقلوبة رأسًا على عقب، ولا يوجد مأوى لمواراة أي شيء!! لو أن ضابطًا بشرطة الآداب نصب لي كمينًا لما نشر كل مراتب البيت دفعة واحدة على الحبال هكذا!! لعن الله يوم التنظيف البغيض، حتى الدولاب ليس آمنًا، أمي سترتبه بنفسها كالعادة بعد قليل لتكتشف فضيحتي وعاري!!

بعد حوالي دقيقة فتحتُ لها الباب قائلًا بكل براءة وتوسل:

- عديني بعدم إخبار أبي.

- ألا أخبره بماذا؟!

أخرجتُ من أسفل ملابسي كراسة الجبر وحساب المثلثات ورأت رسوبي بالتطبيق الأسبوعي، غضبتْ بشدة وأخبرتني أن الكذب ليس حلًا ووعدتني ألا تخبره انتظارًا لنتيجة التطبيق القادم، وإلا سيتحتم عليها أن تُعلِمه كي يتصرف معي بمعرفته، ثم خرجتْ بعدما كاد قلبي أن يتوقف وأنا على بعد لحظات من انكشاف أمري!!

كان ذهني قد تفتق عن فكرة جهنمية، في الدقيقة التي لم أفتح فيها الباب، قمت بسحب الكراسة من رف المكتبة، وبسرعة قمت بالخط فيها بالقلم الأحمر كالمدرس ورسمتُ علامة X أمام إجابات المسائل وأعطيت نفسي صفرًا، ثم وضعت الكراسة أسفل ملابسي مكان المجلة، أما المجلة نفسها فقد قطعت صفحاتها بسرعة كالمجنون وألقيتها متحسرًا بلا تفكير من الشباك!! صور العاريات حملتها نسمات شهر أكتوبر لتتساقط تباعًا فوق رؤوس العابرين نحو باب المسجد لصلاة

fb/mashro3pdf

العصر، كانت لحظَة فريدَة تلك التي شهدت تخاطف المصلين لصور الجنة التي هبطت عليهم طازجة من السماء!!

وعقب هذا المشهد النادر بلحظات، اصطكت الجدران فجأة بأصوات مرعبة!! اهتز البيت بشدة متصاعدة، ترنحت النجفة وسقطت من السقف وكذلك انزاحت الزهريات والأطباق وتكسرت، صيحات الجيران قبيل الفناء كانت تأتي من كل مكان، سحبتُ أمي المفزوعة من يدها واندفعنا على السلم فارين نحو الشارع، صراخ الهاربين باحتشاد من الموت كان آية من آيات الفزع، كان زلزالًا يضرب مصر في بروفة من بروفات يوم القيامة!!

لم نكد نعبر بوابة العمارة حتى صمتَ كل شيء فجأة كما بدأ فجأة، كفَّ البيت عن الترنح، نظرنا حولنا لنجد أن كل الناس صارت بالشارع، صمدت عمارتنا ولم تقع وكذلك باقي عمارات الميدان، قصر السكاكيني الذي شُيد سنة ١٨٩٧ أيضًا ظلَّ صامدًا، وعقب سكون الزلزال ظلَّ الجميع يحدق بصمتٍ في الجميع!! خرج رجال من بيوتٍ لم تكن بيوتهم!! وخرجت نساء من بيوت رجال غرباء!! كانوا بالسروايل وكن بالبشاكير!! تساءل البعض، لمن ارتدتْ هذا القميص الذي لا يُرتدى إلا بشهر العسل وزوجها بالخليج منذ سنوات؟! مَن طبعَتْ الشفتين على رقبة هذا الأعزب؟! أما هؤلاء اللاتي تزلزلت بهن الأرض وهن بالحمامات، فقد اندفعن نحو الشارع بقليل من الستر لحظة الهروب، بدا أن أحدًا لم يجد غضاضة في الفرار على هذا النحو، ربما لأن فكرة لقاء عزرائيل بعد لحظات قد تسلب العقل البشري قدرته على الفعل، وربما ظنوا أن فعَّاليات يوم القيامة قد بدأت واعتقدوا أن وقت

fb/mashro3pdf

الحساب قد حان، لذا لم يجدوا بأسًا في التعري، لمَ لا وهم جميعًا كانوا سيقفون عرايا أمام خالقهم بعد قليل!!

لكن القيامة لم تقم والحساب لم يحن، وكان كل ما يقلقنا في هذا التوقيت هو متى سيعود أبي من عمله؟! ومتى ستأتي شيماء من درسها الذي كانت تحضره بعمارة في ميدان الظاهر؟! ودون تفكير سرنا بشارع الشيخ قمر في اتجاه ميدان الظاهر، وعند تقاطعه مع شارع طورسيناء، وجدنا شيماء قادمة من بعيد بوجه أصفر ممتقع، احتضنتها أمي كأنها وُلِدَت من جديد وبكت أختي في حضنها، على ناصية الشيخ قمر وقبل عودتنا لميدان السكاكيني لمحنا من بعيد صخبًا متصاعدًا من أمام عتبات حارة الفص!! وقف أهل الحارة بأبصار مرعوبة نحو داخلها!! كانوا يتراجعون إلى الخلف في فزع، وعاصفة من الغبار تهبّ على صرخات النساء، بفضول مصريّ أصيل اتجهنا نحو الحشد لنكتشف أن عقارًا قديمًا داخل الحارة لم يستطع الصمود طويلًا، تشققت جدرانه وتهدم طابقه الأعلى لكن قاطنيه خرجوا منه بسلام، ووسط هذا الحشد من أهل الحارة لمحتها من بعيد!!

هل هي حقًا؟! دققت النظر فيها مَرَّة أخرى، نعم هي بالفعل!! عبير صارت أطول وكذلك خصلاتها البنية أصبحت أغزر، قميص نومها الأزرق كاشف عن بياض ذراعيها ومساحة فتانة من ظهرها، نما لديها في صدرها ما كان خاملًا قبل سنوات، تفاحتان صغيرتان محاصرتان بأدنى مقاس فاضح لفتنة نور جسد البنات!!

لأول مَرَّة أشعر أني بحاجة فطرية لاحتضانها وسترها عن عيون الناس!! لكن هذا لم يتحقق، فقد آثرت أمي العودة بسرعة لميدان

fb/mashro3pdf

السكاكيني تحسُّبًا لعودة أبي.

ثم غابت الشمس، بدأت هزات أخرى مرعبة تضرب مصر واسمها توابع، عشنا ليلة من الفزع اختلطت فيها الأخبار السوداء بالشائعات، حكايات عن انهيارات عقارات فوق أهلها، موت طلاب مدارس أثناء تدافعهم، عمارة ضخمة في ميدان هليوبوليس سقطت أدوارها مثل أوراق اللعب في الثانية الأولى من الزلزال!! لذا فضل كثير من الناس أن يبيتوا ليلتهم في الميادين بعيدًا عن جدران غير موثوق في أصالتها، تكدست حديقة ميدان الجيش بكثير من أهالي الحسينية والنزهة والشيخ قمر، تلحفوا بالبطاطين اتقاءً للسعات أكتوبر الباردة في عمق المساء، والتي ظلت أمي تتحملها بجوار النافذة انتظارًا لأبي!! وحينما تأخر الوقت أكثر ولم يأتِ، انهارت على نحو كبير، تليفونيًّا اتصلنا بكل من نعرفهم من الأقارب والأصدقاء ولا أحد عرف عنه شيئًا، زملاؤه في العمل أخبرونا أنه قد استأذن اليوم للانصراف مُبكرًا قبل غضب الأرض!!

جاء صباح الثالث عشر من أكتوبر بدون أبي، ذهبنا لقسم الشرطة للإبلاغ، أخبرونا بأنه لا يمكن تحرير محضر تغيُّب إلا بعد مرور ثلاثة أيام، هل سيظل أبي متغيبًا لثلاثة أيام أخرى؟! كان هذا كفيلًا بانهيار أمي أكثر فأكثر، فات اليوم الأول والثاني والثالث، أبي لم يظهر!! مَن ظهر هو أكثم السيد إسماعيل، خرج حيًّا من بين أنقاض عمارة هليوبوليس عقب حوالي ٨٢ ساعة من مقاومة عزرائيل ومشاهدته وهو يحوم ببطء حوله في العتمات لقبض أرواح أمه وزوجته وابنته تباعًا وهو غير قادر على نجدتهم!!

سـأله مراسـل قطـاع الأخبـار بالتليفزيـون المـصري أغبـى سـؤال في التاريـخ البـشري يمكـن أن يُسـأل لإنسـان تجـرَّع مـرارة هـذه المأسـاة:

- هل تستطيع أن تقول لنا إحساسك؟!

تعجـب أكثـم مـن السـؤال ثـم أجـاب بكلـماتٍ ذاهلـة ومتقطعـة، وبتماسُـك فريـدٍ أصقلـه هـول الألم ووجـع الفقـد الـذي لم يرحـم:

- إحسـاسي!! كان قـبرًا. تـراب وظـلام، ولا شيء إلا أصـوات أنـين النـاس التـي تمـوت.

تعاطـف الجميـع مـع أكثـم ومأسـاته ومعجزتـه، لكـن أحـدًا لم ينشـغل بعـد ذلـك بـما حـدث لـه أو كيـف سـارت حياتـه بعدمـا أصبـح وحيـدًا عـلى هـذا النحـو!! اعتـاد المصريـون قلـب صفحـة مصائـب اليـوم اسـتعدادًا لمصائـب جديـدة في الغـد!!

في نهايـة اليـوم الرابـع كانـت أمـي قـد ذبلـت تمامًـا مـن الانتظـار بجـوار النافـذة، صـارت مثـل ورقـة شـجر جفّـت في أوان الخريـف واقتربـت مـن السـقوط، رنَّ التليفـون، رددتُ عـلى الهاتـف، أحدهـم بصـوتٍ وقـور أراد التحـدث لأمـي هنـاء، مأمـور قسـم شرطـة النزهـة طلـب منهـا الحضـور فـورًا لأن لديـه خطابًـا مـن أبي!! انطلـق بنـا التاكـسي مـن ميـدان الجيـش إلى هنـاك، جلسـنا أمـام المأمـور الـذي طلـب لنـا ليمونًـا بـاردًا وبقسـمات جامـدة أخـرج مـن درج مكتبـه ورقـة مهترئـة مكتوبـة بخـط اليـد، ومـن الوهلـة الأولى صاحـت أمـي:

- هذا خط عبد التواب!!

انتفضتُ أنا وشيماء إلى جوارها نقرأ ما فيها:

fb/mashro3pdf

- الساعة الآن ١٠ صباحًا واليوم ١٤ أكتوبر والعام ١٩٩٢، مَرَّ يومان ولا أعرف إن كنت سأعيش أكثر أم سأكتفي بهذا القدر، لا هواء ولا أكل ولا ماء، أنا داخل تجويفٍ خَرسَاني غريب وأكتب على ضوء بسيط يمر من بين الأنقاض، لا أدري إن كان في الأصل حجرة أم بقايا صالة، لا أحد يسمعني من أفراد المطافئ ولا صوت يعلو على أصوات الذين يموتون تباعًا، أغلب الموتى حولي عمال وروّاد مطعم اسمه Funny Bunny، أنا تعبت، أرجو ممن يجدني أن يتصل بالرقم المكتوب ويسأل عن زوجتي هناء التي أحبها جدًّا، من المؤكد أنها قلقة جدًّا الآن، لقد اشتقت إليها كثيرًا هي وشيماء وحسام..

انقطع الخط المكتوب على الورق بدون ختام منطقي!! نظرنا إلى مأمور القسم الذي أخبرنا بأن صاحب هذه الورقة كان قد وضعها في جيب قميصه وأغلق عليها الزر، سألته أمي بعيون متسعة وقلب مضطرب:

- في أي مستشفى هو الآن؟!

- لقد أخرجناه صباح اليوم من أسفل عمارة هليوبوليس في مصر الجديدة.

- هليوبوليس!!

هكذا رددنا في صوت واحد مفزوع، سكت المأمور للحظات وكأنها سنوات طويلة ثم قال:

- هو الآن بالمشرحة.

ولم أكتشف السبب الذي دفع والدي للذهاب إلى عمارة هليوبوليس في ذلك اليوم المشئوم إلا عقب سنوات طويلة حرصتْ فيها أمي على إخفاء سره طوال هذا العمر!!

fb/mashro3pdf

على أية حال ونحن في طريق عودتنا من عزاء أبي بدار مناسبات مسجد القبة الفداوية، عبرنا من أمام حارة الفَصّ، سمعنا زغاريدًا لا تتناسب مع ما يعيشه الناس من حزنٍ عميقٍ!! رأينا فرحًا بين أهالي العقار المنكوب والذين صاروا يبيتون لياليهم في العراء!! وجدناهم يُطبلون على الحلل وأغطيتها، رأينا نسوة ترقص ورجالًا يُهنئون!! رأيت عبير بطلاءٍ أحمر للشفاه!!

***

fb/mashro3pdf

عبير

قبل أن يضرب الزلزال مصر بلحظات، كنت قد وصلت لعتبات حارة الفص مبكرًا عن موعدي بساعتين بسبب الإلغاء المفاجئ لدرس خصوصي، دستُ على زر جرس الباب، تأخرت أمي قليلًا في الفتح ثم سمعت خُطاها تأتي من الداخل وهي تخفّ فوق البلاط، فتحت الباب، رائحة محشي الكرنب كانت تفوح من المطبخ فسال لعابي، أردت التوجه نحو الحلة سعيًا لالتقاط شيء منها لكنها اعترضت طريقي بعصبية غير مبرَّرة قائلة:

- ادخلي اقلعي هدمة المدرسة.

داخل حجرتي بدأتُ في خلع ملابسي، ولما صرت بقميص نومٍ أزرق وقدمين حافيتين، وقفت أمام المرآة وبيدي ضيّقت القميص حول خصري لأعرف ما إذا كان نجار البنات قد انتهى من خرطي أم أن لديه مزيدًا من الخرط بانتظاري؟!

وفجأة بدأ البيت في الارتجاج، سقطت مرآة الدولاب وانكسرت، صرخت أمي من المطبخ بهلع، اندفعتُ نحو الصالة بجنون لأُفاجأ برجلٍ غريبٍ مكشوف أغلب جسده!! كان بلباسه الداخلي الأبيض يفرّ هو الآخر مرتعبًا من الموت!! هكذا كان حال سيد اللبان حين خرج

fb/mashro3pdf

حقيرًا ضالًا من غرفة نوم أمي!! كادت الجدران تنطبق علينا ولم يكن أمامي مساحة لرفاهية الدهشة!! جرينا نحو الباب بلا تفكير، ومثلما فوجئت أنا باللبان فوجيء به أيضًا بعض الجيران الذين رأوه هاربًا من باب شقتنا بهذا العري!! لكن خيالاتهم لحظتها لم تكن مؤهلة لطرح الأسئلة الشائنة والحكايات المخزية وإيقاد نار النميمة، قاموا بادخار هذا المشهد للحظات ما بعد النجاة!!

عقب سكون الأرض وزوال الغبار، كنا ضمن هؤلاء الذين اختاروا البقاء في العراء فزعًا من انهيار العقار فوق رؤوسهم، خاصة بعدما تهدمت أجزاءٌ من الطابق الأعلى وتصدعت بعض الجدران، اقتسمنا مع الآخرين قاع الحارة وافترشنا جوارهم الحصائر، كل هذا البؤس توّجته أمي بعارٍ لن ينساه تاريخ الحارة!! وذلك حينما تبرع بعض الشباب وصعدوا وحدهم لإنزال قطع أثاث السكان تخفيفًا لأحمال العقار، كان من بين ما تم إنزاله دولاب أمي وقد علق بشماعته الخارجية جلباب رمادي باهت!! ما إن رأى الناس هذا المشهد حتى تعالت الهمهمات الساخرة، فلا أحد بالحارة إلا ويعرف الهيئة المزرية لجلباب سيد اللبان، فهو غالبًا لم يرتد غيره بحياته، انطلقت من بين الواقفين شخرات مُستترة وأخرى مُعلنة، ثم انفجرت إحداهن بسخط:

- النجاسة زلزلت الأرض من تحتنا!! حسبي الله ونعم الوكيل في كل وسخة!!

قبل أن يحل المساء كنا قد مددنا حبال الغسيل بطول الحارة، وبالملاءات صنعنا جدرانًا من قماش تسترنا من عيون الناس، لا أحد كان يمر من شارع طورسيناء نحو شارع بستان الثقلبي أو العكس إلا ورمقنا بنظرات مشفقة أو فاحصة، وفي الليلة الأولى بهذا العراء وبعدما تلحفنا بالأغطية، ملت على أمي وسألتها بصوت هامس:

fb/mashro3pdf

- ماذا كان يفعل اللبان عندنا ساعة الزلزال؟!

نظرت بعينيها إلى الأرض فأيقنتُ أنه قد فعل كل شيء!!

فعليًّا لم يكن أمام أمي سوى الانصياع لفتوى إمام مسجد عبيد الكائن بوسط الحارة لستر ما تبقى من لحمنا أمام الناس، قام أولاد الحلال بإحضار سيد اللبان من تحت الأرض وبرفقته المأذون لعقد قران أمي عليه وسط دعاء جماعي بأن يبارك الله لهما ويبارك عليهما ويجمع بينهما في خير، واحتفاءً بتلك الزيجة الفاضحة، تم فتح وتوزيع زجاجات كوكاكولا ساخنة من صندوق أحمر باهت ومترب تم استقدامه على عجل من كشك على ناصية شارع الشيخ قمر، سيد اللبان عصر يوم الزلزال كان يبحث عن جاموسة يُفرغ فيها شهوته تحت ستر الحب ثم يرحل، لكن الأرض اهتزت وورطته بالزواج من تلك الجاموسة!!

هذا المشهد العبثي وصل قمته حين تم إخراجي من الركن الخاص بنا إلى ركن آخر يخص جارة لنا وذلك حتى لا أزعج أمي وسيد اللبان في أول ليلة بشهر العسل!! هكذا رأت بعض النسوة، لكن أمي صمتت فأدركتُ رضاها وانسحبت بهدوء كي لا أعكر صفوها مع هذا الرخيص في العراء!! وفي الصباح المبارك الأول لها مع عريسها، حضر مهندس الحي أخيرًا لمعاينة العقار، وبعد أن لملمت له الحارة ما تيسَّر لرشوته، قام بوضع سنادات للبيت من الخارج استعدادًا لبدء الترميمات وأجاز لنا إمكانية الصعود أثناء أعمال الترميم ولكن على مسئوليتنا، قررنا جميعًا الصعود إلى البيت فرارًا من الواقع المشرَّد، لكننا في هذه المرة صعدنا برفقة سيد اللبان الذي أصبح ينام في حضن أمي وسرير أبي بدلًا من الخُن الذي كان يأويه أسفل بئر سلم أحد البيوت.

fb/mashro3pdf

كدت أتعثر دراسيًا في عام الزلزال بسبب كل ما أحاط بي من مهازل، إلا أني أصررت على العبور إلى الصف الأول بالمدرسة الثانوية، في هذه الفترة كان جسمي يفور شيئًا فشيئًا على نحو أدهشني أنا شخصيًّا، ملامحي الهادئة التي امتزجت بهذا التفجر الجسدي منحتني جمالًا رخاميًّا أنيقًا، هذا الجمال دفع ضريبته مبكرًا الأستاذ رائف مدرس الجغرافيا.. في حياة كل أنثى رجل بريء يدفع ضريبة فتنتها على نحو مضاعف مقابل لاشيء!!

من نظراته الأولى بحوش المدرسة أدركتُ أني أحدِثُ فيه جلبة أربكَتْ كل حساباته!! ثم أيقنت أني اختمرت داخل الأستاذ الأربعيني الأعزب المشهود له بالأخلاق حينما منحني عقب التحاقي بالقسم الأدبي رقم تليفون شقته في شارع ابن خلدون لأسأله وقتما أشاء عما استغلق عليَّ فَهمه، بحرفية الأنثى قررت دون سبب أن أزيده فأغرقه فوق غرقه!! وكثيرًا ما اتصلت به قُرب منتصف الليل لأستفسر منه عن حوض النيل، كنت أُسلِّي نفسي به وأستفيد، وعقب حوالي عشر دقائق من بدء كل مكالمة، كنت أشرع في تنعيم صوتي أكثر فأكثر وأنصت إلى طبيعة نبراته وهي تتغير شيئًا فشيئًا، ورغم ذلك لم يخرج الأستاذ يومًا عن الأصول، كان ينصهر في داخله من أجلي، ولا يعلم أني أعلم!!

وبغضّ النظر عن التسلي، كان هذا الوضع يغمرني بدفءٍ بالغ، كان رائف أول من جعلني أشعر بأني أنثى بعيدًا عن الأعراض البيولوجية التي تثبت ذلك شهريًّا، وبعيدًا عن نصائح أمي المستمرة بعدم ارتداء ملابس ضيقة أو مكشوفة لأن جسدي كما تقول «فائر»، ولا أدري إن كانت نصائحها تلك نابعة من حرصها عليَّ أم غيرة على سيد اللبان

fb/mashro3pdf

الذي اعتاد دس عينيه في كل أنحائي!! النصائح المسيِسة من الأم لابنتها غالبًا ما تُستدعى من سندرة الذنوب والخطايا!!

أحبَّني رائف في صمتٍ بالغ، وأفاض عليَّ بحنانٍ تستَّر خلف ادعاءات اهتمام المدرِّس بطالبته، جعلني أتألق من داخلي وأتوهج، وبالشهور الثلاثة الأخيرة قبل امتحانات الثانوية العامة، كثيرًا ما شدَّد عليَّ ألا أنقطع عن الاتصال به والسؤال عنه وطمأنته عن سير مستقبلي فيما بعد، كانت روحه تتألم بشدة نظرًا لدنو الابتعاد وقُرب الفراق وانتهاء الحلم!! رائف في أي مَرَّة لم يصرح بأنه يحبني، لكن الحب من الأمراض ذات الأعراض وأحيانًا قد يكون العرض أكثر صدقًا من البوح بالمرض!!

ولأني أدرك كيف أدير شئون فتنتي، وسعيًا خلف أكبر استثمار ممكن، دفعت رائف أن يعرض عليَّ المجيء إلى البيت كمدرس خاص ودون مقابل قبيل الامتحانات، وبالفعل بدأ رائف في التوافد بانتظام على بيتنا نهاية كل أسبوع، وفي جمعة أخيرة لن أنساها، جلسنا كالعادة بغرفتي المطلة على الحارة، وتماشيًا مع أجواء إبريل ارتديت فستانًا زهريًا كشفت حمالاته عن رقبتي وذراعيَ وإرهاصات صدري، ولأننا كنا قد دخلنا مرحلة حل الامتحانات، لذا بدأت أمامه في حل أحدهم وتركته يرتشف الشاي في سكونٍ وكأنه يعترف لي في صمتٍ عميقٍ بكل ما فعلتُ فيه، إن للمشاعر وهج وإن كانت صامتة، رائف كان يُقبِّل بعينيه أناملي وهي تجرى بالقلم على الأوراق، كان يدرك أنها عزيزة على شفتيه، لذا فرَّت منه وهو يراقبني دمعة مكتومة بليغة، لمحتها وهو يجاهد للحاق بها قبل أن تنهمر أمامي، ما أقسى المرأة حينما تضمَّ بيدها على شفتيّ من أحبها!!

fb/mashro3pdf

ثـم انهـار رائـف لأول وآخـر مَـرَّة، وعـلى نحـوٍ لا شـعوريّ امتـدت يـده اليمنـى لملامسـة يـدي اليسرى، لمسـها برقـة تتقطـر عشـقًا، كانـت يـده شـديدة الـبرودة وكنـت شـديدة الـدفء، أكاد أقسـم إني لا زلـت أشـعر ببرودتـه إلى الآن!! تسـمرت لحظـة محدقـة فيـه، وكأن أفعـى قـد لدغتنـي نفضـت يـدي بكل قسـوة فانسكب الشـاي على الأوراق، شعرت بـه وقد ارتبك فاستمرأت غضبي وانطلقـت، تبدلـتُ مـن حـالٍ إلى حـالٍ، هببـت واقفـة أصرخ نحـوه بشـكلٍ هسـتيري:

- ما هذا يا سافل؟! أكلكم حقراء هكذا؟!

- عبير من فضلك، عبير سامحيني، عبير أنا لم أقصد صدقيني.

- اخرس يا زبالة.

إثـر الـصراخ اقتحـم سـيد اللبـان المـكان بلبـاسٍ داخـليّ أبيـض معتـاد، ومـن خلفـه هرولـت أمـي بجلبـاب مُلطَّـخ بخلطـة محـشي معتـادة، وبنبرات متحفـزة سـألتني:

- ما لك يا عبير كفى الله الشر؟! انطقي!!

- الأستاذ المحترم مسكني من جسمي.

قلتهـا وأنـا أصرخ، لا أدري لمَ قسـوت إلى هـذا الحـد؟! هـل تعاملـتُ فجـأة مـع الأسـتاذ رائـف عـلى أنـه سـيد اللبـان الـذي لم يمـلّ مـن التحـرش بي؟! هـل قـررت لا إراديًـا بلحظتهـا أن أجعـل مـن رائـف كبـش فـداء لـكل الأوسـاخ في هـذا العـالم؟! رائـف لم يفـق مـن ذهولـه إلا عندمـا جذبـه سـيد اللبـان مـن ياقـة قميصـه ودحرجـه عـلى السـلم باتجـاه الحـارة مُكيـلًا لـه الشـتائم واللكـمات، هـذا الفاصـل مـن الجـزاء الظـالم الوحـشي توّجتـه أمـي مـن الشـباك ببصقـة قويـة أتبعتهـا بـأوراق رائـف التـي تسـاقطت تباعًـا فـوق

fb/mashro3pdf

رأسه وسط استهجان جماهير الحارة للمدرس الفاضل الذي حاول أن يستوسخ مع عبير بنت أم عبير!!

بصعوبة بالغة لملم الأستاذ رائف أشلاءه المبعثرة من فوق التراب، تعكز على ذاته وتحرك ببطء في اتجاه شارع بستان الثقلبي، قطع رائف طول الحارة برأس ينظر نحو الأرض، وقبل اختفائه تمامًا استدار بتردد نحو الوراء، وبشفاه مرتجفة وعيون تحجَّر بها الدمع، رمقني من بعيدٍ بنظرة مؤنِّبة امتزج فيها الحُبُّ بالندمِ، لمعة عينيه كثيرًا ما آلمتني في أحلامي، هذا المشهد لم يفارقني طيلة حياتي.

****

لا أجد مبررًا لأن تلح عليَّ الآن كل هذه الذكريات وتنهش في روحي بلا رحمة!! ربما لأن اليوم هو الأخير لي في هذه الحارة التي لم يربطني بها شيء مشرِّف!!

أين «رقية» البلانة تنقذني من كل هذا!! طلبتها ووعدتني بالاستئذان مبكرًا من المحل والحضور إلى هنا تلبية لمهمة عاجلة بالسكر والليمون، أريد أن أكون في مساء الغد ملكة لجمال الخدامات.

***

fb/mashro3pdf

رُقــيَّة

البلانـة المحترفـة لا تخلـف موعـدًا مـع جسـدٍ ينتظـر، لكـن شـارع رمسـيس مغلـق تمامًـا بسـبب تجمُّـع أعـداد كبـيرة مـن المسـيحيين عنـد كاتدرائيـة العباسـية، بعـض النـاس في الميكروبـاص يقولـون إن القبـط قـد غضبوا اليـوم من مجلـة اللوتـس، لم أكـن يومًا من هـؤلاء اللاتي يتملكهـن فضـول معرفـة مـاذا أغضـب المسـيحيين أو غيرهـم، أنـا لا أهتـم سـوى بغضبـة لقمـة العيـش، لـذا اتصلـت بعبـير وأخبرتهـا بـأني سـأتأخر عليهـا، وليصـبر جسـدها عـليَ قليـلًا.

نزلـت مـن الميكروبـاص عنـد مدخـل شـارع النزهـة، وبسرعـة دخلـتُ مـن بـاب الشـقة وخلعـت الخـمار، ارتديـت جلبابًـا وأشـعلت النـار أسـفل الزيـت حتـى أعـدّ الغـداء بسرعـة لحـمادة وحمـاتي، قطعـت البطاطـس إلى أصابـع والباذنجـان إلى دوائـر، صرت أرميهـم تباعًـا في الزيـت، يـا الله يـا ولي الصابريـن!! كـم سـنة مـرت عـليَّ وأنـا داخـل هـذا المطبـخ وأمـام تلـك القلايـة، تأملـت الباذنجـان المعـذَّب في الزيـت المغـلي، أيكـون هـذا هـو مصـيري في النـار؟! سـامحك الله يـا يحيـى، أكان يجـب أن تسـافر؟!

****

fb/mashro3pdf

كنا في أواخر الخريف حينما صعد يحيى إلى قسم الملابس الداخلية بفرع شركة بيع المصنوعات وسط القاهرة باحثًا عن بيجامة ثقيلة تأهُّبًا لحلول الشتاء، وبطبيعة وظيفتي كبائعة في القسم تفحصت أبعاده بدقة حتى آتي له بمقاسٍ يلائمه، لكني وبشكل غير مقصود تفحصت أيضًا عينيه!! بحثت متلكئة عن مقاسٍ يناسبه ولما وجدته تلكأت في البحث عن الألوان وكأني أردت أن أبقيه مدة أطول من أجل الفحص!! خيط رفيع وصل بيننا منذ النظرة الأولى، بدا أني قد وجدت فيه ما رطب يومي الجاف عقب ساعات من البقاء صامتة وسط رائحة خيوط غزل المحلة المكدسة بالأرفف البنية الكئيبة، يحيى بدوره لم يُنزل عينيه من عليَّ، تُرى هل هو أيضًا كان قد اكتشف بجواري استراحة مناسبة من عناء الشوارع وهموم دنياه؟! هل حقًّا الأرواح المُنهكة تتآلف؟!

منذ صغري وروحي مُنهكة، كل ما تبقى لي من أبي وأمي بقايا أطياف يوم أخير معهما في شارع «الخُرنفش» بحي الجمالية، يومها صعد أبي إلى غرفتنا فوق سطح أحد البيوت بحارة خميس عدس، ما كانت تعده أمي لنا ساعتها كعشاء لم يختلف كثيرًا عن اسم الحارة التي تأوينا، حلة من العدس الأصفر لم يمهلنا القدر فرصة عادلة للنيل من دفئها كما ينبغي، فقد أصرَّ والدي على اصطحابنا للشارع، حملني فوق كتفيه بعد أن اشترى لي طرطورًا من فوق إحدى العربات فانتشيت بفرحة عارمة، منذ ذلك اليوم وأنا أتقفى أثر هذه الفرحة البعيدة جدًّا بين ضلوعي كلما ضاقت الدنيا وصعب الحال.

كان شارع الخُرنفش قد ازدان بعناقيد متداخلة من اللمبات الملونة، ومن بعيد علت أصوات الترانيم، ثم ظهرت الزفة آتية من خلف انحناءة الطريق، يتقدمها كاهن كنيسة مار جرجس بحارة زويلة

fb/mashro3pdf

قابضًا على صليبه، وفي بشاشة يشير إلى الجميع، ومن خلفه يمشي الشمامسة في صفين بأرديتهم البيضاء، يحملون الصلبان وأيقونة كبيرة لرجلٍ روماني يعتلي فرسه ويطعن التنين الملتوي بحربته، والجموع على الجانبين ملتصقة إلى جدارن الشارع تهتف بحماس شديد: يحيا الشهيد مار جرجس، وفي نهاية كل هتاف تزغرد النساء قاذفة بالحلوى، ويطلق آخرون في الهواء ألعابًا ناريّة وصواريخ، كان الجميع يحتفون بذكرى هذا الشهيد كي تحل بركته على الجميع، لكن بدا أن بركته في هذه الليلة لم تحل!!

في وسط النشوة الجماعية والتهليلات اشتبك بعض شرر الألعاب النارية ببعض الخيش المتراص أمام مخازن الخُرنفش في انتظار التخزين، أظلمت الدنيا فجأة واشتعل كل شيء بسرعة مجنونة، اختلط الحابل بالنابل في الشارع الممتلئ عن آخره بالناس والنار، سقطتُ من فوق كتفيّ أبي وفقدته في الظلام وسط التدافع!! احترق كثير من الخلق ودُهس البعض تحت الأقدام، أنقذتني العناية الإلهية ولم تمسني نار، أما والدتي فقد ظلّت على قيد الحياة أيامًا لكن حروق الدرجة الثالثة في مستشفى الحسين الجامعي قاومت الحياة، لحقت أمي بأبي الذي كان قد سبقها إلى العالم الآخر بيومين وكأنها لا تريد أن تتركه وحيدًا في ظُلمة القبر هناك!! في هذه الدنيا لا أقسى عليّ من ابتسامة عيني أمي الساكتين بين لفافات الحروق البيضاء قبل أن تُغمضَ إلى الأبد!!

بعد موتهما تربيت وكبرت بحارة التُمبكشية في بيت خالي، هذا الرجل البسيط مقرئ قرآن المدافن بالصباح والسرادقات بالليل وبعض البيوت المستورة أيام الاثنين والخميس لدفع الشيطان وجلب الرزق، عُرِفَ بين أبناء الحارة بالشيخ هارون الطيب، تلك الكنية التي

fb/mashro3pdf

التصقت به لصبرِه وحسن معاشرته لزوجته سليطة اللسان، توبيخ امرأة خالي لي بأوسخ الألفاظ التي تنال من شرفي وشرف أمي الميتة كان أكلة يومية أتناولها في الصباح عند الاستيقاظ وفي المساء عند عودتي من شركة بيع المصنوعات، كنت أتعمد الرجوع سيرًا على قدميّ من وسط المدينة وحتى التمبكشية مُستمتعة في داخلي بمداعبات المارة ومعاكسات أصحاب المتاجر، ولم يكن هذا عوجًا في سلوكي بل احتياجًا عارمًا لحنانٍ مفتقَد، وكثيرًا ما كنت أحن إلى الانتحار والفناء رغبة في لقاء أمي وأبي بدلًا من التعذب برؤيتهما فقط في الأحلام، لكن الانتحار قد ينتهي بي كافرة لأستقر في النار برفقة زوجة خالي مَرَّة أخرى!! في هذه الدنيا لا سبيل نحو الراحة سوى بانتظار عزرائيل في صبرٍ جميلٍ!!

كل هذا الكم من حكايات الوجع ألحَّ عليَّ دون إرادة في اللحظات التي كنت أبحث فيها ليحيى عن بيجامة شتوية بين أرفف شركة بيع المصنوعات!!

الأرواح المنهكة تتآلف حتى وإن لم ندرك ذلك في البدايات، وقد يكون هذا هو السبب الحقيقي لما نسميه الحب من أول نظرة!! هذا الحب المقتحم بلا استئذان الذي قد يصادفه الإنسان مَرَّة في حياته والذي قد لا يصادفه أبدًا، المحظوظون من البشر قد يشعرون رعشة صنارته بالقلب مرتين لا أكثر، هذه النوعية من الحب المفاجئ لا تندلع في القلب إلا حين تتلاقى أوجاعنا المتشابهة في دوائر روحية شفافة من حولنا وتأتلف، وهذا هو ما حدث لي أنا ويحيى حين شاء القدر أن نلتقي أول مَرَّة بقسم الملابس الداخلية.

في عصر ما قبل ارتدائي الخمار، وبعطرٍ رخيصٍ كان يفوح من أنحائي، وطلاء أحمر مقشر بأظافر يدي، أحضرت ليحيى بيجامة من

fb/mashro3pdf

رف مكدس، طلبت منه أن يستدير فامتثل لأمري في صمت، لامست من الخلف كتفيه بأكتاف البيجامة لأتأكد من ملائمة المقاس له، قلت:

- البيجامة جميلة ومقاسها مناسب.

- نعم؟!

- أنعم الله عليك، البيجامة جميلة، أنت سرحت!!

- لا أبدًا، لكن ليست البيجامة وحدها هي الجميلة هنا.

رددت وأنا أضحك على نحو ساخر:

- أسلوبك قديم جدًا، الحق شباك الخزنة، وتعالَ في أي مَرَّة أختار لك بنفسي بيجامة شهر العسل.

- العجلة من الشيطان، امسكي نفسك.

- بصراحة لا، أنا تعبت.

ميوعتي كانت معتادة من بنت البلد حين تعتريها رغبة جامحة في حصاد الجسد!! بطبيعتي كان ما يكمن في داخلي يظهر بشكل بالغ عبر فلتات لساني، كنت فعلًا قد أحببته في تلك الدقائق على نحوٍ غير مبرَّر أو معقول!! كانت نفسي تتوق لاحتضانه وهو كذلك، وأثناء لفي للبيجامة وجدته يحملق في المساحة الساحرة أسفل رقبتي!! مددت يدي ورفعت له رأسه قائلة:

- لا لا، لو سمحت، ممنوع الاقتراب أو التصوير.

أعقبتُها بضحكة تاريخية احتوت على ثُلث ميوعة بنات الأرض!!

كان الجنون قد تملك بي لدرجة صرت معها على وشك أن أحيط رقبته بذراعيَ لأقبّل شفتيه على الملأ هكذا وسط المحل، وعلى أية حال كنت من هؤلاء اللاتي قد يُظن أنهن حتمًا على وشك السقوط لكنهن غالبًا لا يسقطن، في تلك الليلة وعقب وصولي البيت في التُمبكشية،

fb/mashro3pdf

حرصت قدر الإمكان على تفادي العقربة امرأة خالي ثم تواريت سريعًا بالحمّام من أجل استحمام دافئ، وتغيير ملابسي التحتية التي انتهت صلاحيتها بسبب سرعة ذوباني!! كان عليَّ أن أصلي العشاء.

****

هذا اليوم الذي مرت عليه سنوات طويلة، دائمًا ما تضع ذكراه على ملامحي قناعًا عجيبًا من ألوان البؤس والبهجة!! أما سرعة ذوباني هذه فقد ظلت سرًا لا يعلم أحد عنه شيئًا سوى يحيى وصاحبه بشير فيما بعد، بشير الذي قال لنفسه حينما رآني أول مرة:

- هذا الجمل لو قلع مَرَّة، لن يرتدي مَرَّة أخرى!!

* * *

fb/mashro3pdf

بشير

ماتت البطارية قبل أن أستوعب شيئًا من الهذيان الذي قاله حسام في التليفون، يظن أن حبيبته هي العارية التي على غلاف اللوتس!! ما هذا الجنون!! حين أصل لميدان رمسيس سأبحث سريعًا عن شاحن وأكلمه، لا أعرف متى سأنتهي من حلّ أزمات حسام!! منذ مات أبوه في الزلزال وأنا صديقه المقرب رغم السنوات بيننا، كم هي صغيرة مشاكله التي يشعر أنها ضخمة!! لو تبادلنا الأماكن لتأكد بعينيه من تفاهة جميع أزماته ولانتهت كل مشاكلي، صحيح!! لمَ لا أذهب أنا للتليفزيون ويسوق هو الميكروباص؟! لمَ لم يرزقه الله بعشق رقية ويقدّر لي مُرافقة سحر؟! أنا أتمرغ مكانه في شقة الزمالك وهو يبحث عن خُن يستره في حارة الحلوة.

****

أفنيت عمري في شقة ضيقة بحارة الحلوة، عشت فيها أنا وأبي وأمي وشقيقي الأصغر وجدتي وعمي وزوجته وبناتهم، حُشِرت مع كل هؤلاء في مطرحين وصالة وحمّام مرهق يتنافى مع تسميته بيت الراحة، فضلًا عن مطبخ يختنق بأنبوبة بوتجاز عفنة كانت في الأصل زرقاء، الصالة كانت عبارة عن صندوقٍ خرسانيٍّ سخيفٍ، والهارب

fb/mashro3pdf

من بين جدرانها لن يجد أمامه سوى اللجوء إلى حجرتين خانقتين مطلتين على الحارة، كنا نتكوم بحجرة يتيمة هي الأصغر في المساحة، أما الثانية فهي لعمي وأسرته، وفي مثل هذا القبو الشهير بالشقة، كانت السيطرة على المائدة الخشبية بكراسيها الأربعة تخضع لأسبقية الاستيقاظ مبكرًا في الصباح!!

هذا العدد بالشقة يعود في تكوينه إلى سنوات بعيدة مضت، وتحديدًا لما آل بيت جدتي بعابدين إلى السقوط ثم تهدم، حينها وهربًا من العراء لم يبق أمام والدي وعمي سوى حمل جدتي المريضة وأثاثها المتهالك والنزوح نحو السكاكيني بحثًا عن أربعة حيطان تسترهم، وعقب أن وضعًا كل ما يملكان من جنيهات فضلًا عن سوار وحيد كانت تملكه جدتي وباعته، بالكاد نجح الشقيقان في استئجار شقة بائسة بحارة الحلوة، لكن الفقر والطمع في الاستحواذ على المكان دفع أبي وعمي للعناد والزواج داخل نفس الشقة مقتسمين البقاء، وفعليًا كانا قد اقتسما الفناء!!

أما جدتي الأكثر سُمرة فرغم فقدها لسوارها الوحيد بحثًا عن ظِل جدار بنهايات العمر، إلا أنها مع الوقت لم تجد لنفسها بقعة في بيتها، ليستقر بها المقام وحيدة منفية فوق المصطبة الخشبية بجوار الثلاجة الإيديال البيضاء في الصالة وذلك بعد أن دفعها ضيق الجحر علينا إلى هذا المصير، وذات يوم شتوي وقبيل آذان العصر وجدها أبي في مكانها المعتاد على المصطبة بعينين مغمضتين، وعلى غير عادتها كان سنها الفضي يلمع بابتسامة هادئة غابت عنها منذ سنوات!! اقترب منها وللوهلة الأولى اعتقد أن الهذي قد طالها بحُكم العُمر، لكن ابتسامتها كانت فرحة بقدوم زوَّار طالما انتظرتهم كثيرًا، كان أوانها قد آن وذبلت

fb/mashro3pdf

في السماء ورقتها، بهدوءٍ بالغ ارتقت روحها إلى الأعلى تاركة على المصطبة جسدًا نحيفًا عُلق في رقبته خيط غليظ يلضم مفتاحين، أحدهما لبيت والآخر لقبر!! عاشت جدتي عمرها كله عاجزة عن العودة لهذا البيت، وماتت وهي عاجزة عن الوصول لهذا القبر، لا لشيء سوى لأن كليهما الآن بقرية نوبية صغيرة في قاع بحيرة ناصر!!

ورغم السعادة الدفينة باتساع رقعة الفراغ بالشقة، إلا أن أمي وزوجة عمي حاولتا اصطناع العويل على جدتي مجاملة للرجال وتخلّصًا من ذنوب إهمال السيدة العجوز، لن أنسى ما حييت دموع جدتي يوم تركَتْها أمي وامرأة عمي تَبُول على نفسها بعد أن تقاعستا عن مساعدتها في الوصول إلى الحمَّام، كانت تلك هي المرة الوحيدة التي قررت فيها جدتي معاتبة ابنيها بسبب زوجتيهما، لكن اقتناع الرجال بكلام الحريم جعل جدتي تصمت في حسرة أبدية بعد أن صدَّق ابناها تبوُّلها على نفسها بلا إرادة!! حشر لحم البشر في مكانٍ ضيقٍ يفرض على الجميع طبائع ما قبل الإنسان!!

كان أكثر من انتحبوا بصدق على رحيل الجدة نحن أحفادها الذين ورثنا عنها ثروة حكاياتها الليلية عن جدتنا الكبرى سليمة في شندي ببلاد السودان، أنا وبنات عمي كنا نتحلق حول مصطبتها كل مساء لتُورثنا الحكايات، وفي نهاية كل حكاية كانت تقول:

- احفظوا عنّي هذا جيدًا حتى نعود.

ثم تتمتم لنفسها بصوت خفيض أنهكه طول البعاد:

- في يوم ما سوف نتقابل كلنا يا سليمة وسوف نعود!!

رحمكِ الله يا جدتي، كانت ببساطتها الحالمة تريدني أن أكمل تعليمي وأصبح ضابطًا بالجيش ثم رئيسًا كي أقوم بنقل بحيرة ناصر إلى أي

fb/mashro3pdf

مكانٍ آخر بديل فتعود هي وباقي أهلها من الشتات إلى قراهم مَرَّة أخرى، لذلك وحين أيّد كل من بالبيت تركي المدرسة ونزولي للعمل على الميكروباص مع أبي، كانت هي من عارضت وبشدة، لكن أبي لم يرضخ لمعارضتها، وبالفعل نزلت للعمل مع أبي في السيارة وصرت نائبًا لرئيس الميكروباص!!

كانت مهامي أن أعبئ الركاب من الموقف بأقصى سرعة وأرتبهم وفقًا لمحطات نزولهم من الخلف إلى الأمام، ألملم منهم الجنيهات الورقية والقطع المعدنية وأنسقها، أضرب بيدي صاج باب السيارة من الخارج مرتين لأذكر السائق بحتمية التوقف إنزالًا للزبائن، أنبه الركاب باسم المحطة القادمة، وأصيح من الشباك على الناس في الشارع حسب اتجاهنا على الأسفلت:

- جسر السويس، عرب وجراج.

أو:

- عباسية، غمرة، رمسيس رمسيس.

طبيعة وجودي المبكر في مواجهة مباشرة مع الركاب جعلتني باستمرار أعيش حالة صادمة لبراءة أي طفل!! لم لا وقد أصبحت شاهد عيان على عالم الميكروباص من الداخل، هذا العالم الذي كان يعج بسائق في المقدمة يسب أموات وأمهات كل مَن يتحرك أمامه، وآخر في الجوار مهموم بالتسلل إلى جيب جاره الذي استأنف شخيره مُفضلًا عالم الأحلام، وأخرى اضطرت إلى إرضاع صغيرها من تحت الخمار بعد أن تأفف الجميع وملّوا صراخه، مما أوقد خيال أحدهم في الكنبة الأخيرة ودفعه دون تردُّد إلى محاولة استكشافية بيده للتأكُّد من مدى جاهزية صدر جارته للقيام بمهام أمومتها مستقبلًا، تصنَّعتْ هي

fb/mashro3pdf

الرفض في البداية وأمسكت بيده لتبعدها، لكنها في الحقيقة كانت تقربه أكثر فأكثر قبل أن تُغمض عينيها وتجز على شفتيها!!

كانوا غير آبهين بهذا الصغير الذي يجلس في مواجهتهما إلى جوار الباب، بعضهم كان يمنحني ابتسامة صفراء عقب فعلته وبعضهم كان ينظر إليَّ غضبًا، وقليلون تبجحوا وحركوا أفواههم في صمتٍ بشتائم أستشف منها أني ابن لزانية!! صرت أقرب إلى قواد منه إلى تبّاع!! ترسخ هذا المفهوم بداخلي أكثر عندما قررت أن أسرد لوالدي ذات مَرَّة وعلى استحياء بعضًا مما شاهدته داخل الميكروباص، لكن أبي صمت قليلًا قبل أن يعدل من وضعية الفوطة الصفراء حول رقبته ويُحكم بلعابه لف سيجارته ويطلق باكورة أنفاسه شاردًا في فراغ الموقف ليلًا، ليرد بكل ما أوتي من حكمة السنوات، وذلك عقب رشفة شاي أخيرة من كوب ليلي متسخ أعدته سماح صاحبة نصبة الشاي وزوجة كل سائقي الموقف، قال:

- طالما أن ما تحكيه لم يظهر في مرآتي فإن الله قد سترهم، لو توقفنا عند أفعال كل زبون فلن نشتغل بقرش صاغ، مات الكلام.

مع تتابُع السنوات تحولت من تباع مجتهد إلى تباع شديد الحرفية حتى جاء يوم كنا نُحمّل فيه الميكروباص أسفل كوبري غمرة عقب رشوة دسَّها أبي لأمين الشرطة حتى يتركنا نُحمِّل من هذا المكان، بعدها استند أبي برأسه كالعادة إلى عجلة القيادة حتى أنتهي، لكن وبعد أن اكتمل الميكروباص لم يستجب أبي إلى ندائي بالتحرك، ظلَّ مستندًا برأسه يُشخر في نوم عميق، قلت:

- الظاهر أنك عجزت يا معلم، لو تعبت تعالَ مكاني.

لكنه استمر بالشخر المتقطع فاستكملت:

fb/mashro3pdf

- الأمين راجع يا حاج، أمناء الشرطة سفاحون لا يشبعون من الحرام ولن يرحمونا!!

وبالفعل بدأ الأمين في التململ نحونا، التففت نحو باب أبي، مددت يدي لإيقاظه، لكن وبمجرد لمسي له ارتمى إلى الجانب الآخر بجسد باردٍ على حِجر زبونين إلى جواره، حالة من الهرج والمرج سادت الميكروباص قبل أن يفر الجميع!! ثم تعالى صوت الأمين مناديًا الونش عبر جهازه اللاسلكي، حملت أبي إلى المقاعد الخلفية وجلست مكانه لأتولى القيادة طائرًا بسرعة جنونية نحو مستشفى دار الشفاء بالعباسية أمام الكاتدرائية، دخلت به بين ذراعي إلى قسم الاستقبال، متثاقلًا قام الطبيب ليخبرني:

- أبوك ميت يا ابني!!

لم أتخيل أن شخيره أسفل كوبري غمرة كان صعودًا متعثرًا للروح ولم يكن غطًا في نوم عميق!! لم أتمالك دموعي وأنا أخرج به من دار الشفاء ميتًا نحو الميكروباص وسط نظرات الموجودين وترحماتهم، في وقار مددت جثمانه على المقاعد الخلفية التي أجلسني وسطها وحيدًا قبل سنوات، تمتمت بشفاه مرتعشة:

- رحمك الله يا معلم.

هكذا عودني عندما حظر عليَّ نداءه بأبي داخل هذا العالم الذي كان فيه هو المعلم وأنا التباع، لم أستطع مخالفة قسوة تعاليمه حتى بعد أن فارقت جسده الحياة!! المرة التي حملته فيها بين ذراعي ميتًا كانت الأولى التي أقترب فيها من أبي!! الأولى التي أشعر فيها بحنان حقيقي منه وإليه!!

fb/mashro3pdf

بأسنان مصطكة وأطراف مرتعشة وصعوبة بالغة، قُدت السيارة من المستشفى نحو الحارة، كل محطة أعبرها كانت تحمل لي معه ذكرى مختلفة من الحنان أو الألم، إلى هذه الأجزاخانة في شارع العباسية حملني ملهوفًا عندما ارتفعت حرارتي لما بعد الأربعين، ومن هذا المحل اشترى لي لعبة بنك الحظ مكافأة على نجمة حمراء لم تتكرر في كراسة الإملاء، وعلى هذا المقهى طلب منّي سحب نفس عميق من شيشته، وعقب سعالي الشديد ضحك كثيرًا ثم استكان وتمخض وبصق وتحدث عن ضرورة نزولي الميكروباص كتباع بعد أن كبرت على استجداء مصروف الأطفال!!

عند إشارة أحمد سعيد ومن هذه العربة كان أبي يشتري لنا كل أسبوع طبق هريسة محشوة بالفول السوداني، أحبت أمي الهريسة التي كانت في حقيقتها عوضًا عن المجهود الذي يبذله المعلم مع سماح صاحبة نصبة الشاي مساء كل خميس!! شبعت أمي من الهريسة وشبع أبي من سماح!! هذه البقرة الحلوب التي لا تشبع كانت في عشتها بالموقف ضُرة سرية مسالمة لأغلب زوجات السائقين!! لم تغضب منها أمي أو تغيّر لأنها لم تعرفها من الأساس!! السيرة العطرة لبعض الأزواج الراحلين في نفوس زوجاتهم لا تعود بالضرورة إلى إخلاص الرجال بقدر ما تعود إلى جهل الحريم!!

في حارة الحلوة توقفت بالميكروباص متماسكًا رابط الجأش، ثم انهرت فجأة وأنا أفتح الباب الجانبي، تشهد البعض وترحم آخرون حينما عرفوا صاحب الجسد الممدد على المقاعد الخلفية، أما أمي فقد كانت منشغلة بإخراج رغيف محمص من الفرن تأهُّبًا لعودة أبي الذي كان يروق له الخبز المحمص مع الملوخية الخضراء في الصحن العميق،

fb/mashro3pdf

لكن همهمات الناس أثارت فضولها، فاتجهت نحو الشباك وأطلت، هزت صرختها أرجاء الحارة بعدما رأت عمرها كله مُشيعًا فوق أكتاف الرجال!!

****

رغم فوات كل هذه السنوات، صرخة أمي بالشباك ما زالت تدوي بأذني وكأنها منذ لحظات، هذا اليوم الأسود كان سببًا مباشرًا في زواجي من وفاء، هذا الزواج الشرعي الذي كان أقرب في حقيقته إلى زنا المحارم!!

صحيح، ما أتفه كل أزماتك وجميع حكاياتك يا حسام!!

* * *

fb/mashro3pdf

حسام

لم أعد أذكر كم مَرَّة سمعت فيها هذه المرأة البائسة وهي تخبرني أن هاتف عبير ربما يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة!! من فرط اليأس كففت عن الاتصال ووضعت التليفون فوق غلاف مجلة اللوتس وظللت أنظر إليهما في ذهول!! وفي النهاية دسست وجهي بين كفيّ!! اللعنة عليكِ وعلى اليوم الذي لصقت فيه طابع تلك الكلية بأوراق التنسيق، أي صباح أسود هذا ارتديت فيها القميص المُشجر؟!

****

البداية كانت بقميص مُشجر لامع ظننت أنه الأبدع فاشتريته من شارع الشواربي خصيصًا لصباح هذا اليوم، وفي ميدان الجيش انتظرت الأتوبيس رقم ٩٢٤ «العباسية - كفر الجبل» لأحشر نفسي وسط لحمه مقابل خمسة وعشرين قرشًا، وفي الثلث الأخير من رحلة هذا الأتوبيس هبط أمام بوابتها التاريخية، اجتيازي للمدخل بعد تفتيشي كان ارتطامًا بين عالمين.. بين المدرسة بعالمها الذكوري وأُفقِها المحدود وغبارها المتصاعد من حوشها الرملي، وهذا العالم الصاخب بوجود البنات بين جنباته، تواجد الذكر أو الأنثى هو المتغيِّر الأهم في حياة أي كائنٍ حيّ قادمٍ من مدرسة حكومية إلى جامعة القاهرة.

fb/mashro3pdf

وحينما وصلت للمبنى الجديد لكلية الإعلام، اقتحمت دائرة بدا عليها المرح، استعلمت من طلابٍ قدامى عن مكانِ جدول محاضرات الفِرقة الأولى، رحبوا بي وأشاروا إلى الجدار البعيد هناك، لحظة دوراني باتجاه الجدار كانت فارقة في حياتي!! رأيت ظهرًا كان من الصعب أن أخطئ انحناءات شلالاته! للوهلة الأولى تعجبت.. هل من الممكن أن يحدث هذا؟! من أراق هذا الرحيق فوق رخام الكلية؟! منذ عام الزلزال وأنا لم أرها إلا مصادفة ولمرات قليلة من بعيد، لماذا يفعل بنا القَدَر كل هذا؟! اقتربت منها شيئًا فشيئًا، نعم هي!! طالما أعجبني شعرها البني الغزير المتوج لكتفيها، بشرتها البيضاء برهن على روعتها إشراقة قدميها، تكوين ملائكي أعرفه جيدًا، الصدفة غير المحتملة وحدها ساقت عبير إلى كلية الإعلام عقب سنوات من تشكلها بإيقاع ساحر!!

وصلت إلى أقصر مسافة يمكن أن يُسمح بها بين طالب وطالبة في بهو كلية، بصوت هادئ ولأول مَرَّة منذ أن كنت إلى جوارها داخل دكة متهالكة بفصل صغير في مدرسة السكاكيني الابتدائية قبل ست سنوات، ناديتها:

- عبير.

التفتت نحوي وفي جزءٍ من الثانية تحوَّلت ملامحها من صمتٍ يتساءل إلى دهشة عارمة!! من برقة في عينيها إلى ابتسامة عرضها السموات والأرض!! ثم قالت وهي تمدّ يدها بقوة:

- حسام!! صح؟!

- صح جدًا يا عبير.

fb/mashro3pdf

هكذا رددت بتلقائية وأنا أمدّ لها اليدين، واحدة لأسلم بها عليها والأخرى لأغلف بها كفّ يدها من الخارج وكأني أردت أن أحتضنها بقوة بعد هذه الغيبة الطويلة التي تغيّرت فيها ملامحنا باتجاه الخشونة أو النعومة، أثناء هذا السلام المفاجئ ظللنا ننظر إلى بعضنا من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى بفرحة غير المصدقين، وكأن كلًّا منا يسأل الآخر بتعجُّب، ما كل هذا الذي طرأ على شكلك منذ دكة المدرسة؟!

عدنا سويًّا في نهاية اليوم من الجيزة إلى غمرة ببهجة غير مسبوقة وقبل أن نفترق نحو شوارع بيوتنا اتفقنا على اللقاء غدًا للذهاب معًا، وبالفعل وفي تمام السابعة صباحًا انتظرتها أسفل كوبري غمرة، كانت قد أقنعتني بركوب أي أتوبيس باتجاه ميدان عبد المنعم رياض، ومن هناك نركب الأتوبيس رقم ١١٥ «التحرير - صفط اللبن» وننزل بمحطة الجامعة بدلًا من الانتظار الأبدي للأتوبيس رقم ٩٢٤ في ميدان الجيش.

وهي قادمة من بعيد كانت بشرتها التي خلقها الله من العسل الممزوج ببتلات ورود الصباح تضيء كل ما حولها!! ابتسامتها وهي تتهادى نحوي أكسبت عمارات شارع رمسيس من حولي طلاءات بألوان عجيبة من ألوان الجنة!! إطلالتها في النهار أنبتت على الجانبين أشجارًا خلابة نادرة لم تُشاهد في مصر من قبل!! رأيت السيارات تطير في السماء وتهبط وسط حدائق من زهورٍ بيضاء ناصعة وأخرى بنفسجية هادئة!! كل هذا فقط لَمّا أطلت من بعيد، فلما اقتربت ووضعت يدي بيدِها في سلام صباحيّ، شعرت بأن روحي قد انسلت من أصابعي نحو الأنامل الرقيقة لعبير، تلك الأنامل التي لم تُخلَق سوى لأميرات حكايات ما قبل النوم!! حينما سلمت عليها سألت نفسي: كم صباحًا ضاع منّي دون أن ألمسك في بدايته؟!

fb/mashro3pdf

عبرنا شارع رمسيس نحو محطة الأتوبيس، أكاد أقسم أن عبير في هذا اليوم لم تكن بشرًا، لم تكن سوى ملاك بالكاد تخفّ أطرافه بالأرض وهو شِبه طائر فوقها!! ملاك تنكَّر وسطنا في صورة بشرٍ من أجل مهمة إنسانية غامضة!! ملاك قدم من السماء من أجل جراحة روحية دقيقة في قلبي المفتوح!! وعندما صعدنا إلى أتوبيس فارغٍ وجلسنا، تأكدت أن العبير فيها لم يكن مجرد اسم!! كانت أريجًا خلابًا في كل مكان تعبر منه أو تمر إليه، بفضلها تحول الجوف المعدني للأتوبيس البائس إلى زجاجة عطر معتقة في خزانة قديمة من خشب الصندل!! عبير لم تكن بحاجة إلى نثر عطور صاخبة أو هادئة فوق جسدها مثل باقي البنات الأرضيات!! عبير كانت زهرة الزهور وابنة شرعية لكل حدائق الورد في العالم!!

طوال الطريق، حينما كانت تناديني باسمي، كنت أُولَد من جديد بين شفتيها اللتين كانتا منبعًا ومصبًا لكل أنهار الأنثى في العالم!! وحين تتحدث لم أكن أنصت إليها بقدر ما كنت أتأمل بداعة صنعتها!! كنت أغيب في كريستالتيّ عينيها إلى حدّ الغرق!! وإن نجوت فلا أدري إلى أين ستذهب بي شلالات خصلاتها!! كانت روحًا صباحية شفافة أغتسل في حجرِها من كل همومي، الحكي معها كان مصفاة بلون زُرقة السماء لكل أوجاع الروح، أنا لم أحب عبير يومًا كجسد، رغم أن هذا الجسد هو ما فتن كل من حولها بها.

داخل أسوار الجامعة لم يكن يؤرّقني ويحرق بداخلي كل أخشاب الغيرة سوى هذين النهدين الرائعين اللذين لم يكن لعبير يدٌ في ستر ألقهما حتى وإن ارتدت نقابًا!! فقد كانا محطًا لأنظار كل من حولها،

fb/mashro3pdf

لم تكن ترتدي زِيًا ضيقًا أو عاريًا أو مشدًا بمقاس أصغر، لكن الله كان قد حباها بنحتٍ فتان يسفر عن نفسه وإن كان مستورًا، كنت أعاهدها داخل نفسي كل ليلة بأني ذات يوم سوف أنقش على جسدها كل أحاديث العشق بأحبارٍ من نورٍ، وأن أنسج لنهديها مشدًا رقيقًا من كلماتي، فأستر بحروف حنيني إليها فتنتها عن عيون الخلق!!

وهكذا بين ذهابٍ من الجامعة وعودة، مرَّ العام الأول كشهر عسل روحي طويل دون أن أعترف لها صراحة بالحب الذي فاض بين ضلوعي، كنت أخشى أن أفقدها بالاعتراف إن لم يرق لها، لكنني لم أطق عذابات الصمت كثيرًا، وبعد مرور العطلة الصيفية بخطى ثقيلة عُدنا في العام الجديد ليكون الشهر المخملي الذي يحمل الرقم ٩ هو شهر الاعتراف، لذا خُلد سبتمبر في مدونتي كرحمٍ ضمَّ بين جنباته أجنة الحكايات الأولى، لمَ لا وهو الشاهد على بدء كُل أحداث الحنين، فيه رأس السنة الحقيقية ومبتدأ الخريف والسعي الحالم فوق أوراق الشجر، سبتمبر هو الشهر الذي ننشر فيه بذور الدفء والونسة والوجدان استعدادًا لشتاءٍ من العشق العذري تحت المطر، سبتمبر هو الشهر الذي عزمت فيه أمري على البوح لها بكل شيء، لذا وخلف أسوار جامعة القاهرة، انتظرت اللحظة التي تعامدت فيها شمس الغروب على ملامحها كي أعترف.

****

يا إلهي منك يا عبير!! هل كنت تستحقين كل هذا العشق؟! كم من جرائم رِق وعبودية نرتكبها كل يوم في حق أنفسنا باسم هذا الداء الشفاف المعروف بين البشر باسم الحب!!

fb/mashro3pdf

متى أتخلص من عشقك الذي أجبرني يومًا على البقاء إلى جوارك وأنتِ تلتقطين بعدسة كاميرتك صور الملابس الداخلية الملونة لبنات الإخوان المسلمين!!

لقد سئمت اجترار تلك المرارات، سأعود إلى أوراق سليمة علها تكون فيلمي الوثائقي الأول، فضولي يقتلني لمعرفة كيف جاءت القاهرة وكيف اندفعت عارية في شارع المعز؟!

***

fb/mashro3pdf

أوراق سليمة

الحمّام كان عالمًا غير العالم، صحيح أنه جزءٌ من مصر التي دانت لمحمد علي في يوم أسود قبل سنوات لكن الإمرة بين جدرانه لم تكن للباشا بقدر ما كانت للمعلمة روحية، هذه الأرملة المتهتكة ذات الجسد الصاخب والصدر الكبير والشعر الأسود الممتزج بخصلات فضية من فعل الزمن، شكّل صوتها الجهوري، وفحش قولها واسترخاصها شرف المستحمات لحظة الغضب، أفضل ضمانة للسيطرة على النظام داخل الحمّام، فهي الآمرة الناهية والقاضية الوحيدة فيما ينشب بين العاريات من خلافات، والمنظِّمة لما يُتبادل بينهن من حوارات ونكات وبذاءات.

روحية وسط هذا التكوم من الأجساد اللينة كانت أقرب إلى قوَّادة بين عاهرات سريات داخل عالم آخر سفلي تُرفَع فيه البراقع ويفر منه الحياء، عالم مختلف في قوانينه وأحكامه، عالم الحمّام كان باحة النساء الخلفية، ولم يعرف أحد من ذكور الخارج أنه خزانة سرية لأعراضهم المنتهكة وفضائحهم المطوية!!

في بهو الحمّام وعقب المرور من المدخل، كانت تتبدل أحوال النسوة، يُسلمن أغراضهن ويجلسن على المصاطب لقلع المراكيب وخلع كل ما يجب خلعه، وتعرية كل ما يتحتم عليهن تعريته قبل أن تُحيط بهن

fb/mashro3pdf

وبشكل مؤقت البشاكير البيضاء، لتتناثر الضحكات الرقيعة والكلمات النابية والمفردات الإباحية الواصفة للأنثى في مختلف أوضاع العطاء، في تلك اللحظة لا عليهن سوى ارتداء القباقيب وسلوك ممرٍّ آخر يصل بهن من البهو إلى المغطس الذي كان ببركته الساخنة وبخاره المتصاعد قِبلة ملائمة للفضفضة والاعتراف، وبطبيعة ضبابيته كان فرصة سانحة لغسل الأرواح والزهو بالذنوب والفخر بالخطايا!! ولأن النساء يعشن في دنيا من القسوة والقهر والإجبار، لذا اقتضت أعراف الحريم داخل الحمَّام ألا يُسفِرن قدر المستطاع عن حقيقة شخصياتهن، فلا يفصحن عن أسمائهن ولا من أي بيتٍ قدمن ولا إلى أي سيد ينتمين، وذلك حتى يستعذبن حُريّة الحكي بلا قيد وحلاوة البوح بلا رقيب ومتعة التهتك بلا رادع.

وفي يوم، كانت إحداهن ساهمة العينين، زوجة بالثلاثينيات من عمرها، ابتل شعرها المنسدل على كتفيها بفعل رطوبة المغطس، مدت قدميها أمامها مستندة إلى الجدار الدافئ، قالت بأسى ونبرة صادقة وهي تمس بأطراف أناملها نهدها الأيسر وقد بدا عليه آثار قسوة ليلية:

- سُحقًا لهؤلاء الهمج الذين لا يتقنون التعامل برِقّة مع صدر الست كما تريد هي أو تحلُم، لا أحد يتودد إليه وينصت إلى نبضه ويتعاطى مع سكونه وحركته، لا أحد يريد تصديق أنه مخلوقٌ من حنانٍ، قابل للجرح، يستحق التأمل فيه بصبرٍ ثم الحديث إليه بلغة أخرى غامضة من أطراف الأنامل ورفق الشفاه!!

وعقب ضحكة رقيعة مدوية ردت إحداهن من الحافة الأخرى للمغطس:

- أهذا الحد يا حلوة كان قاسيًا مع صدرك المظلوم؟!

fb/mashro3pdf

- بل ومُتعجلًا أيضًا.

- كلهم هذا الرجل، العجلة واللاروح من آفات الفراش الحلال وطول المعاشرة المملة، صبرنا يا رب!!

- وآه منك يا زمن، ولا حتى كلمة حلوة!!

- مرارتك تؤكد أنك مضغة ناجحة لخائنة تتشكل، أنتِ فقط بانتظار من يوقظ روحك وجسدك بصدق يا أختي.

- وكيف عرفتِ يا حكيمة عصرك؟!

- لم ينقذني من هذا الجحيم الذي تشكين منه سوى الباشا.

- محمد علي؟! الباشا نام معك أنتِ!! كيف؟!

- ما هذا الهذي يا غبية!! زوجي من العسكر، أرسله الباشا مع من ذهبوا في حملة اليونان، ثم طالت غيبته فلم أعد أعرف إن كان حيًّا أم ميتًا، ظللت لسنوات متزوجة ولم أعرف لنفسي قيمة سوى فوق سرير رجل آخر، ظننت أني قد متّ فأحياني حبيبي من جديد!!

- خليل قديم أم عشيق جديد؟!

- بل صديق عمره الذي يرعاني لحين عودته.

- صاحبه!!

- أنا في حضنه ملكة.

- احكي لي والنبي يا أختي؟!

- يمس أذني بشفتيه ويهمس بكلمات الهوى الأول، عندما أنكشف عليه ترتسم على ملامحه دهشة الجسد الأول، أحس في يديه رجفة اللمسة الأولى، وفي كل مَرَّة أشعر أنها أول مَرَّة!!

- أحسدك عليه!! ولكن كيف تتقابلان دون انكشاف؟!

- البركة في البرقع، إما أن أرتديه وأتسلل إلى فراشه أو يرتديه هو ويتسلل إلى سريري.

fb/mashro3pdf

- وبطنك يا موكوسة؟!
- تكورت منه أكثر من مَرَّة وأجهضت نفسي.
- يبدو أنك لست متعجلة لعودة المحارب.
- أتمنى له الشهادة فلو عاد لمتّ من جديد.
- ألا تشعرين بالذنب تجاهه؟!
- مات بداخلي من قبل أن يرحل، وعلى أية حال كل الأخبار القادمة من هناك تؤكد انتشار مرض الفسق الذي يدعونه «الزهري» بين العسكر بسبب معاشراتهم للمومسات، إن كان حيًّا فمن المؤكد أنه هو أيضًا يقضي مع اليونانيات أوقاتًا سعيدة، ماذا يظن العسكر حينما يتركون الحريم من خلفهم جائعات!!

وإلى الجوار من هذا الينبوع الناعم لفضفضة الجائعات، كانت المعلمة روحية مُنهمكة في حفّ الشابة الفرنسية «كلارا» التي استلقت على حافة البركة وباعدت بين ساقيها لإزالة مثلثٍ صغير من الزغب الأصفر، وما إن انتهت روحية من مهمتها وهمت بالقيام حتى قبضت كلارا على مرفق المعلمة وهمست وهي تشير بيدها إلى إحدى بلانات الحمّام، أنصتت المعلِّمة وهزت رأسها كإيماءة بالموافقة عقب لحظة سكوت، ثم قامت وقبل أن تخرج من المغطس نادت على البلانة المقصودة وقالت:

- اذهبي للبيت هاتي صُرة هدمتك من الحرملك وتعالي بسرعة.

تسمرت البلانة وقد التبس عليها الأمر فأردفت روحية في غضب:

- هزي روحك يا بنت الكلب.

عندما انتهت كلارا من النتف والتكييس والمياه الدافئة، لفَّت جسدها بالبشكير وتجففت، عادت إلى البهو لاستلام أشيائها من المعلِّمة عند رف الأمانات، أخذت كلارا فستانها وباقي ملابسها الداخلية

fb/mashro3pdf

وجلست على إحدى المصاطب تتمشط وترتدي وتدندن بنبرات خفيضة لحنًا هادئًا لأغنية فرنسية، في تلك اللحظة كانت البلانة قد دخلت مسرعة من الخارج وبيدها صُرّتها باتجاه روحية، حينها قامت كلارا متباطئة وهي ترمق البلانة بنظرة متفحصة لملامحها حتى توقفت على مقربة منها ثم وضعت يدها على كتفها، والتفتت إلى المعلمة قائلة:

- هي جيدة على أية حال، ما رأيك يا روحية؟؟

ابتسمت المعلِّمة في صمتٍ ثم فتحت خزانتها وأخرجت صكًا سلَّمته بدم بارد إلى كلارا، أدركت البلانة أن هذا هو صك عبوديتها واسترقاقها، كانت تحفظ رسمه عن ظهر قلب، وثيقة هي الأكثر مرارة في حياتها، وَرَقةٌ رغم خفّتها إلا أنها كانت تزن حديدَ الأرض، فهمت البلانة أنها على هذا النحو انتقلت ملكيتها من سيدتها المصرية روحية إلى سيدتها الفرنسية كلارا والتي سألتها في ترفُّع واضحٍ وابتسامة غائمة:

- ما اسمكِ؟؟

أجابتها البلانة بكل ما في الدنيا من بؤسٍ وشقاءٍ:

- سليمة.

نعم كنت أنا سليمة، البلانة التي قررت كلارا فجأة ودون سبب منطقي أن تشتريها من روحية قبل أن تخرج من الحمَّام!!

قرب الغروب توقف بنا الحصان المتبختر بصليل أجراسه عند رأس الدرب الأصفر، ثم نزَلتُ مع كلارا من العربة وارتقينا بضع درجات حجرية تصل شارع المعز بهذا الدرب المرتفع قليلًا عن مستوى سطح الأرض، مشيت صامتة في ذيل سيدتي الجديدة مالكة الصك، استشعرت همهمات غامضة من بعض حريم الدرب ورجاله!! كنت أشعر بنظراتهم تخترقني وكأنهم يعرفون ما لا أعرف!! دخلنا باب البيت الكائن على

fb/mashro3pdf

ناصية الدرب والمقابل لبيت السحيمي، صعدنا طابقه الثاني، بعض الليالي قد تكون علامة فارقة في حياة الإنسان وبعضها قد تكون في حد ذاتها حياة جديدة، هذا الوصف ينطبق حرفيًا على تلك الليلة!!

كانت كلارا منذ أغلقت علينا الباب وعلى غير المتوقع في غاية اللطف معي، لم تكن المتعجرفة التي وقفت بالحمام قبل قليل تعاين هيئتي بنظرة أخيرة قبل تسلمها صكي من روحية وكأني كلبة تشتريها، وبوجه مليح وعربية تجيدها عرفتني على أنحاء البيت وأطلعتني على موضع فراشي فيه، فراشي الذي لم أقض فيه مساءً واحدًا!! بعدها أخبرتني أن النظافة الشخصية هي أكثر ما تعتني به وتهتم، لذا فإن وساوسها لن تنضب وهواجسها لن تنام وقلقها لن يرتاح إلا بعد أن تُتِم الأمر بنفسها لاسيما تجاه كائن جديد صار يتحرك ويشاركها المكان!! وكانت تقصدني!! التشبيه على هذا النحو أكد شعوري السابق بأني أشبه بكلبة اشترتها، لكن الحيرة تملكتني بشأن كيفية إتمام الأمر بنفسها!! في البداية دخلت معي إلى الغرفة الصغيرة التي خصصتها لي، طلبت مني حل صُرّتي، تفحصتها قطعة قطعة، فهمتُ أن الغرض هو التأكد من خلوّ أشيائي من البَق، ومن باب الاحتياط رشتهم جميع بسائل قاتل للحشرات، ثم ذهبت بي إلى الحمّام وأجلستني متربعة على أرضيته بينما قعدت هي على كرسي خشبي صغير ومن خلفي راحت تدقق بعناية في شعري خشية وجود قمل، وعقب انتهائها عدلت من وضعية طشت نحاسي أصفر كبير كان مستندًا إلى الجدار ثم أمرتني بأن أخلع ملابسي وأجلس داخله!!

خلعتُ ملابسي إلا من قطعة سترت عورتي، أما نهدي فلم يكن لي حيلة في ستره، جلست في الطشت وأعطيتها ظهري بينما احتوت هي

fb/mashro3pdf

الطشت بين ساقيها واستقرت فوق كرسي خشبي من خلفي، أخذت تصب عليَّ كيزان المياه الدافئة الواحد تلو الآخر وهي تدندن لحنًا فرنسيًّا حالمًا، أحسست بأناملها وهي تتخلل شعري برفق، شعرتُ أني قد تحولتُ من كلبة اشترتها إلى قطة مدللة اقتنتها!! في الحقيقة لم أكن أتوقع مثل هذا الاعتناء ولا هذه المعاملة، بدا أن المودة والرحمة ستسود علاقتي بها، عقب ذلك شرعتْ في دعك كتفي متسللة إلى بقية أنحائي، صارت أكثر حميمية وهي تتحسس تحت إبطي بحنوٍّ بالغ قائلة:

- أنا سعيدة بنظافتك الشخصية ونعومتك، إن ملمسك أقرب إلى قطع الحلوى القطنية التي يتشوق الأطفال إلى أكلها.

خجلت من التشبيه وصمتُّ لكنها أردفت:

- والكبار أيضًا.

رغم خجلي من تشبيهها، كان عليَّ أن أرد على كلماتها، ولا أتركها تتحدث وحدها، رددت بابتسام:

- أنا حمامية يا سيدتي وليس بالضرورة أن يكون باب النجار مُخلع.

- اشتريت من قبل أكثر من فتاة لكنني بعتهن لتقززي من عدم نظافتهن وعدم عنايتهن بأنفسهن جيدًا.

ثم تباسطت أكثر وهي تصب عليَّ الماء مجددًا وتقول:

- لولا نعومة جسدك المعتَنى به قريبًا لما ترددت لحظة في تنعيمه بيدي، أنا أحب أن تكون ممتلكاتي ناعمة وجميلة مثلي.

قالتها وهي تدعك صدري بحنان غامض ولمسة اختبارية وصابون له رائحة الورد!! شعرت بقليل من الارتباك مختلطًا بدوائر من القشعريرة، تلك هي المرة الثانية في عمري التي يُمَس فيها صدري على هذا النحو الاستقصائي!! المرة الأولى كانت على المشاع نهارًا في سوق العبيد، أما هذه المَرَّة فأنا بين جدران الدرب الأصفر ليلًا، استمرت

fb/mashro3pdf

كلارا في تدليك جسدي خلف باب حمامها، وكنت أنا من اعتدت القيام بمثل هذا الدور للمستلقيات على حافة مغطس، لم يكترث أحد من قبل بتدليل عودي الذي أُنهك من طول الخدمة ووطأة الاستعباد، اقتربت مني كلارا أكثر لدرجة كادت فيها شفتيها أن تمس شحمة أذني ثم بصوت خفيض ومتهدج قالت:

- برونزية جسمك تسحر.

شعرت بأنفاسها في ظهري وهي تصب المزيد من المياه الدافئة، ساورتني بعض الشكوك فتعمدت تكذيبها حتى أغمض عينيَ وأفر بجسدي من قسوة الأيام إلى موجات عاتية من الارتياح بدأتْ تسري في حناياي عقب طول شقاء، أسدلت جفني ورحت في دوامات من الخدر الممتع العميق، ثم وكأن حية قد لدغتني، انتفضتُ فجأة على أصابعها وهي تتسلل من أسفل سُرتي لتندس تحت سروالي الرقيق المهترئ بحثًا عن مفتاح استسلام رخيص لم يعد له وجود!!

بدا أن الليل قد ستر الخلق باستثنائي، انتفضتُ من الطشت، علق بيدها آخر ما كان يسترني وانقطع، كدت أسقط بعدما انزلقت قدماي فاستندت للجدار واتزنت من جديد، التفتُ إليها ففوجئت بها وقد أصبحت عارية تمامًا هي أيضًا!! بدا أنها تخلصت من أوراق توتها تباعًا أثناء غيابي في دوامات خدري، كانت شهوة فرنسية مشتعلة تقف على الأرض، اعترتها الدهشة وصُدِمَت وهي تحملق فيما بين قدميّ!! بفطرة وتلقائية حاولتُ بيدي حجب عورتي، وفي اللحظة التي اكتشفت فيها كلارا أني من الأسفل لست مثل باقي البنات ووجدتني أخفي ثغري المشوه بيدي، قالت:

- يبدو أنك من نوع مختلف بعض الشيء لكن لا بأس، أنا أتوق إلى اكتشاف الجديد دائمًا.

fb/mashro3pdf

كانت الرغبة قد تملكتها إلى أقصى حد تاركة على ملامحها وردية متقدة، حاولت كلارا الانقضاض عليّ بهوس لكني تملصت منها ثانية فصفعتني على وجهي بيد أدمت شفتيّ وهي تقول باستعلاء:

- الظاهر أنك نسيتي نفسك، إن شأنك شأن أية كلبة من العبيد، كلبة لا عليها سوى لعق سيدتها.

هممتُ بالمرور، حاولتْ الإمساك بي لكنها انزلقت، نجحتُ في الفرار منها والخروج من الحمّام، قامت ثانية ورائي لتلحق بي بدافع الانتقام والتأديب لا بدافع الجسد، قذفتني بإبريق نحاسي كان على المائدة حاولت تفاديه بعض الشيء لكنه شجّ رأسي فسال دمي مختلطًا بالماء على جبهتي، بتلقائية فتحتُ الباب وانتويت الفرار نحو الخارج، هكذا وأنا عارية ورائحة صابون الورد تفوح منّي مختلطة بالدم، كنت أدرك عجزها عن اللحاق بي وهي على هذا العري، حرصت على الاتزان قدر المستطاع وأنا أهبط مسرعة في جنون على درجات السلم بأقدام مبتلة، التوى كاحلي وتدحرجت على ما تبقى من سلالم فتخبط رأسي بالدرابزين الخشبي، بألمٍ شديدٍ وعريّ فاضحٍ ودوّار يلفني. حاولت النهوض نحو بوابة البيت، عزمت على الخروج في هذا التوقيت المتأخر عارية بجسدي هكذا إلى الدرب، قررت الفرار بأي ثمنٍ، لم أخشَ من أن أُنعَت بعارية الدرب الأصفر أو عاهرة المعز، توقفت للحظة مترددة، غامت القناديل الخافتة بعيني، اتخذت قراري، لن تكون المرّة الأولى التي أتعرى فيها أمام الناس، مددت قدمي واندفعت للخارج، بكل قوة في هذا الظلام ارتطمتُ فجأة بصدرٍ عريضٍ سد الطريق في وجهي، قال بفرنسية أتقنتها فيما بعد:

- يا إلهي!! ما الذي يحدث هنا؟!

fb/mashro3pdf

كان هـذا التعجـب هـو آخـر مـا سـمعت قبـل أن أغيـب تمامًـا عـن الوعـي وأفتـح عينـيَّ تدريجيًّـا فيـما بعـد عـلى هـدوء مـكان آخـر!!

ضـوء الصبـاح الأزرق الباكـر الـذي كان يتسـلل ناعـمًا عبر خشـب المشربيـة!! حاولـت جاهـدة أن أتذكـر أيـن أنـا ولم أسـتطع، هـذا المـكان ليـس لـكلارا وبالطبع ليـس الحرملـك الـذي كانـت روحيـة تأويـني فيـه!! فقـط استوعبت أني ممـددة فـوق فـراش مريـح، أنـا لا أعـرف هـذا السريـر ولا ذاك الغطـاء ولا تلـك المـلاءة!! منذ زمـن بعيـد لم أنـم بهـذا العمـق، كـم مـن الوقـت مـرَّ عـليَّ هنـا؟! كان جسـدي منهـكًا لدرجـة شـعرت معهـا أني موميـاء انتـوت الفـكاك مـن تلافيفهـا بجبانـات البجراويـة في شـندي، وقبـل أن أعتـدل فوجئـت بصـوتٍ عميـقٍ ولغـة عربيـة بلسـانٍ غير عـربيّ مـن أحـد أركان الحجـرة:

- حمدًا للرب على سلامتك.

- من أنت؟!

- أخيرًا يا سليمة!!

- أين أنا؟!

- لقد أجهدتينا كثيرًا!!

- أخبرني من تكون؟!

- أنطـوان برتيلمـي كلـوت، فرنـسي وينادونـني في هـذه البـلاد «مسيو كلـوت».

* * *

fb/mashro3pdf

حسام

مسيو كلوت!! هل يكون هذا الشخص المذكور بأوراق سليمة هو ذاته صاحب الشارع الشهير المتفرع من ميدان رمسيس الآن؟! هذا الرجل الذي كان في حياته كارهًا بشدة لبنات الليل، فاتخذت البنات شارعه عقب وفاته مقرًا تاريخيًّا لممارسة الدعارة وكأنهن يثأرن من كراهيته لهن!! وإذا كان هو فأي قدرٍ هذا جمع بين كلوت وسليمة جدة بشير؟! إن صح ذلك فيا لروعة الأبواب الخلفية لقراءة التاريخ!!

مشروع هذا الفيلم الوثائقي لو قُدِّر له أن يخرج إلى النور فحتمًا لن يكون من نصيب التليفزيون المصري، لن أخضعه لرقابة هؤلاء البؤساء ليقتصوا منه ويبثوه في أوقات الفراغ من أخبار الرئيس وإنجازاته التاريخية!! هذا الفيلم قد يصلح أكثر لقناة بحجم الجزيرة في الدوحة، لكن من يصلني بهم؟! عبير هي الوحيدة التي أعرفها ومن الممكن أن تصلني بهم جيدًا جدًا، فرغم كونها ممن يشتمون الإعلام القطري على صفحات اللوتس إلا أنها من عدساتهم المخلصة بالقاهرة!! من جديد تقتحمني عبير وأنا الذي أحاول الفرار منها!!

لا أدري لماذا لا تؤدي مقدماتي المنطقية مع عبير أبدًا إلى نتائج منطقية؟! ففي اليوم الذي صارحتها فيه بحبي خلف أسوار الجامعة ورحَّبَت، قضيتُ ليلة خريفية خلابة في شرفتنا المطلة على قصر

fb/mashro3pdf

السكاكيني لم يكن هناك ما هو أجمل منها على سطح هذا الكوكب، استندت بالكرسي إلى الجدار ورفعت قدميَّ إلى السور في مواجهة القصر وأشجاره، وضعت سماعتيّ الـ Walkman في أذنيَ ثم حدقت في نجوم السماء المختلطة ببعض سحب الخريف، ضغط على زر الجهاز، بدأ الصمت مدويًا ومن بعده بدأ أحدهم في الضغط ببطء على البيانو تحسُّبًا لإفصاح حميد الشاعري عن لون عينيّ حبيبته:

لون عينيك..

دايمًا بلقى سنيني وذكرياتي في لون عينيك!!

لا لوم عليك..

اللوم على قلبي مش عليك!!

يا إلهي مما شعرت به في تلك الليلة الفريدة، لا أدري إن كان أحدهم على سطح هذه الأرض أو غيرها قد مُنِح حبيبة مثل حبيبتي أم لا؟! كل عاشق يكاد يجزم أن الله لم يخلق من هي أروع من حبيبته!! لقد أحببت عبير كما لم أحب أحدًا من قبل، عبير كانت قبل كل الأشياء وبعدها، قد أكذب على كل الدنيا إلا عبير، قد أكره كل العالم إلا عبير، قد أتخلى عن كل الخلق إلا عبير، قد أبتعد عن كل البشر إلا عبير، قد أستغني عن كل الناس إلا عبير، إلا أنت يا عبير، هكذا تعلمت القاعدة الأولى في محراب عشقك، الحب هو أن يأتي موقعك في الجملة بعد أداة الاستثناء يا حبيبتي!!

قلبي اللي مال وعاش أيام هواك..
ويّا العذاب وياما احتار معاك!!
لون عينيك..
جرح سنيني في لون عينيك!!

fb/mashro3pdf

صدقَ حميد الشاعري في نبؤته!! حيرتني عبير وعذبتني كثيرًا، لسنوات طويلة ظلت تقترب وتبتعد حتى صهرتني بلا هدف، إن لم تكن حقًّا أحبَّتني مثلما عشقتها فلماذا نادت عليَّ وسعت نحوي واحتضنتني بذراعيها وضمتني إلى صدرها بنكهات صادقة وسط عتمات حارة الفص عقب منتصف الليل!!

***

fb/mashro3pdf

عبير

آن أوان هجر حارة الفص ومَن فيها، هذه الهجرة تأخرت سنوات عن موعدها، كان يتحتم هجرُها عقب فضيحة أمي يوم الزلزال، لكن زواجها من سيد اللبان أبقى علينا في مكانٍ لم تعد لنا فيه سيرة مشرِّفة تربطنا به، تُرى لو أن حسام على عِلم بالأصول الحقيقية لحكاية هذه الزيجة الرخيصة، هل كان أحبني كل هذا الحب؟! هل كان سيُقبِل عليَّ في اليوم الأول بالجامعة وأنا أنقل جدول المحاضرات بمثل هذا الشغف؟! صمام أمان عشق الرجل للمرأة هو جهله بحكاياتها القديمة!!

****

كان يكفي ذِكر اسم عبير في أروقة إعلام القاهرة لسماع توصيفات قد تتناقض لكنها لا تختلف على أنوثة بيرو، من تعاملوا معي عن قُرب كانوا يرون في شخصيتي «بنت البلد»، أما هؤلاء الذين لم يتَح لهم ذلك فأنا من وجهة نظرهم مجرد فتاة ثقيلة الظل ذات ملامح وقسمات رخامية تجعلني كما يقولون أقرب إلى التماثيل المنحوتة، في حين أن الحلاوة عندهم كما توارثوا شعبيًّا عن أجدادهم هي حلاوة الروح، أكاد أقسم إن حلاوة الروح مجرد مصطلح شعبي بائس أطلقته في الأصل فتاة دميمة غيرة من أخريات أجمل!! أو ربما اخترعه حشاشون

fb/mashro3pdf

قدامى ذات مساء وهم يحاولون تعزية أنفسهم في وجوه الكائنات اللاتي تزاوجوا بها تحت وطأة ضيق ذات اليد، وأرادوا في نهاية المطاف إرجاع هذا البلاء إلى غيبيات القسمة والنصيب وأوهام حلاوة الروح!!

وبعيدًا عن المسطرة غير الدقيقة لقياس حلاوة الأرواح، كان الطلاب في كلية الإعلام منقسمين على أنفسهم إلى فئتين، الأولى وهي الأكبر، تضم أبناء وبنات العامة في القاهرة والأقاليم ممن وفدوا إلى هذا المبنى داخل أسوار الجامعة على أكتاف نسبهم المئوية في نتائج الثانوية العامة، أما الفئة الثانية فهي تضم أولاد الناس من أصحاب النِّسَب المئوية المرتفعة ولكنهم أيضًا من أصحاب الأحلام المضمونة بفضل أنسابهم العائدة إلى الدوائر الراقية بالدولة وكبار موظفيها، وهؤلاء بالطبع كانوا قلة وأكثر انغلاقًا على بعضهم البعض، كنت شديدة الدأب في التقرُّب من هؤلاء والاقتران بهم، لذا حرصت على صداقة شاهندة سليم وماري أباديـر.

قُدرتي على التعايش مع شاهندة وماري والبقاء رغم قدومي من حارة الفص بدأت بتدويني الدقيق للمحاضرات، مما جعلهما في حاجة إليَّ باعتباري آلة كاتبة مجانية، بعدها تغلغلت بينهما عبر تبنّي وجهات نظرهم التافهة والمسطّحة للأمور، أيضًا أشهرت بغضي لكل الأفكار اليسارية التي يرددها بعض الطلاب الفقراء والتي قد تجرّد الأثرياء من النعمة، ولا بديل عن الاستماع بتأثُّر بالغ لمشاكلهم العاطفية وأزماتهم البلهاء والتأكيد على كونهما من الضحايا، هذا بالطبع لا يُغني عن اختلاق القفشات الفاحشة أثناء الحوارات مما يضفي على الأحاديث بيننا نكهات محببة ويرسخ من وصفي بخفّة الدم، أما الأهم على الإطلاق فهو الضحك حتى الدموع على نكاتهم السخيفة!!

fb/mashro3pdf

إلى جانب هذا، حاولت قدر المستطاع محاكاة أنماطهما الشكلية، راعيت جيدًا تناسُق الألوان التي أرتديها ودرجة الماكياج التي أضعها على وجهي، حرصت في مظهري على البساطة باعتباري في عالم صباحي يكفيني فيه انحسار الملابس عن أطرافي لأبدو مضيئة، مع اختلاق الحجج واحدة تلو الأخرى للاعتذار عن الظهور في أية مناسبات اجتماعية ليلية حتى لا أضع نفسي في سباقٍ مظاهري محموم لا قِبَل لي به، وعلى الرغم من أن ملابسي وماكياجي وعطوري لم تحمل علامات تجارية أصلية إلا أن أكثر ما ساعدني في مظهري هو أن خلقتي من الأساس لم تخضع أبدًا للتوصيف الشهير بالجمال البلدي والذي أطلقته في الأغلب امرأة نحيفة سمراء ثأرًا من رغبة زوجها في خدامتها الجميلة!! وفي كل الأحوال وبفطرة أية أنثى طامحة كانت توآزرني مكوناتي وقت الحاجة إليها!!

وسط كل هذا الصخب كانت حارة الفص وأم عبير وزوجها الرخيص سيد اللبان، مفردات غير لائقة على الإطلاق بالخلاص الذي أنشده ولا بالطبقة التي أتطلع إليها، كنت غير مستعدة للتراجع عن المضي قدمًا في حالة الصعود التي انتابتني بجنونٍ، ولم تتركني منذ المرور الأول من بوابة جامعة القاهرة، كان كل ما يشغلني هو كيفية استغلال هذا الوضع الجديد بشكلٍ استثماريّ؛ لذا كنت أنفر من كل ما يعيدني إلى أصولي التي أفرّ منها أو يذكّرني بها، وكان حسام هو الاستثناء الوحيد، صحيح لم أكن مهيأة لحُبٍّ أو ارتباط من أي نوع، لكن وسط كل ما أحياه بغيضًا في الحارة أو اصطناعيًا في الجامعة كان حسام طاقة شعورية صافية تشعرني حقًا بأني بنت وإنسانة!!

fb/mashro3pdf

ورغم عِلمي بكل ما يعتمل داخل حسام إلا أنه لم يصرّح بشيء في العام الأول لنا بالكلية، كان هذا مريحًا وغير ملزم بشيء من أي نوع، لكن وعقب عودتنا في العام الثاني الجديد وفي أحد أيام سبتمبر، وحين كانت دقات ساعة الجامعة تشير إلى قرب زوال النهار، كنت أجلس إلى جواره فوق أحد المقاعد الرخامية عقب خلاصنا من محاضرة مملة في الصحافة الدولية، ما تبقى من شعاع شمسي ترك على ملامحي حُمرة ناعمة محببة إلى نفسه، وعقب سكوت نطق بنبرة أعياها الصدق واعترف:

- طيلة الصيف وأنا أنتظر اللحظة التي تتعامد فيها حُمرة شمس الغروب على ملامحك يا عبير.

- لماذا؟!

- لأنكِ ملكة من الملكات.

لا أدري ما الذي دفعني حينها لأذوب معه وجدانيًّا إلى مثل هذا الحد رغم أني بطبيعتي لستُ من هؤلاء، قد يرجع ذلك إلى طبيعة تلك الأجواء الحميمية التي تسيطر على الحرم الجامعي في مثل هذا التوقيت من كل يوم وكأنها ساعة لحصاد القلوب، على أية حال كان كل ما تبقى من ضوء النهار كافيًا لأن يجعل العيون في تلك الساعة تلمع حقًّا بما فيها ومن دون خجلٍ، حسام بطاقته الشعورية الصافية كان يكتشف بداخلي مساحات وجدانية غير مأهولة!! مساحات أنا نفسي اندهشت من وجودها داخلي!! ثم عقب إقراره بأني ملكة من الملكات قال:

- من الحقائق في هذا العالم، أنك حلوة جدًّا ساعة الغروب.

- ساعة الغروب فقط؟!

قُلتها وقد وخزته بيدي في دلالٍ بكتفه، فاستطرد:

fb/mashro3pdf

- أنتِ رائعة في كل الأوقات.

- قل لي، ما أكثر شيء يعجبك بي ساعة الغروب؟؟

- كلك حلوة، لكن ملامحك ساعة الغروب تصبح وكأنك من الجنة، أنت قطعة من الجنة، أنت الجنة نفسها، أنا أحبّكِ يا عبير.

مع اعترافه ولأول مَرَّة بحبه لي صراحة ومع سماعي للمرَّة الأولى في حياتي لكلمة أحبك، اقشعرَّ جسدي وتخدرت روحي وشعرت فجأة وكأن جميع آلهة الحب والجمال عند الإغريق والرومان وقدماء المصريين قد مستني ببرقة خاطفة، بعدها اصطبغت ملامحي بحُمرة يتحتم ظهورها على وجوه كل بنات الدنيا في مثل هذا الموقف، ثم ارتسمت على قسماتي أمارات التعجب وكأني فوجئت بما اعترف به!! لذا لم أجد ما أرد به وهربت من عينيه إلى النظر بالفراغ وأنا أمدِّد ساقيَّ أمامي وكأني أتأرجح، ويبدو أن صمتي هذا قد أربكه أكثر فقال محاولًا كسره:

- عبير، هل ضايقك كلامي؟!

- طبعًا لا يا حسام.

قلتها وأنا أتوجها بابتسامة حانية مرتبكة لا يمكن أن تُفسر إلا بأنها ابتسامة موافقة ورضا، فانشرحت نفسه واستطرد من جديد في محاولة لفض ارتباكي:

- ولعلمك، وبغض النظر عن أي شيء، أصابع قدمك من أكثر الأشياء التي تعجبني فيك.

انفكت معالمي وانتابتني نوبة عارمة من الضحك، ثم قلت:

- أصابع قدمي!! لماذا؟!

- في الحقيقة، أصابع القدم من أكثر الأشياء التي أهتم بها في شكل البنت، أحب دائمًا البنت التي تكون أصابع قدميها متناسقة، وأكره

fb/mashro3pdf

البنت التي يكون إصبع قدمها الكبير أشبه بمضرب الإسكواش!!

انفجرتُ بالضحك مَرَّة أخرى، ووخزته على إثرها بقوة هذه المَرَّة في كتفه وقلت:

- لا والله!! واضح أنك مهتم جدًّا بأقدام البنات يا أستاذ حسام!!

قلتها وأنا أمدد ساقيَّ أمامه بشكل يتيح له المضي قدمًا في التأمل أكثر بأصابع قدمي!! في عالم الإنسان، من السهل على الأنثى إحكام سيطرتها على ذَكرٍ يحبها.

وفي طريق العودة ودَّ حسام أن نمشي معًا فوق كوبري الجامعة باتجاه شارع قصر العيني ومنه لميدان التحرير كي نركب أي أتوبيس لمحطة غمرة، وصادف هذا رغم طول المسافة هوى في نفسي، وفوق الكوبري وبينما كان حسام يغازلني بطريقة راقية لم يغازلني بها أحد بعده، غرقت بلا إرادة في انبهاري بتلك الشاهقات عشرينية الأدوار المطلة على النيل والمعروفة باسم أبراج الجامعة، انشغلت في داخلي باستفهامات صاخبة، كم تبلغ قيمة المأوى هنا؟! ما شكل القاهرة من فوق هذا الارتفاع؟! أي رجل هذا يمكنه أن يصعد بي من حارة الفص إلى تلك الأدوار؟! هل هناك أي احتمال لأن يكون حسام هو هذا الرجل المنشود؟! المنطق يقول إن حسام على وضعه هذا لا يمكن أن يرتقي بحياة بيرو، هو بالكاد وعلى أقصى تقدير يمكن أن يرتقي بحياة ابنة أحد بوابي تلك الأبراج!! وعلى أية حال، قد لا تُقدِّر الأنثى القيمة الحقيقية لذَكر الإنسان الذي بجوارها إلا حينما تقف وحيدة عقب سنوات وسط ذكور الكلاب!!

لكني كنت معذورة، الفارق كان شاسعًا بين هذا المستوى النيلي وشقتنا المطلة على قاع الحارة، عشرة جنيهات في الشهر هي قيمة إيجار شقتنا،

fb/mashro3pdf

فقط عشرة جنيهات اعتادت أم عبير أن تتباطأ كثيرًا في دفعهم ليوسف البواب الذي كان شديد الحرص في كل شهر على عدم الصعود لطلب الإيجار من أمي إلا عقب خروج زوجها سيد اللبان حتى يتبادل معها حديثًا غير مشرف!!

- الإيجار يا أم عبير.
- أوف، ولماذا متعجل هكذا يا رجل؟!
- أوف طالعة منك عسل يا ست البنات.
- يا رجل اختشِ.
- مشتاق يا مهلبية بالمكسرات.
- ألا ترى شعرك الأبيض وبصرك الضعيف!!
- ضعيف!! جربيه وشوفي بنفسك.
- حمّل على قدك، أنت رِجل بالدنيا ورِجل بالآخرة!!
- لا تقلقي، أنا لا أعتمد على رجلي في الغرام.
- آه يا موكوس.

هكذا كانت جملتها الأثيرة في كل مَرَّة تغلق فيها الباب بوجهه وهي تطلق ضحكة رقيعة يطفو على سطحها هذا الطابع الغرائزي، كانت أمي بسُمعة ما بعد الزلزال تمثل ليوسف البواب تلك الأنثى اللعوب التي يفتقدها، أما أمي فكانت تدرك ما يعتمل في نفس الرجل وتجاريه دون المساس بشرفها سعيًا وراء مهلة جديدة لدفع الإيجار، كانت تعتبر ذلك فقرة شهرية كوميدية تُسليها وتؤنسها كبديل عن الغزل الحقيقي الذي افتقدته في حياتها رغم زواجها الثاني من سيد اللبان، لذا في كل مَرَّة وعقب حوارها الضحل معه، كانت ترتكن إلى الباب بظهرها وتطلق تنهيدة قادمة من شرخ عميق في نفسها، وفي واحدة من تلك المرات قالت لي بشيء من الأسى وكثير من الصدق مع ابتسامة غائمة:

fb/mashro3pdf

- عارفة يا عبير؟! حُرمة نامت في حضن الحاج الله يرحمه، لا يملأ عينيها كل رجال الدنيا ولو سكنوها في بروج مشيدة!!

كل هذا داهمني أثناء عبوري لكوبري الجامعة برفقة حسام، لذا لم أنصت جيدًا لما قاله، كنت أربت على كتفه في رفق من حينٍ لآخر مكافأة له على غزله فيتهدل صوته أكثر فأكثر، آه من تلك الدنيا، كم كان حسام رائعًا، كم كان يحبني بصدقٍ وبلا مقابل، لم أكن على الإطلاق أنتوي خداعه ولم أقصد أبدًا التلاعب به، فقط كنت في صراع بينه وما أتطلع إليه، حسام كان يغزوني عبر بوابة أذني فيفتح كل بوابات قلبي، كان يقدم أثمن ما يظل عالقًا في ذاكرة الفتاة عقب سنوات من تلك الأيام، ودائمًا ما تتحسر عليه فيما بعد، إنه العشق في صورته الأولى بعيدًا عن دنس المصالح وحسابات الصعود.

ثم صعدنا إلى أتوبيس سلك بنا شارع رمسيس في اتجاه غمرة، تلامس أكتافنا برفق مع اهتزازات الطريق كان ملهمًا بفلتات الروح وبوحها، لذا حاول حسام بصمتٍ التسلل إلى أناملي فانهارت أسوار مقاومتي وتركتها له وأنا ساهمة ببصري نحو الخارج، تسارعت نسمات مساء سبتمبر على وجهينا من النافذة، ما زلت أشعر بوقعها اللطيف البارد والممزوج برجفة أنامله التي لم تصدق أنها بالفعل تلمس أناملي، كانت المرة الأولى التي أترك فيها جزءًا من جسدي لأحدٍ، لكن حسام لم يكن مجرد أحد، حسام أحبَّني بصدقٍ ونقاءٍ وهو الوحيد على سطح الأرض الذي استحق يدي وروحي وسائر أطرافي وكل جسدي، لكن الأنثى لا تمنح بالضرورة كل ما تملك لمن يستحق!! على أية حال وبدءًا من هذه الليلة التاريخية التي امتدت حتى الصباح، أيقنت أن تنازُل الأنثى يبدأ دائمًا من الأطراف!!

fb/mashro3pdf

قبيل النزول من الأتوبيس لملمتُ نفسي المبعثرة وشعري على هيئة ذيل حصان، شددت على حسام أننا كالعادة، وحتى بعد اعترافه بحبي، لن نمشي سويًا في الطريق من أسفل كوبري غمرة إلى بيوتنا في الداخل، يجب أن نظل كما نحن ونبدو كغرباء في شوارع السكاكيني، كلام الناس كثير وألسنتهم لا ترحم، وأمي سيدة محافظة وزوجها شديد الغيرة عليَّ وكأني ابنته!!

اعتقد حسام أني قد أمسيت بعد غروب هذا اليوم حبيبته رسميًا، ولم يدرك أن كل ما صدرَ منّي مجرد فلتة من فلتات الروح، أنا لم أنطق في أيّ مَرَّة لحسام بكلمة حب صريحة، ولم أناده أبدًا بالنداء المقدس، يا حبيبي، فقط قررت في داخلي أن أبقِي على الباب مواربًا بيننا!! هذا الباب المُوارب الذي نؤسس عليه أفعالًا بلا مسئولية!! هذا الباب المُوارب الذي يتيح لنا الانسحاب في أي لحظة بلا تبعات ويبرر لنا الخيانة في أي وقت بلا ضمير!! هذا الباب الموارب الذي عذبه في حياته كثيرًا وأرَّقَني في الليل أكثر، ليبقى السؤال الذي كثيرًا ما سألته لنفسي وتهربت من إجابته التي قد تؤلمني:

- هل أنا وسخة؟!

أعترف وأشهد أني كنت في هذا اليوم على مقربة شديدة من أن يصبح حسام هو حبيبي فعلًا، لكن مكالمة تليفونية استثنائية تلقيتها في هذه الليلة وغيَّرت مسار حياتي كلها، وأبدًا لم أخبر حسام أو أصارحه بها، تركته مُعلقًا، ولكن لماذا فعلت ذلك به؟! الإجابة الجهنمية هي أنني كنت غير قادرة على الاستغناء عنه أو الارتباط به!!

ولكن ماذا عن المكالمة الاستثنائية التي غيرت مسار حياتي في تلك الليلة؟؟ بعد منتصف الليل رن جرس التليفون الأسود في الشقة كلها،

fb/mashro3pdf

كان الحشيش قد أثقل رأس زوج أمي فارتمى مع كرشه الصغير إلى الفراش جوارها بشخير مقزز وصل إلى مسامعي، أما أمي فقد تكومت هي الأخرى بجواره ولم يعتن أيٌّ منهما بالرد على هذا المتصل الليلي حتى صمت، بعدها رن الجرس مَرَّة ثانية، لم يكن من المعتاد أن تتصل بي شاهندة أو ماري في مثل هذا التوقيت المتأخر، شيء ما غامض دفعني للقيام والرد:

- مساء الخير.

- مَن معي؟!

- يبدو أنني أزعجتك، وأنكِ تنامين مبكرًا، أنا آسف.

- إن لم تقل من أنت سأضع السماعة فورًا وأنام.

- لماذا كل هذا الغضب؟!

- الظاهر أنك طلبت رقمًا خاطئًا.

- لا بالعكس، أنا طلبت رقمًا صحيحًا جدًّا.

كان صوته بالجملة الأخيرة قد اكتسى ببعض الجدية التي كان قد افتقدها منذ بداية المكالمة، فاستأنفت بفضول مستتار:

- إذن، هل من الممكن أن أعرف مَن أنت؟! وماذا تريد؟!

- ألست أنت عبير أم أنت غيرها؟؟

صمتُ مندهشة للحظة فاستطرد هو يقول:

- أم أناديك بيرو كما يحلو لك؟؟

لم أكن أُنادىَ بهذا الاسم إلا بين جنبات الكلية، أغمضت عينيّ وحاولت لوهلة استعراض كافة الأصوات في ذاكرتي ومطابقتها لصوت المتحدث لكن الفشل داهمني، هذا الصوت وتلك النبرة لم تكن ملائمة

fb/mashro3pdf

لطالب بالكلية، حاصرني خاطر أن أحدهم بإدارة شئون الطلاب قد استل رقمي من الملف وقرر المحاولة معي في عمق الليل على سبيل التسلية، لكن كل تلك الأفكار والاحتمالات لم يكن من الممكن اختبار صدقها في تلك اللحظة، فرددت:

- هل من الممكن أن أعرف مَن تكون بالضبط؟!

- أنا نادر.

- أهلًا وسهلًا، لكن أنا لا أعرف مَن أنت؟!

أخذت التليفون ودخلت حجرتي موصدة الباب من ورائي، كانت عقارب الساعة تشير إلى حوالي الواحدة صباحًا، ولم أشعر إلا ونور الصباح يتسلل من النافذة!! استمرت المكالمة بيننا ساعات تحدث فيها عن كل شيء، أذكر مما قاله في هذه المكالمة:

- اهتممت بك منذ لمحتك أول مَرَّة في بهو الكلية أثناء نقلك جدول المحاضرات، حينما قام حسام بالاقتراب منك والتحدث إليك.

هكذا صدمني منذ البداية، كان ذلك موقفًا شخصيًا لا أذكره بمثل هذا التفصيل الذي ظل يحكي به عنه!!

- حسام يحبك لكن من الواضح أنك لا تبادلينه نفس الشعور رغم ذهابك وعودتك معه كل يوم على مدار العام الماضي، وها قد بدأ العام الجديد وما زال يسليك بالطريق.

أيعرف عني كل هذا!! كان يدهشني بأسراري فأصمت، فيزيد هو، ويوقع عقد ملكيتي أكثر فأكثر!!

- أنتِ بنت مثقفة تعرف معنى الصداقة المنضبطة تجاه حسام المندفع شعوريًا والذي ما زال يجهل مستقبله!! فما باله بمستقبلك الذي

fb/mashro3pdf

سيكون مبهرًا!! هو فقط يملأ لك فراغًا، بدليل استمرارك مع شابٍ آخر إلى الآن في مكالمة ليلية قاربت الفجر دون ملل أو ضجر أو حتى شعور بالذنب، بيرو لا تحب حسام ولا تبادله نفس المشاعر.

نادر كان يتحدث عني وكأنه يقرأني بصراحة صادمة، منطقيته في الحديث كانت فاحمة، رن بأذني توصيفه لمستقبلي بالمُبهر!!

- عبير، أنا لست في حاجة كي أقنعك بما أقول، أنت أكثر اقتناعًا بكلامي منّي، لا لشيء سوى أنها الحقيقة ولا غيرها، بيرو لا تستحق ما هو أقل، لا لشيء سوى لأنها الأفضل.

بوسوسة مخدرة زحف نحوي حتى لا أنفر منه أو أقاومه، كان يحتويني بمنطق ممنهج، ويتحدث إليَّ بجرأة كاسيًا كل ما يريد بصوت رصين مرصع بحبات من الثقة وكأنه جرّاح ماهر احتوى فتاته وقرر أن يجري لها ببراعة عبر الهاتف جراحة نادرة في قلبها!! فبعد أن أسرى بعروقي المخدِّر قرر أن يفعل بي كل ما يريد. فقدان الأنثى لأعز ما تملك يبدأ دومًا من أذنيها!!

- أنا فضَّلت التحدث إليك هاتفيًا في البداية بعيدًا عن الجامعة حتى لا أسبب لي ولك حرجًا بين الطلبة، ومتأخرًا ضمانًا لنوم أمك وسيد اللبان.

نزلت عليَّ الجملة الأخيرة كالصاعقة!! إنه أيضًا يعرف أمي وسيد اللبان!! هكذا أيقنت أني صرت عارية تمامًا أمامه!!

- أنا أُقدِّر الذكيات، أنتِ لست سهلة على الإطلاق، رغم الفوارق الاجتماعية الشاسعة بين شاهندة سليم وماري أبادير وبنات حارة الفص، استطعتِ أنتِ أن تقيمي صداقة قوية معهما.

وكأنه صندوقي الأسود، كان يعرف كل شيء عنّي بدقة مرعبة،

fb/mashro3pdf

بدءًا من درايته بشرائي الفوط الصحية من فردوس الفرّاشة إذا داهمتني الدورة الشهرية في غير موعدها بين أروقة الكلية وصولًا إلى إشادته بأخلاقي المتمثلة في لملمة شعري كذيل حصان قبيل النزول من الأتوبيس في غمرة!!

وفي النهاية سألته صراحة عما يريد مني، فقال:

- لفتِّ نظري منذ البداية، وأُعجبت بشخصيتك، وهو ما دفعني للسير وراء كل كبيرة وصغيرة تخصك، وهذا بالطبع لم يكن عسيرًا عليَّ، لِمَ لا نكون أصدقاء؟؟

كان هذا عرضًا يفوق كل توقعاتي، خاصة مع ما يمكن أن يوفره لي هذا الشخص من فرص للصعود حال وجود علاقة بيننا، أنا لم أكن أملك رفاهية الشك فيما يُقال لي عبر سماعة التليفون، كنت على استعداد فطري للصدمة والصمت والتصديق، لذا لم ينتظر منّي ردًّا، وقبل أن ينهي المكالمة تواعد معي على لقاء في العاشرة من صباح الثلاثاء التالي بحديقة الأسماك في حي الزمالك.

بفستانٍ صباحي مشرق كشف عن مبتدأ صدري، استأجرته خصيصًا لهذا اللقاء، ذهبت لحديقة الأسماك صباح الثلاثاء، كان اللقاء أقرب للحلم منه إلى الواقع، انبهر بي وبفستاني، بدا عميق الرجولة كما لمحته سابقًا في المرات القليلة العابرة، اللحظات الأولى أيقنت فيها ألا مجال لمقارنة على الإطلاق بين هذا الذكر الناضج الذي دق لتوه أبواب الثلاثين، وحسام المستشار عاطفيًا!!

وفي جوف الجبلاية نظر بعيني، وجدَّد طلب صداقتي، قال:

- في هذه الدنيا يا عبير ليس بإمكاننا اختيار الأب أو الأم أو الإخوة، لكن بإمكاننا اختيار أصدقائنا الحقيقيين، وأنا من أشد الحريصين على اقتناء هؤلاء الحقيقيين والإبقاء عليهم في حياتي.

fb/mashro3pdf

ثم شدد عليَّ أن أتجاهله داخل الجامعة لو رأيته، وقال:

- ستقابل هنا بانتظام، وإن صادفَتْك أية مشكلة فلا عليك سوى إبلاغي هنا أو عبر الهاتف وأنا سأخلصك منها، ولا تقلقي إن كانت لك مشكلة مع عميد الكلية نفسه، بإمكاني أن أخلعه أو ألصقه في كرسيه.

كنت أنصت بعينين مفتوحتين، لِمَ لا وهي المَرَّة الأولى التي يشعرني فيها أحد بالأمان منذ مات أبي وأنا طفلة، ثم قال:

- وحتى لا أشغلك عن دراستك، سأنتظر ثم أضعك بمكانٍ يليق بحاملة بكالوريوس إعلام، أو ربما قبل ذلك لو أردت.

- أنا جاهزة من اليوم.

- كل شيء بأوان، الكل يعرف أنك بلا واسطة، لذا حينما أسهِّل لك دخول مؤسسة ما، فمن المهم أن تُلصقي الفضل أمام زملائك بأي معيد أو أستاذ يكون معروفًا عنه الهياج العاطفي تجاه أي تاء مربوطة تمشي على قدمين بأروقة الكلية، لا شيء أهم من كتمان أمر صداقتنا، لسنا بحاجة إلى صخب يجبرنا على التضحية بمثل هذه الصداقة المحترمة.

- طبعًا فاهمة قصدك، معك حق.

- ونصيحة مُخلصة، استمتعي أنت وزملاؤك بكل دقيقة من حياتكم في الجامعة فهذه السنوات يا عبير لا تعود ثانية.

أصبح نادر هو الأستاذ والمؤسس، الصديق والمُوسوس، المرجع والدافع، وسامته الأخاذة، ذقنه الحليقة، نظارته السوداء التي تتيح له النظر في كل اتجاه نحو الجميع دون شعورهم، سمات أساسية مطلوب توافرها بشخص مثله، كان يستمتع دائمًا باقتناء صديقاته الحقيقيات من

fb/mashro3pdf

بين طالبات الفرق الأولى، خبرته العريضة ومظهري المبدئي والتعامل الأوليّ جعلوه يدرك مبكرًا أن غزالته الجديدة ليست كباقي النعاج!! نادر الزيني كان ضابطًا بأمن الدولة وصديقًا لقائد حرس الكلية.

****

في الليلة التي سهرَ فيها حسام هائمًا بي على أغنية لون عينيك لحميد الشاعري، كنتُ أنا ساهرة على صوت نادر الزيني!! أكان لا بد أن أرد على تلك المكالمة الليلية البعيدة؟! لو أني لم أردّ عليه قبل سنوات لما كنتُ الآن بانتظار رُقيّة البلانة من أجل عقد الحلاوة!! ولما انتهى مصير حضرة الضابط إلى ما انتهى إليه قبل أيام!! كلانا كان لعنة على الآخر!! لماذا تأخرت رُقيَّة البلانة؟!

* * *

fb/mashro3pdf

رُقَيَّة

عبير زبونتي الدائمة، عرفتها في المحل قبل سنوات، لكن قلقها البالغ على الموعد هذه المرة أشبه بقلق العرائس قبل الدُخلة!! لذا أغلقتُ تليفوني حتى انتهيت من غداء حمادة وحماتي، المسافة بيني في شارع النزهة وبيتها في حارة الفص خمس دقائق مشيًا على الأقدام، قبل نزولي إليها، وحين هممت بشلح الجلباب من فوق جسمي، جاءت عيناي دون قصد على صورة فرحي، كم كان شَعري جميلًا!! لم أكن قد ارتديت بعد هذا الخمار، هذه الصورة لم يعد لها وظيفة على الجدار إلا ليتعرف حمادة على وجه أبيه الغائب، في ليلة زواجي من يحيى لم أتخيل أن ما انتظرته لأعوام لن يطول لأكثر من سبعة أيام!!

****

تزوجت يحيى في شقة والدته بشارع النزهة وسافرنا مباشرة في نفس المساء إلى الإسكندرية لقضاء أسبوع العسل، لكن دورتي الشهرية التي داهمتني فجأة قبل الزفاف منحتني لقب آنسة لليلتين إضافيتين ظللت فيهما جائعة في فراشه، وهدأتْ قليلًا من رهبتي الفطرية التي ضاعفها عبر الزمن حفظي عن ظهر قلب لكل القصص المشوّهة التي

fb/mashro3pdf

سمعتها برفقة زوجة خالي العقربة في كل جلسات الحريم التي كانت تصطحبني فيها كخادمة تحمل لها أغراضها.

في هذه الجلسات النسوية، استمعت مبكرًا لأساطير الفض المبرح وروايات الدماء الغزيرة، وأبدًا لم أنسَ حكاية عروس حارة الصالحية التي لقت حتفها ليلة دخلتها على يد زوجها حينما دارت الدنيا برأسه ظنًا منه أنه المغفل الذي تزوج هذه الفتاة المستباحة، ليأتي تقرير الطب الشرعي ويؤكد عذريتها، غير أن بكارة القتيلة كانت من نوع مطاط خدع زوجها فأنهى حياتها بسكين استلّه من المطبخ!!

ولأني لست ابنتها فلم تهتم زوجة خالي بموضوع طهارتي ولم تختني، لا لحرصٍ منها على بقائي مكتملة، بل لعدم اكتراثها بمسألة شرفي من الأساس!! لذا تركتْ مسامعي تتفتح وسط قعداتها مع رفيقاتها على ما لا يصح لمن في مثل عمري وكأنها تربي زانية صغيرة!! هذا أنصتُّ منذ البداية إلى النكات الإباحية والأغاني الداعرة وتعرفتُ نظريًّا على الأوضاع الجنسية الأكثر شيوعًا وأيها الأقصى إيلامًا وأيها الأدنى في المتعة، جلسات هؤلاء النسوة كانت قاعة سرية لمزاد حرمان علني وسط مجتمع ذكوري ظالم لا يهتم سوى بإشباع رغباته، غير آبه بالعوز الحقيقي أو المزاج الخاص بكل عارية من هؤلاء، أدركت فيها بعد مدى حرقة اعترافاتهن!!

كل هذه الحكايات وجدتها ماثلة أمامي، تقف حائلًا بيني ويحيى في غرفتنا بأول أيام العسل، حتى جاء اليوم الثالث وتأكدت أن نصف جسمي الأهم لم يعد فاكهة مُحرّمة عليه، استحممت، ارتديت له قميص نوم آخر لم يرَه في اليومين السابقين، جُنّ جنونه من جديد، وفي

fb/mashro3pdf

النهاية هزمت أنامله المُتسحبة ببطء كل مخاوف السنوات تباعًا وجعلتني أتحرَّق بشوقٍ إلى المزيد، تسلل بعبودية إلى جسدي حتى استسلمت له بلا إرادة، استمرت مناوراته طيلة اليوم وعند الغروب كُللت محاولات فضي بنجاح، كانت المَرَّة الأولى التي نريق فيها على بعضنا هذا الرحيق الشفاف، حينها فقط أيقنت السبب الحقيقي لتسمية هذه الأيام بالعسل.

وعقب تلك البداية المجهدة تملكني الخدر والإرهاق، إلا أن رغبتي في استعادة ما شعرت به من بريق في عينيَّ وشهقة عميقة وصولًا إلى هزة مكتومة تُنهي عاصفة محمومة، جعلتني أعاود مع يحيى ما أبدَع فيه بين ساقيَ مرات ومرات، ولم يوقف سحقي فوق السرير بتلك الليلة سوى مكالمة تليفونية من القاهرة حوَّلها موظف الاستقبال إلى الغرفة رقم ١٧ الغارقة في عسلها، كان يحيى قد أعطى صديقه اسم الفندق ورقم الغرفة تحسُّبًا لقدوم هذا الخبر!! وضع يحيى سماعة الهاتف ثم أغلق قدميَ ولم تسطع علينا شمس الإسكندرية مَرَّة أخرى!! عُدنا للسكاكيني وكان على يحيى التواجد مبكرًا في سفارة العراق بالقاهرة!!

لن أنسى نظرات يحيى اللامعة في وداعه لي، كنت بالنافذة أبكي سفره، أما هو فقد حاول أن يكون متماسكًا، لوَّح لي بيده وعلى ملامحه ابتسامة اصطناعية، وباليد الأخرى حمل حقيبته وسط دهشة الجارات من الزوج الذي غادر عروسه صباح يومها السابع!! أكثر ما لفت نظري في لحظة رحيله، هو تلك النظرة الغريبة التي كان يتطلع إليَّ بها صديقه المقرَّب بشير النوبي!! أثناء انشغال يحيى بعقد الحبل جيدًا حول شنطته فوق شبكة ميكروباص صاحبه استعدادًا للتحرك نحو

fb/mashro3pdf

المطار، وجدت بشير ينظر في عينيّ مباشرة وبشفتيه ينطق ببطء كلمات لم أسمعها وعرفتها فيما بعد، قال:

- هذا الجمل لو قَلَع مَرَّة، لن يرتدي مَرَّة أخرى!!

غادر يحيى قبل أن يتم هذا الجمل أسبوع زواجه الأول!! وكأن كل ما انتظرته عقب هذه السنوات هو أن أنتقل من رفقة امرأة خالي العقربة في حارة التُمبكشية إلى رفقة أم يحيى المريضة بالقلب والسكر في شارع النزهة، من خدامة في الجمالية إلى ممرضة في السكاكيني!! لكن الشهادة لله أن أم يحيى كانت طيبة العشرة والجوار وحرصت على عدم إرهاقي خاصة وأن بذرة يحيى داخلي طرحت منذ الوهلة الأولى، اعتقدتُ في البداية أن دورتي قد اضطربت بسبب أسبوع زواجي لكن بدا أن رحمي كان بانتظار أية قطرة ماء من رجل!!

طار يحيى تاركًا بجوفي ذُرِّيَّة منه تصبرني على غيابه المبكِّر، وبسرعة أحضرت ورقة وقلمًا وكتبت أبشره في خطاب، وكان الرد برسالة ومبلغ مالي ووصية بأمه والجنين مع وعدٍ بشهر عسل جديد يعوضني عن عسلنا المقطوع، الآن وبعد كل هذه الأعوام أتساءل: لماذا احتفظت بالجنين ولم أتخلص منه في حينها؟! لماذا رضيت بحمل مقابل زواج لم أشعر فيه أني زوجة؟! لماذا لم أجهض نفسي مثل أي فتاة فوجئت بحملها عقب علاقة عابرة؟! وهل كان وجودي مع زوجي في السرير إلا علاقة عابرة؟!

مرت الأيام ثقيلة كبطني التي صارت تكبر في ظِل شعور باكتئاب وضيق وملل لا حدود له، ضاعف الملل تركي شركة بيع المصنوعات، اشترط يحيى عليَّ قبل الزواج أن أترك المحل وأتفرغ له كيستّ بيت

fb/mashro3pdf

تنتظره داخل جنته الهادئة بعد عناء اليوم الطويل، وقبلت بهذا ورضيت رغبة في الراحة عقب سنوات الإهانة مع زوجة خالي وقلة القيمة كل يوم في الشارع أو مع الزبائن، كنت أريد أن أكون معززة مُكرَّمة في بيت زوجي وحضنه، لكن شيئًا من كل هذا لم يحدث، والنتيجة في النهاية أني تركت الشغل وفُضَّت بكارتي وسافر يحيى وبقيت في الشقة مع أمه المريضة وبطني المكورة!!

ولدتُ أحمد أو حمادة كما أناديه، أرسلت صوره تباعًا إلى أبيه في العراق حتى يراه وهو يكبر، وعندما أتم عامه الأول كان الملل قد أوشك أن ينهي حياتي البائسة، كتبت إلى يحيى أخبره بأني سوف أبحث عن عمل لقتل الضيق وملء أوقاتي الثقيلة، وعقب خطابات شد وجذب استمرت لما يقرب من عام آخر، وافق يحيى في النهاية على الفكرة ولكن بشرطين، الأول هو أن أرتدي الخمار!! والثاني ألا أعمل في مكان به اختلاط برجال، لم أدرِ إن كان هذا نابعًا من تديُّن جديد طرأ عليه أم غيرة عليَّ أم خشية ممن قد يحيطون بي!! هل توقع زوجي أن أكون بطلة جديدة لحكاية أخرى من حكايات زوجات المسافرين؟!

بدأت البحث عن شغل، دلتني بنات الحلال على محل كبير للكوافير سيُفتتح بالقرب من المستشفى القبطي بشارع رمسيس، ارتديتُ الخمار لأول مَرَّة ونزلت لمقابلة صاحبة المحل التي ارتاحت لي رغم عدم خبرتي، ووجهتني لإتقان فنون تنظيف البشرة وإزالة الشعر من جذوره، كان الهدف ألا تخرج الأنثى من تحت يديَّ إلا براقة وملساء مهما كان قدر العفن الذي جاءت به، هذا المكان لم يكن مجرد محل بل بيت كبير للتجميل، ومع الوقت صرت من أمهر بنات هذا البيت،

fb/mashro3pdf

وصحيح أن مرتبي كان ضئيلًا لكن بقشيش الزبونات السعيدات كان جيدًا، فضلًا عن هؤلاء اللاتي أصبحت أذهب إليهن بشكل خاص في البيوت بعيدًا عن ضجيج المحل، كنت أنعّم أجساد الحريم للرجال وفي نفسي حسرة على نفسي!!

ذات يوم وأثناء عودتي في المساء إلى البيت مشيًا على قدميَ باتجاه غمرة وعلى بعد أمتار من المستشفى القبطي ذات الطوب الأحمر الداكن، تنبهت إلى صوتٍ يناديني:

- يا مدام، يا مدام.

عقب تردد نظرت عن يساري، وجدت الصوت قادمًا من داخل سيارة ميكروباص خالية من الزبائن، دققت النظر لأجد بشير صديق يحيى وجارنا في حارة الحلوة، قال:

- تفضلي يا مدام رقية.

ترددت لحظة، لكنه حسم ترددي عندما مدَّ يده وفتح الباب قائلًا:

- ادخلي يا مدام أنا راجع السكاكيني.

ركبت إلى جواره، شكرته، سألني عن أخبار يحيى وأحواله وأصرَّ على الوقوف أسفل كوبري غمرة عند «القُبيصي ملك المانجو»، طلبَ كوبين شربناهما داخل السيارة، بلا مبالغة كانت هذه هي المرَّة الأولى التي أجلس فيها إلى جانب رجل منذ سافر يحيى إلى العراق، مرَّ الوقت لطيفًا وبدا أننا ولظروف مختلفة لم نرغب أن تكون هذه المرة هي الأخيرة وإن لم نفصح عن ذلك عَلنًا!! وعقب العصير فضَّلت النزول لأمشي هذه المسافة القصيرة من غمرة لشارع النزهة كي لا أنزل من سيارته هناك أمام الناس، وبدا أنه قد تفهَّم هذا دون شرح أو تبرير،

fb/mashro3pdf

لأنه لم يتمسك بتوصيلي إلى باب البيت، ربما لأنه أيضًا لم يرِد أن تراني زوجته مصادفة وأنا أنزل من سيارته، لا أهم من الأمان والكتمان في علاقات الظل الناجحة بين المتزوجين!!

منذ تلك الليلة، بشير لم يتركني وحيدة بطريقي، كان ينتظرني يوميًّا في نفس المكان ويتركني أنزل بعد شُرب العصير، في المرات الأولى كان يبرر ذلك بأن هذا هو موعد عودته اليومي إلى البيت، وبعد تلك المرات لم أعد في حاجة إلى سماع هذا المبرر، بل كنت أنا من أعاتبه إن لم يمرّ في نفس التوقيت الذي اعتاد عليه، كنت في حاجة إلى من أحكي معه وأهتم بحكاياته وكذلك هو، من بعد ظهور بشير في حياتي يوميًّا كل مساء صرت أشعر أن شيئًا في داخلي صار أكثر دفئًا، هذا الدفء هو الذي يُخدر الشعور الذي قد ينتاب المتزوجة بالذنب عند الدخول في علاقة جديدة.

هذا الشعور بالذنب حينما أطلّ برأسه في البدايات بين ضلوعي كنت أخدّره بالحديث مع بشير عن يحيى وكأني أحاول أن أجعله حاضرًا بيننا في خلوتنا داخل السيارة، ومَرَّة بعد أخرى كانت مساحة حديثنا المصطنع عن يحيى تنكمش شيئًا فشيئًا، ولم يعد اسمه يُذكَر إلا وأنا ألعن سفره وتركه لي وحيدة، كان بشير كلما جاءت هذه السيرة، يختلق لصديقه المسافر أعذار لقمة العيش وتأمين المستقبل، لكنه ذات مَرَّة لن أنساها انفجر قائلًا بشوق لم يفلح في مواراته:

- أنا لا أعرف كيف يصبر هذا المجنون على فراق امرأة مثلك!! كيف لا يعيش تحت قدميكِ!!

كل حرف خرج منه كان يلمس كل ما بي أسفل الخمار!! صحيح أن

fb/mashro3pdf

بشير أيضًا متزوج، لكن قسيمة زواجي أو زواجه لم تكن لتحول دون حبي له أو حبه لي، روحي الذابلة، سريري البارد، صدري المهجور، كل شيء عندي كان بحاجة إلى رَجل، وبشير كان إنسانًا موفور الرجولة مثلما كنت امرأة وحيدة تفيض بأنوثتها، لم يكن عيبًا أن أحب غير زوجي، العيب كل العيب أن يتركني زوجي بلا زوج، ليس عارًا على المتزوجة أن تحب، العار أن يدفعها زوجها دفعًا إلى أن تحب!!

ولما ضاقت علينا القاهرة بما سترت صعدنا إلى هضبة المقطم، اقترح بشير وعلى استحياء هذا المكان بحجة أنه أكثر هدوءًا من غمرة وشارع رمسيس، كما أنه بعيد عن عيون الناس وكلامهم، فما كان منّي إلا أن وافقت على اقتراحه دون تردد مبرِّرة ذلك بعدم رغبتي في أن أكون سببًا بمشكلة له مع زوجته إن رآنا أحدٌ وأبلغها، كان هذا ما قلته، أما ما لم أخبره به صراحة في حينها فهي رغبتي العميقة في أن أكون معه على راحتي، خاصة وأن من سابق خبرتي بأجواء المقطم مع يحيى أيام خطبتنا، أدرك أني هناك لن أكون وحدي مع بشير، حتمًا سيكون الشيطان ثالثنا!!

وفي اليوم الذي اتفقنا فيه على الصعود للهضبة، ترك بشير الميكروباص واستعان بسيارة صديق نصعد بها إلى أعلى، وبمجرد وصولنا إلى الحافة، سعى كل عامل من عمال المقاهي المتراصة لاجتذابنا، كانت مجرد مساحات مكشوفة تطل على القاهرة من السماء، تُقدَّم فيها المشروبات ويُسمَح فيها للزبائن بما هو أكثر من المشروب، فقط كل ما هو مطلوب من الزبون بعد إبطال محركه، أن يبرز ورقة بعشرين للعامل ويطلب كوبين من أي سائل، مع وعدٍ صادقٍ بورقة عشرينية أخرى

fb/mashro3pdf

حال حسن الضيافة، جنيهات زبون المقطم في يد هؤلاء كفيلة بتحويل صالون السيارة الضيق إلى غرفة نوم سعيدة!! فوق هضبة المقطم كانت أمواج من العشق قد ضربت جذور صبرنا الذي امتد لسنوات!!

****

لا أدري إن كان عليَ الآن أن أصف هذه الذكريات بالسعيدة، أم أنها ذكريات مخزية يتحتم الندم عليها لعارها؟! ما أعرفه جيدًا هو أن الأيام لو عادت بي إلى الوراء ألف مَرَّة جديدة، سأكون أنا من يُلح على بشير في الصعود إلى المقطم ألف مَرَّة أخرى!! من حسن حظنا في هذا اليوم البعيد أن رزقنا الله بوجود «الحاج مصطفى» العالم بخبايا النفس وبواطن الروح، كان مثالًا نادرًا للقواد الشريف!!

***

fb/mashro3pdf

بشير

الاتجاه المؤدي إلى رمسيس كان أشبه بشوارع يوم القيامة، أبطلت محرك الميكروباص أمام جامعة عين شمس في انتظار الفرج، أحد الزبائن فسَّر هذا الحشر بأن أحدهم أخبره عبر التليفون أن المسيحيين قطعوا الطريق، مَن ينتشلني من وسط كل هذا الآن ويرميني في حضن رقية!! لِمَ لا ورقية هي الإجابة الصحيحة في الزمن الخطأ، الأنثى التي يتعرف عليها الزوج متأخرًا جدًّا ثم يسأل نفسه لماذا لم يقابلها قبل ذلك بسنوات!! في حياة كل رجل حبيبة يتحتم عليه هجر الدنيا من أجلها، وزوجة لأسباب كثيرة لن يهجرها!! في حياة كلٍّ منّا إجابة نموذجية عثرَ عليها في الوقت المستحيل!!

****

منذ دخلتُ حارة الحلوة بالميكروباص وفتحت بابه لأخرج جثمان أبي، ترملتْ أمي وانهارت أحلامها في بسط سيطرتها على جنبات الجحر الذي نسكن فيه مع عمي وزوجته وبناته، لذا فكرتْ أن تُزوجني إحدى بنات عمي لتُثبت أقدامنا بالشقة، كان لابد أن يأتي يوم أخرج فيه من المكان وكذلك أخي الأصغر للزواج لتبقى هي

fb/mashro3pdf

وحيدة في مواجهة المجهول الذي ينتظرها مع هؤلاء المتربصين بها في العُشة الخرسانية، هذا الاحتمال كان الأكثر سوادًا في مخيلتها، فأرادت أن ترسّخ نفوذها في المأوى بتلك المقامرة الحياتية، لم يكن أمامها سوى الإبقاء عليَّ بالشقة وغرسي بكل قوة في لحم الغرفة المجاورة، في الواقع لم يكن هذا غرسًا في لحمها بقدر ما كان في عظامها، وفاء بنت عمي كانت شديدة النحافة وما زالت.

لم أكن ذات يوم تواقًا إلى وفاء أو أيٍّ من بنات عمي الأخريات، اللهم إلا مَرَّة يتيمة بدافع الفضول قبل سنوات ونحن نستحم معًا، كانت جدتي رحمها الله صباح كل يوم جمعة تجلس على الكرسي الخشبي الصغير بالحَمَّام أمام الحلة لتحممني أنا وأخي بالكوز مع باقي بنات عمي ساكبة علينا بالجملة المياه الساخنة ونحن جميعًا عرايا، استمر هذا الطقس الأسبوعي إلى أن بدأ صدر وفاء في التكور مثل حبة الليمون لتضبطني جدتي وأنا أقلب عينيَ بدهشة بريئة في هذا الثمر الطازج، لم تغضب أو تنهرني أو تُحرجها، فقط كل ما قالته بهدوء الحكيمات وهي تسكب الكيزان ودون أن تلفت نظر أحد:

- أين تنظر يا بشير؟!

بعدها فصلتنا جدتي أنا وشقيقي عن بنات عمي في استحمام الجمعة، ليكبرن كشقيقات لنا في الغرفة المجاورة، ظلت مشاعر الأخوّة هذه راسخة بنفوسنا إلى أن حلَّ يوم عجيب وجدت نفسي فيه على عتبات وفاء طالبًا الزواج منها!! وفاء صاحبة الليمونتين اللتين لم يتغير حجمهما كثيرًا منذ رأيتها خِلسة في الحَمَّام!! هذا الزواج البائس كان في نكهته أقرب إلى زنا المحارم!!

fb/mashro3pdf

في البداية رفضت الفكرة بقسوة عندما طرحتها أمي، وتمنيت رفض عمي وزوجته لها، لكنهما في الأغلب وافقا على تزويجي من وفاء لأسباب لم تختلف كثيرًا عن دوافع أمي، تلك الزيجة كانت بالنسبة لهم أيضًا صفقة وجود ناجحة، فهي من جهة سوف تساهم في خفض عدد الأجساد المكومة بغرفتهم، ومن جهة أخرى سيكون وجود وفاء بغرفتنا تدعيمًا لنفوذهم العام بالشقة وبسطًا لسيطرتهم على كافة أنحاء الجحر الذي يأوينا بين جدرانه، في النهاية لم أستطع الصمود في رفض الفكرة التي طرحتها أمي وهي تبكي راجية مني قبولها حتى لا تبقى وحدها وسط هؤلاء الأوساخ في خريف العمر!! هكذا وصفتهم.

كانت مفاوضات النسب الجديد بين أمي وزوجة عمي أقرب إلى معركة ضرائر، ومراعاةً للتقاليد المصرية العريقة خرجت امرأة عمي وابنتها وفاء أولًا إلى الصالة وجلسنا على المصطبة الخشبية وكأنهما أصحاب البيت، ثم خرجت أنا وأمي بعدهما من حجرتنا إلى نفس الصالة كضيوف، سحبنا كرسيين وجلسنا عليهما طلبًا للقُرب، في حقيقة الأمر هذا الطلب لم يكن للقرب بقدر ما كان لمزيد من الالتصاق، اللافت يومها أن عمي كان قد غاب عن المشهد، ليس لأن الأمر لا يعنيه وإنما ثقة منه أن زوجته جديرة بحسم كل الأمور التي قد يُختلَف عليها، وبالفعل وقبل الدخول في مقدمات قررت زوجة عمي الذهاب مباشرة إلى الهدف موجهة الحديث إلى أمي:

- وأنتِ إن شاء الله يا أم بشير، لو وافقنا على زواج المحروس من وفاء، هل ستظلين نائمة لهم على الأرض أنتِ وابنك الثاني في ليلة دخلتهما؟!

fb/mashro3pdf

نظرت وفاء إلى الأرض خجلًا، وردت أمي:

- لا طبعًا، سأترك لهم الغرفة في شهر العسل.

- وبعد شهر العسل؟؟

- يحلها الحلال يا أم وفاء، المطرح لمنا طول عمره، كلها حاجات صغيرة.

- حاجات صغيرة!! يا ست اختشي، أنا أحب بنتي تكون على راحتها مع ابنك.

- هل تعودتِ على تلك الراحة في قصر جدك الباشا؟!

- لساني أطول من لسانك يا أم بشير وبنتي خاتم الماس، وفاء ستدخل على سرير جديد ودولاب جديد، والسجادة علينا.

ثم أضافت بكل تصميم وثقة:

- وأنتِ وابنك المحروس الصغير وكل أحبابك، مكانكم الصالة.

صمتت أمي للحظات بينما كنت أنظر أنا إلى الأرض مثل وفاء، وفجأة قالت:

- على بركة الله، وفاء بنتي وحبيبة بشير ابني.

لم أصدِّق ما وافقت عليه أمي!! ولم تصدق زوجة عمي أن يأتي الحسم بهذه السرعة، فقامت وأطلقت زغرودة طويلة بالهواء، هذه الزغرودة ليست فرحًا بالتخلص من أول بناتها بقدر ما كانت تشفّيًا واحتفالًا بنصرٍ نسائيّ تأخَّر لسنوات على غريمتها بالشقة، وحينما عدنا إلى حجرتنا وأغلقنا علينا الباب سألتُ أمي في دهشة:

- كيف وافقتِ على هذا؟!

- لا فرق يا بشير، نحن في بلاء منذ خرجنا من براحنا في النوبة،

fb/mashro3pdf

كنت أتوقع منها مثل هذا وتحسّبت له وفكرت فيه، النوم في الصالة بدون أبيك لن يختلف كثيرًا عن النوم هنا، منذ سنوات طويلة ونحن لا ننام في مطارحنا، مهما تبقى لي من عمر فلن يكون بقدر الذي راح، أخوك حصل على الدبلوم وقريبًا سيطير، وبنات عمك كذلك، أريد تثبيتك بالمكان، لا أنجح من غرسك في لحم كبرى بناتهم.

وهكذا دارت رحى الأيام!! وافقت أمي قسرًا أن تنام فوق نفس المصطبة التي نامت عليها جدتي جبرًا قبل سنوات حتى تفسح لهم الشقة!! هذه المصطبة التي وارت في سحارتها كل أوراق جدتنا الكبرى سليمة، وعلى كل حال حاولتُ كثيرًا إثناء أمي عن إتمام هذه الزيجة وهذا الاتفاق لكنها أصرت على عقد القران في أقرب وقت، على أن تكون دُخلتي على بنت عمي بأول إجازة ملائمة من التجنيد الذي صرت مطلوبًا له.

****

- عساكر زبالة بنت كلب.

هكذا قال أحد ركاب الميكروباص حينما وصلنا لميدان العباسية ووجدنا عساكر الأمن المركزي قد أغلقت شارع رمسيس في وجهنا وأجبرتنا على تغيير المسار، لم أشعر بنفسي إلا وأنا ألتفت نحو الزبون وأنفجر فيه:

- اخرس أنت يا زبالة يا ابن الكلب.

- نعم؟!

ثم نزلت من الميكروباص وفتحت الباب وقمت بإخراجه وكرمشت أجرته في وجهه، هرب الزبون ولم يرد رعبًا مني!! في حين

fb/mashro3pdf

ذُهل الجميع من السواق الذي انفجر لأن أحدهم شتم عساكر الأمن المركزي أمامه!! هؤلاء الذين يشتمهم كل الناس!!

****

فترة تجنيدي كعسكري أمن مركزي من الصعب حذفها من ذاكرتي أو نسيانها، رغم كل ما يتعرض له الإنسان في حياته من بؤسٍ ومهانة وشقاء إلا أنه لن يدرك مدى وداعة هذا البؤس ودعابة تلك المهانة ورفاهية هذا الشقاء إلا عقب دخول معسكرات الأمن المركزي!! خارج المعسكر كنت مجرد إنسان يعاني، أما داخله فصرت حيوانًا يعاني!! حيوان وسط حشود من حيوانات أخرى نحيفة وسمراء ومفترسة من فرط الجوع والعطش والقهر والبقاء في الشمس، أنفي لم يتعرف في الحياة على رائحة أكثر اتساخًا من رائحة الأماكن التي كنا نُحشَر فيها جبرًا داخل العربات الصفيح الحارة أو الزرائب المكدسة النتنة التي كنا نُكوم فيها ليلًا، داخل المعسكرات ائتلفنا مع العفن وفقدنا حاسة الشم مثلما فقدنا كل مظاهر الإنسان تباعًا!!

وفي يوم هلت الأخبار بأن وزيرًا جديدًا للداخلية حسن السيرة قد تولى، اسمه أحمد رشدي، كان أملنا في حُسن سيرته أن يطرأ على حالنا البائس أي تغيُّر ملموس لكن شيئًا من هذا لم يحدث، ربما لأنه مثل سابقيه وربما أن القدر لم يمهله، لا أحد يعلم، لكن ما أعلمه جيدًا هو أنه عندما دخلَ علينا عام ١٩٨٦ وذات مساء بالمعسكر ومن أجل التسلي وملء الفراغ، تنصتُّ في الليل الطويل على حوار ثلاثة من الضباط الساهرين، قال أحدهم لزميليه بعد أن طوى جريدة ووضعها إلى جواره:

fb/mashro3pdf

- رشدي لا ينتوي أن تمر فترة وزارته على خير، يقف بمفرده متحديًا الدنيا كلها، قضى على أسطورة الباطنية رغم عجز كل من سبقوه أو تواطئهم، وتعهد داخل مجلس الشعب أن هذا العام سيكون عام القضاء على المخدرات في مصر.

ردّ الضابط الثاني:

- ومنذ بدأ فبراير وهو يدوس بحذائه على ذيل حيتان البلد الكبيرة، السؤال الآن هو هل سيصمت هؤلاء عليه طويلًا؟!

اجتهد الضابط الثالث في تقديم إجابة وتبريرها:

- لا أعتقد أنهم سيصمتون طويلًا، رشدي لم يعد يُلقي القبض فحسب على كبار تجار المخدرات، بل بدأ في إرسال كبار ضباطه لإلقاء القبض على كبار رجال الدولة، من يصدّق أنه بعث اللواء عبد الحليم موسى بنفسه في مأمورية إلى الإسكندرية للقبض على عبد الخالق محجوب الهارب من حكم بالسجن عشر سنوات في قضية رشوة رغم أنه شقيق رئيس مجلس الشعب رفعت المحجوب!!

قاطعه الضابط الأول مَرَّة أخرى:

- كله كوم وما حدث قبل أيام في قضية الرشوة الكبرى كوم، هل يصدّق أحد أن رشدي أرسل اللواء أحمد حسن الألفي لاقتحام وزارة الصناعة والقبض على ١١ وكيل وزارة مَرَّة واحدة بتهمة الرشوة!! هذا لن يمر بسلام!!

وبالفعل لم يمرّ فبراير بسلام!! في نهايته انتشرت داخل المعسكر منشورات ورقية مجهولة المصدر تفيد بأن مدة التجنيد ستزيد من ثلاث إلى خمس سنوات، مع تخفيض الراتب الشهري الذي هو بالأصل مجرد

fb/mashro3pdf

قروش معدودة، إلى الآن لا أعرف مَن الذي طبعَ هذه المنشورات!! ولا أعلم مَن الذي سمحَ بدخولها وتوزيعها داخل المعسكر هذا النحو!! الوضع خلف الأسلاك الشائكة كان عبارة عن عدد من الحلقات الواسعة، وفي منتصف كل حلقة وقف مجندٌ ينثر الأخبار الصادمة على مَن حوله ويُحمِّس على التمرد ضدها، هذه الأنباء المحبِطة كانت بمثابة أعواد كبريت تشتعل وسط أكوام آدمية من البارود!!

انفجرت طاقات الغضب داخل الثكنات بلا ضابط أو رابط، ساعد على انفجارها شعورنا ولأول مَرَّة بكثرتنا وصوتنا العالي، توجهت وسط أحد الحشود الجماعية للبحث عن قيادات المعسكر والتأكد من صحة ما جاء بالمنشورات، وجدنا مكاتبهم خالية ولا يوجد من ينوب عنهم، تساءلنا هل هربَ الضباط من المعسكر أم نحن الذين لم نبحث عنهم من قبل في مكاتبهم ليلًا وكنا نرتعب من مجرد المرور أمام أبوابهم المغلقة؟! هل كنا كعساكر طوال هذه السنوات نرتعب من لمبات مضاءة في مكاتب خالية؟!

وحينما لم نجد أحدًا منهم، بلا شعور أضرمنا النار في كل مكاتبهم بما فيها مكتب الأفراد الذي يضم سجلات الإجازات، كنا قد كسرنا بداخلنا حاجز الخوف وتملكتنا شهوة الانتقام من كل الضباط الذين طالما مرغوا أنوفنا في تراب الأرض!!

في هذا المساء الحارق لم أرَ أي ضباط بالمعسكر إلا هؤلاء الثلاثة الصغار الذين كنت أتنصت إلى كلامهم المتعاطف عن وزير الداخلية المحترم أحمد رشدي قبل أيام، كنت الوحيد من بين الجموع الذي على يقين بأنهم لا يستحقون هذا المصير!! لكن بلحظات انفجار الغضب

fb/mashro3pdf

يكون الحساب جماعيًّا عن مجمل الأعمال، ما حييت لن أنسى منظرهم، رأيت الضباط الثلاثة مربوطين من أقدامهم وهم يُسحلون عرايا فوق تراب المعسكر وسط فرحة عارمة من العساكر وتهليل بالنصر!!

****

لماذا غضب الله على سلسال سليمة إلى هذا الحد؟! كنا أقرب للخلق كفرنسيين، لو أن هذا تحقق لما تورَّط في انتفاضة الأمن المركزي، ولما انبهرت بعاريات وحدة الساونا، ولما عبثت فيهن بجنون كحيوان جائع،لن أنسى مشهد الفندق الذي اقتحمناه ليلًا عند سفح الهرم!!

***

fb/mashro3pdf

أوراق سليمة

- وأين أنا؟!

- لا تقلقي أنتِ في بيتي يا سليمة، أليس هذا هو اسمك؟!

- نعم هو اسمي، ولكن هل ما زلتُ في الدرب الأصفر؟!

- صحيح، هو كذلك بالفعل.

- وماذا عن سيدتي كلارا؟!

- في الطابق الأعلى.

شهقت من الدهشة والخوف فاستطرد:

- أنا الرجل الذي اصطدمتِ به وأنت تهرولين بجنون خارجة من باب البيت نحو الدرب عارية في المساء!!

نظرت إلى نفسي في شرودٍ وأنا ممددة على الفراش وسط هذه الملابس الذكورية الفضفاضة!! فقال بدعابة:

- ألبستك ملابسي فصرتِ من أجمل الذكور الذين رأيتهم بحياتي.

صَمتُ في حياء للحظات، ثم قلت:

- حتمًا ستصل إليَّ كلارا وتُعاقبني وتُنكل بي!!

- لن يحدث، حتى الآن هي لا تعرف مكانك، وظنها أنك فررت من الدرب كله.

fb/mashro3pdf

- ولكن صك ملكيتي معها.

- صدّقيني، لن تفلح كلارا في المساس بك بعد اليوم، ولن تعودي إليها ثانية، أما بخصوص الصك فدعي لي هذا الأمر وسأتمه.

رغم دهشتي العارمة من غموض كل ما أسمع، انفكت ملامحي وشعرت بتلالٍ من الهموم تنزاح من فوق كتفي، ابتسمت بدموع تختنق في عينيَّ فاستطرد:

- قلت لك لا تقلقي يا سليمة.

سألته في حيرة:

- ولكن من أين لك باسمي؟!

- صار لك ثلاثة أيام وأنت تتحدثين عن نفسك من وسط الحُمى والغيبوبة.

- ثلاثة أيام!! أصار لي هنا ثلاثة أيام كاملة!! وماذا قلت وأنا محمومة؟!

- كنتِ تهلوسين بكلمات عن العسكر والعبيد والحريق وعن صخرة عند النهر!! وناديت كثيرًا على...

ثم صمتَ ليتذكر، أصررت وسألته بشغف:

- على مَن كنتُ أنادي؟!

- على ما أذكر واحدة اسمها زينب، أعتقد أن هذا الاسم في العربية هو عندكم لامرأة؟؟

- نعم، هي أمي.

رغمًا عنّي عصفت بي نوبة من البكاء، قام كلوت من كرسيه واقترب من الفراش، فوجئت بحضنه يحتويني في محاولة لتسكيني، وبرِقّة بالغة مدَّ يديه ليمسح خدي قائلا:

fb/mashro3pdf

- كطبيب أؤكد لك أن هذا الانفعال ليس في صالحك الآن.

- أنت طبيب؟؟

- نعم يا سليمة طبيب.

ثم نزع برفق بالغ ضمادة كانت على رأسي، شعور غامض انتابني تجاه هذا الفرنسي الأشقر كلوت حينما امتد بيده إلى ملامحي!! أحسست كما لو أن السماء اقتربت مني أخيرًا بحنانٍ طال انتظاره!! لا لتلامس فقط جبهتي وإنما لتتلمس كل جنبات نفسي المجروحة!! يا لتلك الهزة الوجدانية الناعمة التي داهمتني وأحيت أنوثتي التي دُفِنَت من قبله في بئرٍ عميق!! كيف أحيا هذا الدافئ بأنامله كل إنسانيتي من بعد موتها وصفَّف لي خصلات شعر أحلامي من جديد!! هذه اللحظة لن تغادر قشعريرتها جسدي ما حييت!! حينما لمسني هذا الرجل بيده شعرت بها وكأنها تتقصى سيرة كل تباريح روحي وتُطيب!!

- سأذهب إلى الكنيسة الآن، وعندما أعود سأجبرك على الفضفضة والحكي فالاعتراف هنا إجباري.

قالها مبتسمًا وطبعَ قُبلة على جبيني!! ثم ذهب بعدها وتركني بالبيت أرقب الدنيا من خلف المشربيتين، إحداهما كانت تطلّ على قلب الدرب الأصفر والأخرى على شارع المعز، ومع ارتفاع الشمس ازداد الصخب، تكاثرت عربات البغال والخيول باتجاهيّ الأزهر وبوابة الفتوح وتعالت أصوات الباعة، الملاءات الملفوفة حول البنات والنساء أشعلت خيالات الرجال وأيقظت هممهم المتكاسلة، في أوقات البيع والشراء تُرفع البراقع وقد تُترَك بعض الملاءات لتنزاح قليلًا عن مطلات النهود أثناء الفصال مع التجار في محاولة لإغواء عابر بحثًا عن زوجٍ مناسب أو عشيقٍ جديد أو أدنى سعر يصل إليه الطرفان،

fb/mashro3pdf

تعرفتُ على هذه التفاصيل وغيرها من الفضائح المستترة للأسواق عبر حكايات النساء في العالم السُفلي للحمّام، كان الإغراء دون الوقوع سلاحًا حاسمًا وفطريًا للأنثى المُبرقعة الضليعة في عوالم البيع والشراء، لمَ لا وقد كانت أسواق المحروسة مسرحًا كبيرًا لدعارة الخيال!!

فجأة ووسط كل هذا سمعتُ طرقات على الباب، بعفوية بالغة فتحت الباب لكلوت الذي لم يتأخر كثيرًا في الكنيسة، بمجرد مواربة الباب تأكدت أن الطارق ليس كلوت، وجدت نفسي أمام كلارا التي تسمرتْ للحظات أمام هذا الكائن العجيب الذي فتح لها مُرتديًا ملابس كلوت!! أدركتْ كلارا فورًا أن هذا الكائن هو جاريتها الهاربة، بشهقة رعب دفعتُ الباب كي أغلقه في وجهها، علا صراخها وهي تضرب الباب بيديها في جنونٍ وبدا من صوتها أنها شِبه مخمورة، شتمتني كلارا بكلمات نسوية عربية وأخرى فرنسية لم أفهمها، لكنها حتمًا كلمات تليق بكبرياء سحاقية مجروحة مثلها!! استندتُ إلى الباب بظهري والهلع يفيض من قلبي المنكمش، تلك الطرقات المحمومة على الباب استدعت في خيالي نفس الطَرقات المرعبة على باب بيتنا في شندي بالليلة المشئومة!!

- حمدًا للرب على سلامتك يا قديس الجواري!!

هكذا سخرَت كلارا بلسان متثاقل عندما استوقفت كلوت فور مروره من بوابة البيت، وعقب لحظة من الصمت والتعجب ردَّ:

- أدخلي إلى بيتك الآن فأنتِ مخمورة يا كلارا!!

- لست مخمورة يا عاشق العاهرات!! أعد تلك الرخيصة التي بالداخل أيها اللص وإلا أبلغت عنك.

- التي بالداخل لن تعود، اذهبي الآن ولنتحدث فيها بعد.

fb/mashro3pdf

فالها كلوت بثقة وهو يطرق بيده، بحذرٍ فتحتُ له، دخل محمَّلًا بلفائف اشتراها، في حين قذفته كلارا بزجاجة خمر ارتطمت بخشب الباب وهي تتوعده:

- سأعرف كيف أسترجع هذه الكلبة وألقنك درسًا لن تنساه.

في الداخل، حكيتُ له عما حدث من كلارا في غيابه، حاول كلوت تسكيني من جديد فربّت على كتفي بابتسامة قلقة قائلًا:

- هو ذنبي على كل حال، كان يجب أن أغلق الباب من الخارج أو على الأقل أؤكد عليك عدم الفتح لأحد إلا بطَرقة متفق عليها بيننا.

- قل لي، في الأيام الماضية، هل أغلقتَ عليَّ الباب من الخارج أم لم تغادر البيت أصلًا؟!

- ما حدث لك كان بساعة متأخرة من مساء الخميس، والجمعة عطلة، ويوم السبت استعرت أحد الطواشية الخصيان من صديق مقرب ليُمرّضك ويظل بجوارك حتى أعود.

- خصيان!!

- حتى لا يمسك أحد بسوء، أنتِ كنتِ غائبة عن الوعي.

هي المرّة الأولى بحياتي التي أشعر فيها أن رجلًا يغار عليّ!! ثم استطرد:

- أما اليوم فهو الأحد ولم يكن عندي عقب الكنيسة سوى ما سأنجزه بين تلك الكتب والأوراق الكثيرة.

- ولكن أخبرني يا سيدي، كيف استأمنت غريبة مثلي على بيتك ونزلت للكنيسة؟! ألم تخشَ أن أسرقك وأهرب؟!

- التاريخ لم يذكر مريضة غدرت بطبيبها.

نطقها وهو ينظر في عمق عينيَّ ثم فرّ من هذا العمق قائلًا:

fb/mashro3pdf

- فضلًا عن أنه لا يوجد بالبيت ما قد يروق لكِ أو يلفت انتباهك.

- الكتب.

اعترته دهشة عارمة، فسأل:

- هل تجيدين القراءة والكتابة؟!

- نعم، أجيدهما بالعربية.

- يبدو أن شأنك معي سيكون مختلفًا، الأهم وقبل كل شيء الآن، تعالي وساعديني في فتح هذه اللفائف.

عقدت المفاجأة لساني، احتوت اللفائف على أثواب من الأقمشة القطنية والحريرية وبألوان عديدة ومستلزمات نسائية أخرى اشتراها لي، هي المرَّة الأولى التي أتلقى فيها هدية، وقبل أن أفيق باغتني بقوله:

- هل سمح لك خيالك بأنك ستظلين إلى الأبد في تلك الملابس الذكورية يا مدموازيل سليمة!!

بدا وقع اسمي على سمعي ساحرًا بعدما سبقته تلك المفردة العجيبة، مدموازيل!! هذه التي لم أدرك معناها حرفيًّا بتلك اللحظة لكنني وبفطرة الأنثى تذوقتها على نحو رائع، واستطرد:

- عند العصر ستمر خياطة فرنسية من أجلك، وفي المساء سوف تقصين عليَّ كل حكايتك، سئمت من تلك المقاطع المبتورة التي كنت تهذين بها وأنتِ محمومة!!

وفي الموعد، حضرت الخياطة وبتأفف بالغ دوَّنت أبعاد جسدي في ورقة صغيرة، قبل ذهابها استوقفها كلوت وتبادل معها حديثًا وهو يشير إليَّ، ابتسمتْ وهزت رأسها بالإيجاب، وبعد خروجها قتلني الفضول فسألته:

- ماذا كنت تقول لها بشأني يا سيدي؟؟

fb/mashro3pdf

- فقط كنت أوصيها بفساتينك، وبالمناسبة أنا لستُ سيدك، أنتِ صديقتي البرونزية الرقيقة.

نظرت إلى الأرض خجلًا منه، ثم أردف بسؤال:

- لكن أخبريني، هل أنتِ ماهرة في إعداد طعام على طريقة المصريين؟؟

- بالطبع، أنا هنا منذ زمن ليس قصيرًا.

- طبيعتي كأعزب وحيد في تلك البلاد فرضت على معدتي جفافها.

- لا عليك دع الأمر لي.

سحبني من معصمي نحو المطبخ ليدلني على مكان كل شيء، ثم أعطاني مالًا لشراء ما أراه مناسبًا لبنات أفكاري، وحين هبط المساء على الدرب الأصفر وتوهجت القناديل والشموع خلف المشربيات المُشرعة والقلل الفخار المبتلة، جلست بجانب كلوت على المنضدة وباستمتاع عميق اكتشفَ لأول مَرَّة مذاق الأرانب المُحمَّرة برفقة الملوخية والخبز المُحمص إلى جوار السلطة الخضراء والباذنجان المُخلل بالثوم، أخذ يحدق فيَّ وأنا أتناول بكل مهارة تلك الملوخية الزئبقية بكسرات الخبز المحمص من الصحن، حاول أن يقلدني لكن الملوخية كانت تفر منه، حاول أكثر من مَرَّة لكن الملوخية إما علقت بشاربه أو تساقطت على صدره في مشهد دفعني إلى نوبة من الضحك، نظر إليَّ بعدها في غيظٍ وخيبة، وبعدما استبدّ به اليأس ترك الملوخية وتفرغ لأوراك الأرانب المُحمرة قائلًا:

- تبًّا لهذا السائل المخاطي الأخضر!!

فوجئ كلوت بي وأنا أغمس كسرات الخبز بحرفية في صحن الملوخية ثم ألفّها في الهواء بحركات دائرية ضيقة قبل أن أضعها في

fb/mashro3pdf

فمه، شرع كلوت في تذوقها على مهلٍ ثم نظر إليَّ وابتسم، ابتسمتُ أنا أيضًا وأطعمته باقي الصحن، لقيماتٍ مُحمصة متوالية في فمه، جعلته يستمتع كوليد بين ذراعيّ والدته، شعرت أني قد اقتربت منه كثيرًا، داخل كل رجلٍ طفلٌ يتوق لأنامل أنثى تحنو عليه في لحظة فريدة كأمٍّ له، لم أكن أطعمه بيدي بقدر ما كنت أكتشفه!! بعض النقوش على جدران النفس لا تُضاء إلا بيد مُستكشفين من الخارج!!

عقب تناوُل العشاء دعاني كلوت إلى جواره على المصطبة الخشبية لاحتساء القِرفة جوار المشربية، نسمات الليل أضفت على المكان أجواءً ساحرة للبوح والفضفضة، لذا لم يبذل أي مجهود لفتح أقفال حكاياتي، انتظرت فقط أن يسألني ثم بُحت له بكل أحمالي، الأنثى دائمًا في حاجة إلى رجل آمن تُلقي في خزائن صدره بكل عار الماضي كي تستريح!!

- ما كل هذا الذي كنتِ تهذين به وأنتِ محمومة يا سليمة؟!

- في تلك الليلة البعيدة في شندي، اشتد الطَّرْق فجأة على باب الدار الذي كاد أن ينخلع من قسوة الطارق الذي صاح بكلمتين عربيتين وبلكنة تركية:

- افتح باب، افتح باب.

انتفضت أمي من مكانها ونادت على أبي حسن لتوقظه، بدا من طبيعة الطرقات أن البلاء المنتظر قد وقع، وأن شندي قد تدفع الليلة ما سبق وأن دفعته كورتي من قبلها، استيقظ أبي مفزوعًا مترنحًا مما يجري محاولًا ارتداء جلبابه قبل الاتجاه نحو الباب مرددًا:

- يا ألطاف الله!! يا ألطاف الله!!

لكنات الجلبة بالخارج أكدت أنهم عسكر الباشا، لذا صرخت أمي نحو أبي قبل أن يفتح لهم:

fb/mashro3pdf

- الصبر يا حسن.

وقف أبي مُرتبكًا غير مدرك ما يتوجب عليه فعله بتلك اللحظة، فما كان من أمي إلا أن أسندت للجدار سلمًا خشبيًا قصيرًا يوصلني لسطح الدار، وفي لمح البصر ألقت لي بشالها بعدما لفت به بعض الثمار ثم صرخت بكل ما امتلكت من غريزة الأم:

- اهربي يا سليمة، لا تعودي إلا والدار آمان.

شهق أبي وانعقد لسانه غير قادر على جدالها وهو يراني أصعد آخر درجتين في السلم، لا أقسى على الأب من نظرة مفاجئة إلى ابنته يشعر فيها أنها الأخيرة!!

انخلع الباب في تلك اللحظة تحت وطأة مؤخرات البنادق، انفلت العسكر إلى الداخل كالكلاب المسعورة، أمسكوا بأبي المكوم على الأرض عقب ركله بالأقدام، أمي لم تأبه بكل ما يجري، فقط اهتمت بتثبيت السلم وأنا أفرّ نحو السطح، اندفع نحوها أحد العسكر وصفعها على وجهها محاولًا إسقاط السلم كي لا أفرّ، وبالفعل سقط السلم لكنني تشبثت ونجحت بالصعود، ومن الأعلى رمقت عينيها بنظرة أخيرة فصرختْ بكل ما فيها من حياة:

- اهربي يا سليمة.

من فوق سطح الدار، نظرت حولي بالظلام فوجئت بالعسكر يعيثون فسادًا بكل طرقات شندي، وقبل أن أستوعب المشهد شعرت بأحدهم يحاول الصعود خلفي عبر السلم الخشبي، دون تفكير أطلقت ساقيَ للريح تحت ستر السواد فوق أسطح البيوت المتراصة، ثم واصلت الجري والهرب وسط الغيطان الحالكة سعيًا وراء ملاذٍ آمن، قادني تفكيري إلى الصخرة المطلة على النهر، وبالفعل وصلت إليها

fb/mashro3pdf

وركضت ذاهلة بعينيّ ولاهثة بأنفاسي، لم أكن قادرة على استيعاب كل ما مرَّ بي فجأة خلال الساعة الأخيرة!! تُرى أين أبي الآن وماذا حدث لأمي؟؟ ومن فرط الإجهاد قُرب الفجر غلبني النعاس داخل تجويف الصخرة، ومن جديد حلمت بزينب وهي تفتح ساقيّ وتربطهما بأعمدة السرير النحاسي!!

لم أفق إلا على شيءٍ ثقيلٍ يلكزني في كتفي، فتحت عينيّ ببطء في انزعاج وكأن أمي توقظني في فراشي!! وقبل أن أستجمع تفاصيل ما أنا فيه لكزني نفس الشيء بقوة أكبر!! انتبهت هذه المرَّة لأجد هذا الشيء كعبًا لبندقية أحدهم، انتفضت وشهقت رعبًا، تكورت في نفسي أكثر فاقترب هو أكثر، بلا تفكير حاولتُ الفرار من الجانب الآخر للصخرة فارتعبت مما رأيت!! فوجئت بهم في كل مكان فوق الزروع وحول النهر، يبحثون في كل شبر عن أرواح يحكمون قبضتهم عليها، أحاط بعضهم بي وضيقوا عليَّ الدائرة ضاحكين في سخرية، في يأسٍ وبلا عقل صممتُ على الهرب منهم، مدَّ أحدهم قدمه ليعرقلني، تعثرت على الأرض، لكزني ببندقيته في ضلوعي، صرخت، دفعني آخر بقدمه في صدري، قام الثالث بمحاولة شدي بقسوة، تفسخ الثوب عن صدري الذي انكشف رسمه لكلاب العسكر.

بعد ربطِنا بالحبال داخل مخيم المعسكر الموجود على أطراف شندي المغضوب عليها، تم حشر لحمنا جميعًا كالحيوانات في أقفاص خشبية كبيرة تجرها الخيول باتجاه النهر استعدادًا لنقلنا نحو الشمال، وتحت تهديد البارود خرجنا من الأقفاص، تم تكديسنا فوق ظهور المراكب للإبحار نحو مدينة تُدعى أسوان، كانت كسرات الخبز تُلقَى إلينا باحتقار، تعمدوا العبث بأجسادنا وإهانتنا وشتمنا بأقذر الألفاظ.

fb/mashro3pdf

ومن فرط جرح الكرامة هذي أحد المنكوبين بجواري إلى نفسه، وبصوت خفيض وجنون أوشك على الانفجار قال:

- قد يكون من حُسن قدري ألا أحشَر مع أمي وأخواتي البنات على ظهر نفس المركب، كي لا أشعر بها لن يكف عن وجعي طوال حياتي!! كل ما فيهن الآن من حق هؤلاء العسكر!! حتمًا هناك الآن من يعبث بهن أو سيعبث!! لكن وطالما صرت عبدًا فالغيرة غير مسموح بها ولا النخوة!! اللعنة على الباشا وكل كلاب الباشا.

اقتربتُ منه برأسي وهمست له بذات الصوت الخفيض:

- هوّن عليك يا أخي، كلنا في الهم عبيد!!

كان «سرّ الخاتم» صبيًا يافعًا يتطلع إلى الشباب وبداخله غضبٌ يريد أن يشتعل في أخشاب المركب بعدما فقد كرامته وكل من بحياته، سألته بهمسٍ:

- لمَ يا أخي؟! ما الذي حدث حتى يُنكل بنا على هذا النحو فجأة؟!

اندهش منّي وكأني كنت أعيش على أرض غير أرض شندي!! لم يعرف أني قد عزلت نفسي عن الدنيا منذ خُتنت فرعونيًا ذات مساء، وعقب دهشة ارتسمت على ملامحه، بدأ سر الخاتم في حكي الوجع فأنصتُّ إلى همسه:

- لعن الله هند أُس الفساد وجسدها الفتان!! حينما تتقد الشهوة في جسد الرجال فشررها قد يطول مدنًا بأسرها وأجسادًا أخرى بريئة لم تفتن أحدًا ولم تكن بالحسبان!!

كانت الأمور قد استتبت في شندي لعسكر الباشا بعد الاتفاق المهين الذي أملاه إسماعيل على الملك نمر في عُقر بيته وبحضور جاريته الجميلة هند التي نسقت بنفسها مأدبة العشاء، هذا الاتفاق ألزم ملك

fb/mashro3pdf

شندي بتقديم قرابين الذكور والأموال إلى الجيش الجديد الذي يكوّنه الباشا في مصر مقابل الإبقاء على نمر ملكًا على شندي، وعقب المُضي في تنفيذ هذا العار قرر إسماعيل التحرك بجيشه جنوبًا نحو مدينة سنار وذلك بعد الأوقات التي استطاب له فيها السهر والسمر مع نمر وجاريته هند.

وعقب تحرُّك إسماعيل بجيشه نحو سنار، كانت فرحة الملك نمر فرحتين، الأولى بنجاحه في البقاء على كرسي شندي، والثانية ببطن هند التي استدارت أخيرًا!! هند أحَب جواريه إليه وأقربهن إلى قلبه حبلت منه بعد غياب، ويُقال إن ذلك أثار غيرة كل حريمه على نحو غير مسبوق وأشعل بينهن سباقًا في الكيد النسوي، فكان أن وُشيَ بها عبر رسالة مطوية دُسَّت في مجلس الملك نمر، رسالة نهشت سطورها في عِرض هند وتحدثت عن تكور بطنها من إسماعيل ابن الباشا!!

اندلعت النار في نفس الملك واستحال عليه التأكد مما جاء في سطور الرسالة، فآثر مُطمئنًا رجولته أن يردها إلى غيرة حريمه العمياء من هند التي كانت بالشهور الأخيرة من حبلها، لكن الشكوك ظلت تساوره، حاصرته بالنهار وطعنته كل ليلة في أحلامه، بقيت النار سرًا تتقد أسفل جلده وتحرقه من الداخل، إلى أن وضعت هند طفلة جميلة لم تعش سوى أيام!! ولأن غيرة النساء في بيت نمر امتزجت بالنميمة، لذا لم يعد للحقيقة أصل، قيل إن الطفلة أصابتها الحمى بالأيام الأولى وماتت، في حين روجت روايات أخرى أن الملك تخلص من الطفلة خنقًا لشعوره أنها ليست من صُلبِه، ثم اعتزل نمر النساء، لا هو استطاع التخلص من هند بلا يقين، ولا صار قادرًا على تحمُّل باقي حريمه، ثم استمرت الأيام متشابهة إلى أن جد ما غيَّر مسارها.

fb/mashro3pdf

كانت شندي تغلي من الداخل إثر ما فُرِض عليها من ضرائب تُدفع ونفوس تُنتزع وتُرحل نحو الشمال قربانًا لجيش مصر الجديد، وسط هذه الأجواء الغاضبة، حطت قافلة عبيد تابعة لإسماعيل رحالها بإحدى قرى شندي على سبيل الراحة، وكانت في طريقها نحو معسكرات أسوان، نشب خلاف بين اثنين من عسكر القافلة وإحدى بائعات الفاكهة بسوق القرية، فأخذوا منها ما أخذوا دون مقابل ثم ركلوها بأقدامهم بعدما أفسدوا لها ما تبقى من بضاعتها تنكيلًا بها!! اشتاط غضب شباب القرية ورجالها، وثأرًا لشرف امرأتهم هجموا بغتة على قافلة العبيد من كل الاتجاهات وأطلقوا سراح إخوانهم بعدما قتلوا من العسكر ما قتلوا، انتشر خبر فعلة القرية كالنار في الهشيم، وفي اليوم التالي تشجّع أهل شندي نفسها وخرجوا ضد الحامية العسكرية الصغيرة التي تركها إسماعيل قبل مغادرته ضاربين عرض الحائط بملكهم نمر واتفاقاته، بدا الأمر كما لو أن ثورة في بلاد السودان تندلع ضد إرادة محمد علي.

تواترت هذه الأنباء إلى إسماعيل فغضبَ بشدة واستفتى رجاله الذين أشاروا عليه بضرورة العودة لشندي تأديبًا لأهلها حتى لا تكون فتنة في السودان كله وحينها قد يصعب الرتق على الراتق، تحرك ابن الباشا بجيشه عائدًا إلى شندي فدخلها ليلًا وهو يدق الطبول للترهيب والوعيد، ومع أول شعاع للشمس بعث في طلب الملك نمر، وبالفعل حضر الملك وبصحبته أحد كبار رجاله، دخل الاثنان خيمة إسماعيل أثناء تدخينه الغليون وسط قادة جنده، ألقيا عليه السلام فلم يرد التحية أو يسمح لهما بالجلوس، اقتصر حديث إسماعيل نحو نمر على أوامر محددة، وكان متجهمًا وكلامه مقتضبًا:

fb/mashro3pdf

- سنزيد من حصة شندي في دفع الضرائب، ستتضاعف أعداد العبيد المطلوبين منك وستدفع ديات من قُتِلوا من عسكرنا بتلك الأحداث، وإن وجدت نفسك عاجزًا عن حكم شندي، نخلعك ونريحك منها ونأتي بمن يحكمها، وإن تكرر شيءٌ كهذا مَرَّة أخرى سأبعث برأسك إلى الباشا في القلعة.

بعدها قام إسماعيل من مجلسه، وعلى مرأى ومسمع من الجميع اقترب من الملك نمر ونفث بوجهه الدخان ثم قال له على نحوٍ مهين:

- وقبل كل هذا ستُقدم امرأتك هند كي تؤنسني في فراشي.

قالها وهو ينقر بغليونه على وجه الملك نمر وسط دهشة رجال إسماعيل الذين شعروا بأن هذا الأهوج يورطهم، فهم لم يأتوا من أجل نزاع على امرأة، والأمر حين يتعلق بالنساء والشرف فإنه قد يفضي في شندي لمزيد من التعقيد، هذا بالوقت الذي لم تستتب فيه الأوضاع بسنار، وما حسبوه كان صحيحًا، اضطرب وجه نمر بعدما شعر بانتهاك عِرض نسائه على الملأ!! وهمَّ بالرد لكن صاحبه قبض على يده، ثم وجَّه حديثه إلى إسماعيل:

- هند مجرد امرأة وكلنا خُدامك وخُدام الباشا ولي النعم.

ثم انصرفا من الخيمة، ليصبح الملك نمر حينها على يقين بأن ما وقع في رحم هند لم يكن من صلبه!!

وفي المساء اجتمع نمر برجاله الأقربين من أجل الشورى، واتفقوا على إبلاغ إسماعيل بالانصياع لكل مطالبه والاعتذار عما بدرَ من جرذان شندي أو صعاليك قراها، واستقروا على دعوته للعشاء تكريمًا لقدومه من جديد، وفي الصباح اعتلى نمر فرسه قاصدًا معسكر إسماعيل، وبوجه بشوش أبلغه اعتذاره الشخصي وأسف صفوة شندي

fb/mashro3pdf

ودعاه بحرارة لمأدبة كبيرة هو ومن يصاحبه تصفية للنفوس التي عكر صفوها بلا ذنب، ثم أبلغه بعزمه تقديم اثنتين من أجمل بنات شندي كجاريتين مع هند التي راقت له.

عند الغروب فاحت روائح البخور ونكهات الشواء بمزرعة ملك شندي تأهبًا لاستقبال الضيوف، ولما اقتربت السماء من تمام السواد بدت من بعيد خيول إسماعيل وقادته وأعداد من العسكر في مشهد انتظره نمر ورجاله بشغف على عتبات المزرعة، ولم يمر وقت طويل عقب حفاوة الاستقبال حتى انتشر الجميع في المكان، وانفكت ملامح الرجال على وقع نسمات المساء، دارت الرؤوس بالشراب والأرواح بالغناء وتعالى قرع الدفوف وتمايلت الراقصات الخليعات، ذابت الرواسب التي استقرت في القلوب وعمت البهجة في الأرجاء، دمعت عينا إسماعيل من الضحك وهو يستمع لبعض النكات الفاحشة من الملك نمر ولم يدرك أن الأجواء كلها من حوله كانت مُفعمة بحلاوة الأرواح!!

وسط كل هذا المرح قام نمر بدعوة ضيفه إلى الطعام بالخيمة الخاصة التي أعدها له ولرجاله، داخلها كانت هند بنفسها تشرف على تنسيق مأدبة إسماعيل كما حدث بأول لقاء، وأمام اللحوم المشوية والطيور المحشية والأرز المفروش جلس الجميع لتناول الطعام بشهية مفتوحة وبهجة متصاعدة، وقبل أن ينتهوا من الأكل خرج نمر من الخيمة مُصطنعًا الحديث لأحد رجاله ثم غاب، انشغل ابن الباشا بهند ولم يأبه كثيرًا لخروج الملك ورجاله الذين تسللوا بخفة تباعًا، بَشَّر إسماعيل هند بأنها قد صارت بدءًا من الليلة ملكًا له بأمر منه إلى نمر، حينها فقط أيقنت هند أن شيئًا ما يُدبَّر فتغيَّر وجهها مأخوذة مما سمعت،

fb/mashro3pdf

أمرٌ كهذا يخص عِرض الملك وحريمه من المستحيل أن يمر بهذا الرضا المهين!! همت هند بالقيام والخروج لكن القدر لم يمهلها، كان رجال الملك قد استكملوا نشر القش والحطب حول المكان وفقًا لما خُططوه، ثم شبت النيران ولفت الخيمة بأسرها، واحترق جميع من فيها!!

اهتزت جدران القلعة في القاهرة واحترق قلب محمد علي لخبر حرق ابنه إسماعيل حيًّا!! بعدها تم إسناد قيادة الحملة على السودان إلى محمد بك الدفتردار زوج نازلي بنت الباشا، والذي كان يقود جيشًا آخر لمحمد عليّ في كردفان، تعمد الدفتردار السبي الجماعي والقتل الوحشي بدون تمييز ثأرًا للمحروق وتأديبًا لشندي وجعل مصيرها عبرة لبلاد السودان، أما الملك نمر وأسرته ورجاله فقد لاذوا بالفرار نحو الجنوب تاركين الأبرياء وحدهم يدفعون ثمن شهوات إسماعيل وخيانة هند وانتقام نمر!!

من أجل كل هؤلاء الحقراء يا سليمة نحن وكلُ أهل شندي الآن في القيود وعلى ظهور المراكب بطريقنا لمعسكرات الذُل وأسواق العبيد!! هل عرفتِ الآن لمَ يحدث فينا كل هذا!!

وعقب أن انتهى سر الخاتم من حكيه المرير فوجئت به ينهض بقيوده فوق المركب هاتفًا بجنونٍ في وجوه كل العسكر الموجودين:

- سُحقًا للباشا وكل كلاب الباشا، ما ذنب أمي وأخواتي!! ما ذنبنا جميعًا!! التاريخ لن يرحمكم، وسوف تُساقون إلى مزابله، وستُكتَب سِيَرَكم في أدنس صفحاته يا هُتاك الأعراض..

وقبل أن ينتهي من ثورته غير المتوقعة، كان ثلاثة من العسكر قد قدموا من بين لحمنا المكدَّس وانهالوا عليه ضربًا ثم أخذوه من سطح المركب إلى إحدى القمرات بالأسفل، سمعت أحدهم يقول

fb/mashro3pdf

وهـو يضحـك بشـيطانية بالغـة مُعلقًـا عـلى جرجـرة سر الخاتـم نحو قمـرة المركـب:

- صبي بائس، في أسيوط سيتمنى أن تُنكح أمه وأخواته أمام عينيه كل صباح ولا يعاود التفوه بها قال!! الزيت المغلي سيكون شديد الألم على جراحه هناك!!

وبالفعل وصلنا إلى أسوان وتم إخلاء المركب من الذكور لتجنيدهم بالمعسكرات هناك، إلا حفنة باقية من الصبية ومن بينهم سر الخاتم، تم إرجاء نزولهم لحين الوصول إلى مدينة بصعيد مصر اسمها أسيوط، والمدهش أن من عاين هؤلاء الصبية وتسلمهم من العسكر هناك، كانوا مجموعة متجهمة من أصحاب اللحى الكثيفة وبدا من ثيابهم السوداء أنهم من كهنة النصارى، كان السؤال الحائر بذهني: ماذا سيفعل هؤلاء الكهنة بصِبية شندي؟!

هذا عن الذكور أما الإناث وأنا منهم، فقد وصلنا للقاهرة وحطت بنا المركب عند منطقة يدعونها بولاق، تكالب علينا النخاسون واشترونا كلحم طازجٍ قادمٍ للتوّ من بلاد السودان، كنت من نصيب جميل النخاس الّذي وضَعَني داخل قفصٍ خشبيّ ثم سارَ بي من طريق ساحل الغلال نحو قلب القاهرة، الجارية أبدًا لا تنسى نخاسها، خمسيني أقرب للنحافة بقسمات أقرب للموت، حين هشني بعصاه مع غيري كان يرتدي جلبابًا زُبدي اللون مفتوحًا على شعر صدره، أما لحيته الصغيرة فقد استطالت مثل عجائز الجديان، طاقيته الطويلة التي تغطي ما انحسر من شعر رأسه أضفت عليه مزيدًا من نكهات تجّار الأرواح، في البداية حرص جميل على نومنا بشكل جيد فضلًا عن إطعامنا أجود الخضروات والفواكه حتى يُذهب عنا شقاء الرحلة

fb/mashro3pdf

القاسية فيتدفق الدم إلى عروقنا من جديد، لا لإنسانية منه، بل كنا كبهائم الأنعام نُعلف تمهيدًا لبيعنا في الأسواق بأعلى ثمن ممكن، وقبيل عرضنا مع غيرنا من بضائع النخاسين، عهد بي جميل مع أخريات إلى أحد الحمامات لشطفنا وإعادة بريق أجسادنا قبل اقتيادنا لساحات البيع، لن أنسى هذا اليوم الأسود!!

قبل أن نُساق إلى هناك أمرني جميل مثل غيري باستبدال هدمتي الرثة بغلالة رقيقة من الكتان الفاضح!! كتان أعطاني إياه لأرتديه فوق اللحم مباشرة!! غلالة تُسفر أكثر مما تستر، أشبه بكفنٍ للعاهرات!! نُقلنا بعدها داخل أقفاص خشبية تجرها الحمير باتجاه ساحة مكشوفة مستطيلة، محاطة من كل جوانبها ببناء بديع من خمسة طوابق يسمونه وكالة الغوري، وسط الساحة وقفت مع غيري بعد أن رصنا جميل، نادى النخاس على الناس ليتحدث إليهم عنا، عدَّد جميل محاسن من كن بجواري ولأنه كان يدرك ختاني الفرعوني فلم يتحدث لأحدٍ عنّي إلا بكوني أصلح خادمة جيدة ونظيفة!! تمنيت الموت ألف مَرَّة، أُصِبتُ بالصدمة والاشمئزاز من طريقة تفحصهم لأجساد الأخريات على هذا النحو الفاحش!! ومما يدور أدركت أن ذكور المحروسة لا يميلون للنحيفات صغيرات الصدر، يبحثون عن الملفوفة ذات الصدر الممتلئ، وعلى كل حال، من حُسن حظ الجارية أن يشتريها من يُفتن بها لأنها قد تصبح حينها تاجًا لرأسه، أي احتمال غير هذا لن يعني سوى أنها ستظل خرقة مُهانة إلى الأبد!!

اللحظة الأسود في حياتي، كانت تلك التي اقترب منّي فيها رجل عابر يبحث عن خادمة لزوجته، سُرَّ جميل لذلك وبحرفية نخاس ودم بارد شلح عنّي وبنفضة واحدة غلالة الكتان!! أصبحت عارية كما

fb/mashro3pdf

ولدتني أمي وسط الوكالة!! تسارعت نبضات قلبي والرجل يحملق في جسدي، تحسس رقبتي بأصابعه، ثم هبط بيده لاختبار صدري وفرك حلمتي لتفحُّصها!! كانت المرَّة الأولى التي يُمس فيها نهدي الصغير ويُختبَر، كدت أسقط غائبة عن الوعي لكن الكرباج كان بيد النخاس، أما الزبون المنتظر فقد تغيَّر وجهه فجأة ثم تأفف وانصرف بعدما عافت نفسه عن جسدي لما هبط بيده إلى موضع عفتي بالأسفل فوجده مخيطًا على هذا النحو، فعل كل هذا رغم كونه يبحث عن خادمة لزوجته!! في هذا اليوم أدركت أن داخل كل رجل توقًا كامنًا لخادمة يقوم إليها مُتسحبًا في عمق المساء!!

وفي نهاية اليوم دخلت الوكالة سيدة مبرقعة بدا عليها طول القامة، اشترتني دون أن تتفحص عريي بإتقان مثل من سبقها، فقط أطلت عليَّ بنظرات عابرة ثم اتخذت قرارها ودفعت دون جدلٍ طويلٍ مع جميل الذي أسرع بكتابة صكّ عبوديتي فرِحًا بالمال، ومنذ تلك اللحظة بدأت حياتي مع المعلِّمة روحية التي أخذتني إلى بيتها وأسكنتني الحرملك وعاملتني بما يرضي الله، ثم علمتني شغل الحمامية وصرت من أفضل بناتها فيه، حتى جاء اليوم الذي طلبتني فيه كلارا، فتنازلت عنّي روحية بكل سهولة!! كان هذا غامضًا جدًّا!! كلارا لم تكن مجرد زبونة، هي أيضًا صديقة مُقرَّبة للمعلمة، ولم نكن في الحمَّام نعرف ما الذي يمكن أن يجمع بين كلارا الفرنسية وروحية بنت الجمالية!!

على أية حال يا كلوت، أنا لست الأولى التي تشتريها كلارا من روحية، وحتمًا لن أكون الأخيرة، لكن ما أنا متأكدة منه هو أن القدر بدءًا من شندي هناك وصولًا إلى المحروسة هنا، كان قد لعب بكل

fb/mashro3pdf

أوراقه كي ارتطم بصدرك وأنا عارية أفرّ من الدرب الأصفر في عمق المساء!! ولكن قل لي متى تكومت في حضنك هكذا؟!

- حينما كنت تقصين عليَّ وجعك، ارتجف جسدك وانسلت دموعك، لا أذكر في أي صفحة من صفحات حكيك ضممتك إلى حضني، لكن ما أذكره أنك لم تقاومي، بل شعرتِ بالأمان وتدفقتِ أكثر في دوامات البوح.

اعتراني الخجل، كانت المرَّة الأولى التي أسكن فيها حضن رجل، تقنفذ جسدي تلقائيًّا، حاولت الابتعاد قليلًا وأنا شاردة في زُرقة عينيه، حاولت الفرار بعينيَّ إلى الأسفل فصادفت شاربه الأشقر، بارتباك قررت التنحي بوجهي إلى سواد الليل من خلف المشربية، أعادني كلوت بأنامله، وبرقة بالغة تحسس ملامحي وكأنه يتفحص تحفة أخرجها للتو من صندوق كنز قديم جاء للتوّ من الجنوب، نظر في عينيَ مباشرة واقترب، أغمضت جفنيّ، لم أعد أدري ماذا أفعل، كنت أريده هو أن يفعل!! منحني كلوت القُبلة التي لم أدرِ كم من الزمن قد طالت!! القُبلة الأولى التي لم أتعلمها من قبل لكنني مارستها في تلك اللحظة بفطرة الأنثى وبجوع بات لسنوات وحيدًا في جوفي ولم أدرِ بشأنه إلا حينها!! حتى إنه قال لي بعدما أرقنا كثيرًا من خمور الشوق على شفاهنا:

- وكأنك خُلقتِ فقط من أجل تلك القُبلة يا سليمة!!

أطلق الفرنسي مارد عطشي من قمقم جسدي، ارتفاع أذان الفجر من فوق مئذنة مسجد الأقمر في الجوار لم يحل دون أن أقترب أنا منه هذه المَرَّة بانصهار، لافتراس القُبلة الثانية، لكن الطرقات على الباب كانت أسبق!!

fb/mashro3pdf

قام كلوت بحذرٍ وارتياب ليرى من الطارق، أخبرني أنه منذ وفدَ إلى المحروسة ولم يطرق أحدٌ بابه في مثل هذا التوقيت، فتحَ الباب ليجد أحد ضباط شرطة فرض النظام، ومن خلفه كلارا وبعض العسكر، وقبل أن ينطق الضابط بكلمة واحدة صاحت كلارا مشيرة بيدها إلى الداخل:

- هذه هي سليمة هناك.

أشار لها الضابط بالهدوء مُتحدثًا:

- مسيو كلوت، هل هذه هي الجارية المدعوة سليمة؟؟

ردَّ كلوت بالإيجاب فأردف الضابط:

- جارتك كلارا المالكة لصكها تتهمها بالسرقة والهرب، وتتهمك بالتستر عليها وإيوائها والاستيلاء عليها دون وَجه حق.

- سليمة لم تسرق وأنا لم أستولِ عليها، هي ضيفة عندي، فقط هناك سوء فَهم وخلاف عابر سيتم تسويته مع مدموازيل كلارا.

- الآن مطلوب القبض على الجارية.

- وأنا بصفتي طبيب جيش محمد علي باشا أطلب منك الانتظار فقط حتى الصباح.

صُدِمتُ من حقيقة صفة كلوت!! هل من كان يعتصر شفتي منذ قليل هو حقًا طبيب جيش الباشا!! ردَّ الضابط بتلقائية:

- عذرًا سيدي، أنا أقوم بواجبي وجارتك الفرنسية هي من جاءت إلينا في هذا التوقيت وأبلغت، الأمر تعقّد الآن، يمكنكما تسوية ما بينكما بشكل ودي كفرنسيين، أما الجارية فيجب أن تأتي معنا الآن دون صخب فهي بالنسبة إلينا مجرد لصة هاربة.

خرجتُ من الدرب الأصفر مُقيَّدة اليدين في رفقة الشرطة، صعدوا

fb/mashro3pdf

بي إلى قفصٍ خشبيّ فوق عربة يجرها حصانٌ بائسٌ، هدهدة العربة فوق البلاط المقبب لطريق المعز أغرى الحارس الذي كان معي في الداخل بالنعاس العابر فتعالى شخيره، تأملت وجهه العابس وشعرت أنه لا يقل عنّي بؤسًا، أنا جارية لكلارا وهو عبدٌ مُسخَّر لضابطه، تختلف الأمكنة ومرارة العبودية واحدة!! بدأت ملامح الحارس تنفك من عبوسها على مهلٍ حتى أن طيفًا باسمًا مرق فوق قسماته!! غريب حال الناس في المحروسة، يشخّرون بلا إرادة وهم غرقى في أحلامهم من فرط الرضا، وفي يقظتهم يشخرون عمدًا من فرط السخط ثم يستغفرون الله لاعتقادهم أن الشخر ينقض الوضوء ويبطل الصلاة، لقد استعان أهل مصر على شقاء الدنيا بالصبر والصلاة والشخر معًا!!

ومع الزُرقة الأولى القاتمة للسماء توقف الحصان أمام بناء مُصفر اللون، وقف على بوابته اثنان من العسكر يعلوهما مصباحان من بقايا المساء، فتح الضابط القفص الخشبي وصفع الحارس الذي كفَّ عن شخيره، استيقظَ واستمعت أذناه إلى صفات أمه المشينة والتي عددها له ضابطه!! سحبني الحارس من قيدي وعبرَ بي ممرًا رطبًا ثم ألقاني بزنزانة مع شقيات أخريات، وعقب رنين المزلاج الحديدي وغلق القفل، أسندت رأسي إلى الجدار محدِقة في هؤلاء النسوة النائمات من حولي، منهن من سرقَتْ ومن اعتدت ومن فتحت ساقيها بدون ترخيص، لم أتعجب من هذا اليوم البائس لأني قد اعتدت الشقاء منذ زمن، فقط شردت بعينيّ في سقف المحبس تحسُّرًا على تقلُّب الأحوال، منذ أقل من ساعة كنت بحضن آمن، أتعرف فيه على مذاق شفتيّ هذا الشهم الفرنسي الدافئ، والآن صرت مُلقاة في زنزانة!! أكان مصيري في حاجة لمزيد من هذا السواد!! غامت الدنيا من حولي وتكورت في نوم

fb/mashro3pdf

مُعذب، لم أدر بشيء إلا وإحداهن تلكزني في كتفي لإيقاظي، وعلى باب الزنزانة وقف حارس يصيح:

- اصحي يا جارية، الله يخرب بيت أمك، فزي يا بنت الزانية من مطرحك.

قام الضابط بفك قيدي وفي عربة يجرها حصان أجلسَنْي إلى جواره، لم ينطق بكلمة واحدة طوال الطريق وكذلك لم أفعل أنا، بدا أن شيئًا ما قد تغيَّر ولم أعد في نظره تلك اللصة الهاربة، لكن الغموض كان سيد الأجواء، أما الحوذي الذي سار بنا في محاذاة النيل بناءً على وصف الضابط، فقد توقف بنا أمام بناء أبيض أنيق تعتليه سارية تُرفرف عليها راية بألوان جميلة، صعدنا السلالم الرخامية البيضاء نحو بهو المبنى، ولم يُسمَح لنا بالعبور إلا بعدما عرف الحراس السبب الذي جئنا من أجله، كل ما فهمته هو أن الـمسيو قد طلب الجارية على وجه السرعة عقب رسالة لقائد الشرطة نفسه!! ولكن مَن هذا المسيو الذي طلبني على وجه السرعة؟!

عبر ممر مفروش بسجاد أحمر وعلى جانبيه زروع صغيرة دخلنا حجرة كبيرة يتوسطها مكتب ضخم جلس عليه رجل أشقر ذو هيبة ومن خلفه ذات الراية الملونة التي تعلو سطح البناء من الخارج، وعلى الجدار بالوراء خارطة كبيرة للعالم الذي تمّ اكتشاف جميع أرجائه ولا أحد على وجه اليقين يعلم إن كانت هناك أنحاء أخرى لم تُكتشَف بَعد أم لا، على الكرسيين أمام المكتب كانت المفاجأة، جلس كلوت في مواجهة كلارا، يبدو أن الأمر كان أكبر مما أتصور!! جوار الرجل الجالس ذي الهيبة وقف شاب آخر وبدا عليه أنه من موظفي المكان، حمَلَ بيده ورقة وقعت عليها كلارا أولًا وبدا أنها تُوقِع صاغرة، ثم جاء

fb/mashro3pdf

الدور على كلوت الذي ظهرت عليه علامات الارتياح، أما الموظف الذي دار عليهما بتلك الورقة فقد اقترب من الضابط وأخبره بأن كل شيء قد انتهى وصار على ما يرام، أدركت مما يدور حولي أن ما تم توقيعه كان صك انتقال عبوديتي من كلارا إلى كلوت ممهورًا بتوقيع الاثنين وبشهادة الرجل الأشقر ذي الهيبة، عرفت من كلوت فيما بعد أن هذا الرجل المهيب هو القنصل الفرنسي، لم أكن أتصور أنه إلى هذا الحد قد تم تدويل جسدي الصغير!!

بعد الخروج سرت صامتة في ارتياحٍ إلى جوار سيدي الجديد، وبمحاذاة النيل المتهادي عصرًا نحو مزيدٍ من الشمال، شردت في المياه الرائقة والتي حتمًا قد مرت على شندي وصخرتي الكبيرة قبل المجيء إلى هنا، قطع كلوت صمتي بسؤاله:

- فيم شرودك؟! هل أنتِ حزينة لأنك صرت في رفقتي؟!

- أنا مَدينة لك ما حييت، لكن النهر ذكّرني بأهلي.

- أنا أيضًا كذلك!!

- كيف؟!

- نسمات الأنهار دائمًا ما تدفع بشراع ذاكرة الإنسان إلى الوراء!! هذا النيل الهادئ استدعى تلقائيًّا من داخلي أشجان نهر إيزير!!

أبطأتُ في حركتي أكثر والتفتُّ إليه في استفهام فاستطرد:

- نهر إيزير الذي يمرّ في جرونوبل بفرنسا، كنت من ضفته الأفقر.

في حياة كل رجل خزانة أسرار على هيئة أنثى!! بفطرتي شعرتُ أنه بحاجة إلى الحكي واعتزمت أن أكون مستودعًا لحكاياته، أمسكت بيديه قائلة:

- فضفض لي، شاركني همومك.

fb/mashro3pdf

دعاني لركوب مركب شراعي كان راقدًا على ضفة النهر ثم أمرَ المراكبي بالتحرك، بعدها انطلق في البوح:

- لستِ وحدكِ من دفعتِ ثمن طموح الباشا وتكوين جيشه، في سبيل الجيوش دائمًا ما يدفع الفقراء الثمن، يذكر التاريخ خبر النصر العسكري أما البشر وقود المحارق فتذهب حكاياتهم إلى مزابل التاريخ!!

- وهل كنت من الفقراء؟!

- لا يخدعك مظهري الآن يا سليمة، أبي وأمي تمامًا مثل حسن وزينب، بعد أن بلغت الثامنة من عمري، دخل علينا أبي ذات صباح عائدًا من معركة مارنجو الشهيرة بإيطاليا، كان متكئًا على عكازه، إصابته البالغة في قدمه أنهت تمامًا مستقبل أسرتنا!! وكُلّ هذا لماذا؟! لأن المجنون نابليون بعد تدمير أسطوله على يد الإنجليزي نيلسون في أبي قير بالإسكندرية ثم عجزه المرير أمام أسوار عكا، كان كالأسد الجريح!! جُرِحَت كرامته العسكرية أمام العالم، ضاعف عُمق الجرح الأنباء التي بدأت تصل عن تقهقر قواته بإيطاليا، فما كان منه إلا أن عاد مسرعًا إلى باريس لإنقاذ ما يمكن إنقاذه تاركًا حملته في مصر تواجه مصيرها، ليعدّ إمدادًا جديدًا يتوجه به إلى إيطاليا لإحراز نصر هناك بأي ثمن، كُتب التاريخ حتمًا لن تذكر أن ساق أبي وسمعة أمي كانتا ثمنًا لهذا النصر في مارنجو!!

- سُمعة أمك!!

- لم تفلح محاولات علاج ساق أبي الذي صار ملازمًا للفراش، ورغم أن الرصاصة التي أصابت ساقه استخرجت في حينها إلا أن

fb/mashro3pdf

الحمى بلا سبب معروف تضاعفت عليه مثلما تضاعف علينا الفقر، ولم يتبق أمامنا لعلاجه سوى الرحيل لبلدة برينيول حتى نكون هناك إلى جوار اسبتالية الصدقة ومديرها الدكتور سابيه، الذي سبق وأن زامل أبي في الجيش بإيطاليا، وفي برينيول كنا مجرد غرباء وحتى نتمكن من استئجار غرفة تأوينا تخلّت أمي عن خاتمها الصغير وباعته بعدما احتفظت به لسنوات كي تتزين بجوار زوجها المحارب في جيش الثورة الفرنسية، وحتى تكتمل فصول المأساة، ومثلما تخلت أمي عن خاتمها، اضطر أبي في نهاية المطاف للتخلي عن ساقه من أسفل الفخذ بالبتر!!

أشفق الدكتور سابيه علينا وجعلني أعاونه في الاسبتالية كسبًا للرزق وهناك اكتشفتُ داخلي رغبةً لتعلُّم الطب وشغفًا لإتقان الجراحة وقد أبديتُ في هذا نبوغًا مبكرًا ففتح لي سابيه مكتبته وشجّعني، أما أمي فقد أصبحت عند كل غروب تقف أمام المرآة المكسورة لتستدير أكثر وتضيق ملابسها ويتلوّن وجهها، أصبحت نادلة في خمارة وصار الزبائن يطلبونها بالاسم لتفتح لهم!! اكتسبت أمي لقمة عيشنا بحرفية تسكعها بين موائد السكارى!! قلبي كان يقول لي إنها لم تبع نفسها مثل خاتمها لكن عقلي كان يجزم بأن الأمر حتمًا لم يخلُ من تنازلات كثيرة!! كُتب التاريخ لن تدوِّن أنه من أجل مجد فرنسا استحالت أمي إلى امرأة تنفق على بقايا شرفنا من بقايا شرفها!!

ظلَّ أبي لأعوام قعيدًا بشرفه العسكري وحسرته بلا حراك أو عمل، يعاني من وطأة العجز ومهانة الفقر ومرارة الوحدة، أتركه وحيدًا بالصباح وتتركه أمي مع حلول المساء، أنام بطول الليل وتنام أمي بعرض النهار، أما هو فيبقى كالصنم جالسًا إلى جوار عكازه

fb/mashro3pdf

يراقبنا في شرودٍ، وذات يوم قُرب الفجر سمعت دوران المفتاح بالباب، عادت أمي من الخمارة بينما كان أبي جامدًا على كرسيه، لم ينطق سوى بجملة واحدة قصيرة:

- صار اسمك قاسمًا مشتركًا بين اعترافات مُذنبي الكنيسة!!

ضربته بعدها أزمة قلبية على الفور ثم مات، اسودت الدنيا بوجهي وصممت على السفر وحيدًا نحو اسبتالية مارسيليا سعيًا وراء مزيد من العِلم، هكذا قلت لأمي ولم أصارحها بأني وددت الرحيل عن هواجس عارها، خرجتُ من برينيول بصُرّة أغراضي في يدي وأعوام لم تتجاوز التسعة عشر، الفاجعة كانت في رفض اسبتالية مارسيليا قبولي للتلمذ بها نظرًا للملابس الفقراء التي على جسدي!! ولأن فرنكاتي القليلة شارفت على الرحيل، لذا لم يكن أمامي سوى العمل كصبي عند أحد الحلّاقين حتى أظل على قيد الحياة!!

- حلّاق!!

- نعم يا سليمة لا تندهشي، كنت مجرد صبي حلاق، وخلال شهور قليلة أتقنت قصّات الشّعر المختلفة وحف وتنميق الشوارب واللحى، ادخرت أغلب ما حصلت عليه من أجرٍ يومي فضلًا عن بقشيش الزبائن الميسورين، ثم وصلني خبر وفاة أمي عبر قادم من برينيول وأنها قد دُفنت إلى جوار أبي بمقابر الصدقة، يوم الحساب حتمًا سيفصل الله بين بونابرت وأبي وأمي وكل زبائنها!!

وحين تحسنت ملابسي قليلًا وتقدمت من جديد لاسبتالية مارسيليا، تم قبولي هذه المرة كتلميذ بها مع منحي عملًا إداريًا أتكسّب منه بدلًا من الحلاقة، وبنهم أقبلت على دراسة الطب وفن الجراحة وعقب سنوات تمت إجازتي كطبيب، ثم شاء القدر أن أجري جراحة صغيرة

fb/mashro3pdf

لتاجر فرنسي اسمه تورنو، كان من معارف محمد علي في مارسيليا، وكان الباشا قد سبق وأوصاه بترشيح طبيب فرنسي شاب لضبط الشئون الصحية لجيش مصر الجديد ففاتحني بالأمر بعدما استراح لي، وافقت عقب تفكير وتردُّد، واشترط أن أحتفظ بديانتي المسيحية وألا أُجبَر على السير مع جيش الباشا في الحروب، ثم سارت بي الأقدار كي أقابلك هنا في الدرب الأصفر يا سليمة!!

- شكرًا لنابليون ومحمد علي وكل الظالمين الذين جعلوني هنا إلى جوارك على مركب ساعة الغروب!!

عاد بنا المراكبي إلى مرساه، ثم استوقف لنا كلوت عربة، واشترط الحوذي إنزالنا بمنطقة باب الشعرية نظرًا لتأخُّر الوقت، وحينما بدأ الحصان في التبختر أخرج كلوت من سترته سلسلة فضية تدلى منها شكل صغير، أخبرني أنه الحرف S وهو أول حروف سليمة بالفرنسية، ربط السلسلة بأنامله من خلف رقبتي التي كادت تذوب من فرط إحساسه!! اقتربت منه حتى انزويت بحضنه، ولما تسلل دفئه لي وجدت نفسي أبوح له بتفاصيل ليلة ختاني البعيدة في شندي، لا أدري لِمَ حكيت له عنها بكل تفصيل وكأني أُودع حملًا أخيرًا من فوق ظهري داخل صدرِه الآمن!!

زحف المساء علينا كاملًا، وعند باب الشعرية توقَّف بنا الحوذي كما اشترط، هبطنا من العربة لنستكمل ما تبقى سيرًا على الأقدام، وكان لدى الحوذي بالعربة مصباحٌ إضافيٌّ اشتراه منه كلوت بثلاثة أضعاف ثمنه تحسُّبًا لعسس الشرطة، قواعد الطرقات كانت تقضي بالقبض على كل من يسير ليلًا بلا مصباح ولم نكن بحاجة لمزيد من الأزمات، على أية حال وعقب نزولنا من العربة انحرفنا يمينًا بمحاذاة السور القديم

fb/mashro3pdf

للقاهرة في اتجاه بوابة الفتوح، ولحُسن حظنا فإن ما تحسَّبنا له وجدناه، انشقت الأرض عن أحد العسس وقد صاح نحونا بصوت جهير:

- كيم دورو؟؟

- ابن البلد.

- وحِّد الله.

- لا إله إلا الله.

عبارة «كيم دورو» كانت استفهاما تركيًا معتادًا عليه بين الناس والشرطة ويعني بالعربية، مَن هناك؟؟ كان تلك الأسئلة بإجاباتها من الطقوس المرعية في الطرقات عند حلول ظلام القاهرة، والمسيحيون كانوا كالمسلمين ملزمين بنطق الشهادة على هذا النحو في إجابة السؤال الأخير وإلا قد يحدث ما لا يُحمَد عقباه، وبعد الإجابة تُركنا لنعبر بوابة الفتوح، وفي طريق المعز وعدني كلوت أن يقص عليَّ حكاية كلارا وعلاقتها بالمعلّمة روحية، أبدًا لم أتوقع أن تكون كلارا الفرنسية ابنة لنداهة من العالم السفلي!!

***

fb/mashro3pdf

حسام

- أنا متأكدة أنك لست نائمًا.

هكذا اقتربت شوشو وهمست من وراء الباب. من جديد وعن دون قصد تمارس أختي دورها المُفضل في طردي من عالم سليمة لتعيدني نحو كل ما أحاول الفرار بعيدًا عنه هذا اليوم!! لم أرد عليها لكنها استطردت:

- بالمناسبة، فيلم «صغيرة على الحب» سيبدأ الآن، أنت تحبه.

يبدو أن شيماء تريد الإجهاز عليّ تمامًا!! هذا الفيلم تكفي مُقدمته فقط للإلقاء بي في عين إعصار الواقع!! ثم قامت بتعلية صوت أغنية بدايته الشهيرة لتبرهن على ما تقول!!

«كله ثقافة وعلوم وفنون، بيسلّي تمام زي السيما، التليفزيون .. التليفزيون ..»

****

في العطلة الصيفية للسنة الثالثة التحقَتْ عبير كمتدربة بمجلة اللوتس، أما أنا وعقب التحاقي بقسم الإذاعة والتليفزيون فقد حصلت على خطاب من الكلية للتدريب بالتليفزيون المصري لمدة أسبوعين، بالكاد كنت أبحث عن ربع فرصة للعبور من أمام هذا

fb/mashro3pdf

المبنى الشهير باسم ماسبيرو، لم أنم يومها من الفرحة وفي الثامنة والنصف صباحًا ارتديت أفضل ملابسي ومن محطة غمرة ركبت المترو نحو محطة السادات، عبرت ميداني التحرير وعبد المنعم رياض ومن جوار فندق هيلتون رمسيس انحرفت يمينًا إلى شارع ساحل الغلال باتجاه مبنى التليفزيون، حتى وصلت لعتبات الباب الساحر الكبير والذي يحمل الرقم (٤).

تأكد أفراد الأمن من بطاقتي الشخصية ووجود تصريح باسمي ثم سمحوا لي بالمرور إلى هذا العالم الذي كثيرًا ما تمنيت الدخول إليه، الموظفون بالداخل كانوا كالنمل يتحركون في كل اتجاه دون أن يصطدم أحدٌ منهم بالآخر أو يتحدث، يصطفّون في صفوفٍ طويلة جدًا انتظارًا للمصاعد بلا ضجر أو ملل أو أي نوع من أنواع الشعور الإنساني المتعارف عليه منذ هبط آدم إلى الأرض، فقط تفوح من بينهم روائح أقراص الطعمية وأكياس الفول وأرغفة العيش، وعقب خروجهم من المصاعد يسيرون في ممرات طويلة باهتة تفضي بهم في النهاية إلى مكاتب بُنّية كئيبة، يتناولون داخلها فطورهم صامتين كالموتى، وبذات الصمت يحتسون الشاي ويطالعون الجرائد في صبرٍ انتظارًا لموعد الخلاص!!

العابر إلى ماسبيرو من السهل عليه أن يدرك منذ اللحظة الأولى أنه في جوف منشأة أمنية أكثر منها فنية، كاميرات المراقبة تأتي من كل اتجاه لتُسجِّل على الكائن الحي كل سكناته وحركاته، أفراد الأمن ينتشرون بزِيّهم الخاص في كل الأدوار وكأن لكل موظف بالمبنى قرينه من ذوي القمصان الزرقاء، هذا عن الظاهر فوق أرضيات ماسبيرو وبين جدرانه، أما الباطن فيكمن تحت الأرض!! لن يخفى على أي مدقق ملاحظة أن الدور الأرضي للتليفزيون يوجد به أكثر من سلم يفضي

fb/mashro3pdf

إلى عالم سِريٍّ غامضٍ تحت القشرة التي يمشي عليها العاملون، طابق تحتيّ يخرج منه ويدخل إليه أفراد من الأمن لهم هيئة خاصة، يرتدون السواد الحالك ولا يختلطون بغيرهم وكأنهم يشكّلون أسفل ماسبيرو مجتمعًا خفاشيًا غير قابل للنور!!

ولما طال بي الوقت أثناء سيري داخل طرقات التليفزيون للتعرف عليه، شعرت بحاجة إلى دورة مياه، وجدتها بحالة تتلاءم مع الكثافة السكانية التي يعاني منها المبنى، أغلب مرايا الأحواض مشروخة أما المباول فقد سُدَّت وفاضت بما فيها على الأرض رغم ورقة التنبيهات المُلصَقَة والمكتوبة بخطٍّ عريضٍ: «نرجو عدم إلقاء أعقاب السجائر في المباول»، وبرغم أن ماسبيرو حينما شُيِّد في الماضي كان من بين أغراضه التعبير عن الرأي بحُريَّة، إلا أن هذا الغرض تحديدًا لم يتحقق فعليًّا إلا داخل الحمامات!! فالجالس في بيت الراحة سيكتشف أن كثيرًا من زائري المكان قد عبَّروا عن رأيهم بحُريَّة على الجدران تجاه أداء الرئيس أو سُمعة رئيس الحكومة أو إجرام وزير الداخلية أو حتى حماقات مديري الإدارات، أما النقاشات الساخنة المقتضبة على حيطان الحمَّام فتدور في أغلبها حول مذيعة كالصاروخ في فتنتها أو موظفة لعوب في أغلب إيحاءاتها، أحدهم كان قد عبَّر عن رغبته المتقدة تجاه مُضيفة حسناء بمطعم الدور السابع، وحُلمه بالقُرب منها في أوضاع مُبتكرة!! ويبدو أن موهوبًا آخر قد طالع تلك الجدارية المُشتعلة فتطوَّع على سبيل المشاركة الوجدانية برسم المُلهمة في عدد من تلك الأوضاع مع المبالغة في استدارة بعض أعضائها!! وأخيرًا وليس آخرًا ساهم أحدهم كفاعل خير في كتابة رقم هاتفها جوار الرَّسم!! وهكذا مُورِسَت حرية التعبير عن الرأي والرأي الآخر على حيطان مراحيض ماسبيرو، بدءًا من

fb/mashro3pdf

خيبة الأمل في أداء الرئيس وصولًا إلى آمال أخرى عريضة في جسد الزميلة!!

كل تلك المشاهد داهمتني كصدمة بصرية غير متوقعة في أول دخول لمبنى التليفزيون، وبدا أني قد أخطأت بالذهاب لماسبيرو في التاسعة صباحًا لمقابلة رئيسة القناة بخطاب التدريب، مدام سحر العزايزي لم تصل ماسبيرو قبل الثانية ظهرًا، علمت بقدومها عندما وجدت العاملين ينفضّون في عجلٍ من الممرّ المفضي إلى مكتبها حتى تتمكن هي من العبور، سحر ذات البشرة البرونزية والأشبه في ملامحها ببطلات أفلام البورنو التي صُوِّرَت سينمائيًّا في نهايات السبعينيات بدول شمال إسكندنافيا، كان حديثها في هاتفها المحمول بفخرٍ وزهوٍ يليقان بهذا الاختراع الجهنمي الذي وصل مصر مؤخرًا، لحظة عبورها تركت أثرًا ثقيلًا لعطرٍ فرنسي شهير لم أعرف اسمه في هذا الوقت، سقف طموحاتي بالعطور حينها كان متوقفًا عند زجاجة One Man Show المُقلَّدة والتي كنت أشتريها من محل لتركيب العطور بشارع الجيش مقابل عشرة جنيهات فقط لا غير، ثم أُغرّق نفسي بها.

انتظرت لساعة أخرى ولم أتمكن من مقابلتها إلا عقب انطفاء اللمبة الحمراء أعلى باب مكتبها، طرقت الباب ودخلت لكنها لم تشعر بي بسبب هاتفها المحمول، يا إلهي!! متى أمتلك هذا الكائن الخرافي الذي يتحدثون منه بدون أسلاك، ثمن هذه الأجهزة الحديثة وشرائحها كان باهظًا جدًّا ولم يحظَ بها إلا أصحاب المال والأعمال وأُسرهم، هل يمكن أن تأتي عليَّ ليلة أسهر فيها مع عبير لنتبادل الغرام عبر هذا النوع من الهواتف حتى مطلع الفجر؟! هكذا تساءلت أثناء وقوفي أمام سحر العزايزي التي انشغلت من جديدٍ بالأوراق أمامها، ضغطَتْ الجرس

fb/mashro3pdf

واستدعت السكرتير وخرج، ثم ضغطت ثانية فدخلت فتاة حسناء محجبة، من سياق حديثهما عرفت أنها مخرجة بالقناة، عنّفتها سحر العزايزي وقست عليها قبل أن تطردها من المكتب وتصفها بالزانية!! ثم انتبهت لي فجأة، نظرَتْ لي من أعلى إلى أسفل بتفحص على مهلٍ ثم سألت بتعجُب واندهاش:

- من أنت وماذا تفعل هنا؟!

- أنا حسام، مُتدرب من كلية الإعلام.

- منذ متى وأنت هنا يا ابني؟!

- أنا موجود من قبل دخول هذه التي وصفتِها حضرتك بالزانية.

هكذا أجبت بعفوية فانطلقت هي بضحكة على نحوٍ لا يليق بمركزها ثم دعتني إلى الجلوس، أخبرتني بأني سأتدرب كمساعد للإخراج لمدة أسبوعين مع تلك المخرجة التي أهانتها في شرفها قبل قليل، عرفت أن اسمها رانيا عز الدين، وذلك على أن تراني بعد تلك المدة حتى تُقيّم ما وصلتُ إليه، وقبل أن أغادر مكتبها نصحتني:

- نصيحة لوجه الله، طالما انتويت العمل في الإعلام، من المهم أن تتحلى بالذكاء الاجتماعي إلى جوار الكفاءة المهنية.

- إن شاء الله سأكون عند حُسن ظن حضرتك.

في حينها لم أفهم المقصود بهذا المصطلح الفضفاض الخاص بالذكاء الاجتماعي الذي نصحتني به!! لذا اكتفيت بالموافقة والتأمين على نصيحتها، حينما تكون أمام أي رئيس لك في مصر فأنت في حضرة إله من الآلهة ولا يسعك إلا الخشوع والإنصات، التصريح بالتدريب كان محددًا بأسبوعين فقط وكنت قد عزمت أمري على عدم الخروج بأي شكل من هذا المبنى فأنا لا أمتلك وساطة تعبر بي إليه مَرَّة أخرى، لذا

fb/mashro3pdf

تحتَّم عليَّ استغلال الفرصة جيدًا، وكنت على استعداد لفعل أي شيء من أجل البقاء.. بعض الفُرص من النادر أن تأتي في الحياة أكثر من مَرَّة!!

بدأت عجلتي داخل ماسبيرو في الدوران، تعلمت الكثير على يد رانيا عز الدين، عاملتني كأخٍ أصغر لها، عرَّفتني على الكاميرا وأنواع الشرائط واصطحبتني في استوديوهات التصوير ووحدات المونتاج فضلًا عن برامج التصوير الخارجي، وأكثر ما لاحظته هو التقارُب الذي جمعها بالمُعِدّ عماد الدرملّي والذي رافقها في أغلب الأوقات، خاصة وأن بينهما الكثير من العمل المشترك، بدا عليهما للجميع أن علاقة عاطفية تربطهما وأنهما على وشك خطوة رسمية، على أية حال مرَّ الأسبوعان سريعًا ولم أعلم كيف سأبقى في القناة، كل المؤشرات أفضت إلى خروجي من التليفزيون بعد هذا التدريب الصيفي العابر، كنت بحاجة إلى معجزة لا أعرف طبيعتها، لكنها تحققت!!

قبل نهاية فترة تدريبي بيومين، كلفتني المُخرجة بعمل تصريح خروج لعددٍ من الشرائط سنُصوِّر عليها احتفال السفير الفرنسي بعيد ثورة بلاده، كان من الضروري توقيع رئيسة القناة على التصريح قبل ختمه من قطاع أمن التليفزيون حتى لا يتم ضبطي على باب ماسبيرو بتهمة سرقة الشرائط أو تهريب المادة التي عليها، كانت عقارب الساعة تشير إلى حوالي السادسة من مساء الخميس، والتليفزيون في هذا التوقيت من الأسبوع كان أقرب إلى بيت للأشباح، دخلت مكتب رئيسة القناة ووجدت سكرتير مكتبها في التشهُّد الأول من الصلاة، بحماسة وقلة خبرة طرقت باب مدام سحر ثم فتحته على مهلٍ، وكان من غير الذكاء الاجتماعي ألا أنتبه إلى نور اللمبة الحمراء أعلى باب مكتبها!!

fb/mashro3pdf

هـذا المشـهد سـيبقى تاريخيًّـا في علاقتـي بالتليفزيـون المصـري العريـق!!

دخلـتُ المكتـب ولم يشـعرا بوجـودي، رئيسـة القنـاة سـحر العزايـزي انهالـت خصـلات شـعرها وهـي مغمضـة العينين ومستسـلمة برأسـها بـين كفـيّ المُعـد عـماد الدرملّي الـذي كان يُقبـل شـفتيها بنهـم بالـغ!! تنحنحتُ لكنهـما لم ينتبهـا إلا مـع انتهـاء قبلـة طويلـة بحثًـا عـن التقـاط الأنفـاس!! أفاقـت سـحر مـن الدوامـة وفتحـت عينيهـا فوجدتنـي ماثـلًا أمامهـا، شـهقت مـن المفاجـأة إلا أنهـا سرعـان مـا تماسـكت، اسـتدار عـماد وخـرج في صمـتٍ دون أن ينظـر بوجهـي، بعدهـا قالـت سـحر بـكل ثقـة وتبجـح:

- ألم تر نور اللمبة الحمراء يا حمار؟! ماذا تريد؟!

- التصريح يا مدام سحر.

قلتهـا وأنـا أمـد لهـا يـدي بالتصريـح ناظـرًا بـالأرض، وقعـت عليـه في تأفـف وغضـبٍ، ثـم ضغطـت الجـرس واسـتدعت السـكرتير الـذي انتهـى مـن صلاتـه ثـم خصمـت لـه يومـين، سـألني السـكرتير في دهشـة عقـب خروجـي:

- ماذا حدث في الداخل كي تغضب هذه المجنونة وتخصم لي؟!

- لا شيء، فقـط كانـت توبـخ عـماد الدرملّي، ثـم اشـتعل غضبهـا أكثـر بدخـولي عليهـا دون إذن، كان الله في عونـك، كيـف تتعامـل مـع هـذه المـرأة طـوال اليـوم؟!

هكـذا أجبـت باقتضـاب ثـم انصرفـت بسرعـة نحـو التصويـر، في السـفارة الفرنسـية لاحظـت اتصـال عـماد الدرملّي أكثـر مـن مَرَّة برانيـا عـز الديـن، يبـدو أنـه كان قلِقًـا وخشي أن أبـوح لرانيـا بشيءٍ مما شـاهدته قبـل قليـل في مكتـب رئيسـة القنـاة عـلى سـبيل النميمـة البريئـة، لكـن شـيئًا مـن هـذا كلـه لم يحـدث.

fb/mashro3pdf

مرَّ اليومان الباقيان من تدريبي وفي اليوم الأخير دخلت إلى رئيسة القناة مَرَّة أخرى، كانت منشغلة كالعادة وبيدها المحمول، أشارت لي بالجلوس، وعقب فراغها من المكالمة سألتني:

- هل استفدتَ شيئًا من التدريب؟!

- طبعًا حضرتك، أيام هنا بسنوات في الكلية، أتمنى أن أعمل هنا عقب التخرج، أرجو من حضرتك ألا تنسيني حينها.

- بالمناسبة، أنا سألت عنك رانيا عز الدين وشكرت في نشاطك واجتهادك والتزامك في الشغل، وبناء عليه قررتُ أن تستمر مُتدرِّبا بالقناة.

اتسعت عيناي غير مصدق ما أسمعه، فقد توقعت العكس تمامًا خاصة بعد الوضع الذي شاهدتُها فيه يوم الخميس، بدا أنها تيقنت من أني لم أفتح فمي بشيءٍ مما رأيت، في مجتمع مثل ماسبيرو كان هذا الخبر سيسري كما النار في الهشيم لو أفصحت عن كلمة منه بشفتيّ، ولما رأت ملامحي اكتست بالفرحة أردفت:

- أكثر ما يعجبني فيك إلى جانب اجتهادك في الشغل هو الذكاء الاجتماعي.

حينها فقط أدركت ما هو المقصود بهذا المصطلح الذي تحدثت عنه في اللقاء الأول، ثم اكتست نبراتها بكيد أنثوي وهي تقول:

- اسمع يا حسام، ستستمر في التدرب كمساعد مخرج مع هذه الزانية الصغيرة، أريد كل كبيرة وصغيرة عنها وعن علاقتها بعماد، طبعًا تعرف عن أي عماد أتحدث، لا أقرب للمخرجة من مساعدها وبالذكاء الذي أتوسمه فيك سترصد لي كل شيء.

وهكذا انتقلت من موقع مساعد المخرج إلى موقع المخبر المساعد،

fb/mashro3pdf

لم يكن أمامي سوى القبول من أجل البقاء، وعلى هذا النحو سارت أيامي في ماسبيرو، أتعلم من رانيا وأتجسس عليها، يا لها من بداية مشرفة!!

ومع انتهاء العطلة الصيفية والعودة إلى الجامعة حكيت لعبير بكل فخر كيف أن رئيسة القناة بخبرتها العريضة استشفت نبوغي الإعلامي وقررت الإبقاء عليّ في مبنى التليفزيون تحسُّبًا لتعييني عقب نهاية العام الدراسي وتخرُّجنا، وبدا أن هذا أيضًا لم يجذب عبير إليّ كما تصورت، وحتى الذي كان بيننا في مساحة رمادية بين الحب والصداقة لم يستمر، بل انتهى في اليوم الأخير من امتحانات السنة الرابعة والأخيرة.

في هذا اليوم الجارح وبعد خروجنا من لجنة الامتحان، مشينا سويًّا من مبنى كلية الإعلام وحتى القُبة الشهيرة لجامعة القاهرة، حدثتني عبير بكلام عام عن المستقبل الغامض والمشاعر غير المستقرة وما إلى ذلك من عبارات فهمت أنها حيثيات لقرار الابتعاد والرحيل، بدءًا من غروب شمس هذا اليوم كنت قد دخلتُ حقبة ما بعد الفراق، لم يكن أمامي فيها سوى البحث عن حبيبتي في أروقة المنام كي أخلع عنها حذاءها الزهري خلف بابنا المقفول في عالم الأحلام!!

عقب حصولي على شهادة البكالوريوس وجب عليّ زيارة قسم شرطة الظاهر إثباتًا لموقفي الخاص بالإعفاء من التجنيد فأنا الولد الوحيد وأبي توفى منذ سنوات، وأثناء تحصيلي للأوراق المطلوبة وتدوين البيانات تحتم حصولي على توقيع شخص يسمى في الأوراق الرسمية شيخ الحارة، لكنني لا أعيش في حارة ولم أصادف أحدًا في ميدان السكاكيني يحمل هذا اللقب من قبل، سألت أحد البقالين في الميدان فأخبرني بأنهم في القسم سيدلوني عن الشخص المنوط به

fb/mashro3pdf

التوقيع أسفل اسم شيخ الحارة، وبالفعل توجهت إلى هناك بقلب منقبض، آخر مَرَّة زرت فيها قسمًا للشرطة كانت عام ١٩٩٢، نفضت عن رأسي تلك الذكريات مستعيذًا بالله من الشيطان، وما إن وصلت إلى عتبات القسم وبدأت في صعود درجات سلم مدخله حتى سمعت صوتًا غير مريح يسألني:

- خير، ماذا تريد؟؟

في سؤاله كان أشبه بسمسار أمنيّ لا أمين شرطة، مددت له يدي بالأوراق فباغتني:

- أستاذ ملاك في المباحث.

عبرت إلى الداخل، وفي ردهة القسم وجدت بالاستقبال بضعة ضباط لا تحمل أكتافهم أكثر من نجمتين، مددت لأحدهم يدي في إشارة لمكان التوقيع الفارغ وقبل أن أنطق قال:

- ملاك في الدور الأخير.

ثم أشاح بوجهه ولم أجرؤ على سؤالٍ آخر، بدأت صعود السلالم، وحينما أوشكت على الوصول ترامى إلى أذني من بعيدٍ أنّات من مجهول!! تساءلت: هل ما أسمعه حقيقيًّا أم أن عفاريت من لقوا حتفهم جراء التعذيب تسخر منّي وتهزأ بي؟! لما وصلت الدور الأخير كانت الأنات تدوي بعمق!! اقتربت من عسكري بدا محنَّطًا إلى جوار الحائط، سألته عن الملاك؟؟ بدون كلام أشار بيده نحو الحجرة البعيدة في نهاية الممر المعتم الرطب، بدا أن الحجرة هي نفسها مصدر الأنين المجهول، ترددت في التقدم لكن الفرار لن يفيد، تقدمت أكثر حتى صرت متجمدًا على عتباتها، باغتني أحدهم من خلف المكتب المتهالك المقابل للباب:

fb/mashro3pdf

- نعم يا أفندي؟!

- الأستاذ ملاك لو سمحت.

- نعم؟!

أدركت أنه الملاك!! كان أصلع ونحيفًا يميل إلى الزُرقة بدون دم!! ارتدى قميصًا حائل اللون وسترة بدا أن تاريخ حياكتها يعود إلى أوائل القرن العشرين، تقدمت نحوه وأنا لا أقوى على النظر يمين الحجرة حيث مصدر الأنات العميقة!! رجفة سرت في بدني وأنا أطلب توقيعه على أوراقي، نظر الملاك في الورق ثم قال وهو يتأمله:

- شيء عظيم، أنت خريج إعلام القاهرة.

ثم رفع عينيه من الورق وداهمني بما لم أتوقعه:

- في شارع الشيخ قمر من ناحية ميدان الجيش، بجوار سمير الجزار ستجد محل فول وطعمية، هات لي من عنده رغيف فول ورغيف طعمية.

صوته كان ممزوجًا بأنين إنسان معذَّب في الجوار كنوع من المؤثرات الصوتية الطبيعية المصاحبة للمشهد!! وبدون أن أنطق بكلمة واحدة، استدرت من ناحية يدي اليسرى وخرجت خشية أن أرى ما يجري يمين الحجرة، كنت أشعر بوجود شخصين أخرين معنا في نفس المكان، أحدهما يتألم بصوت مرتفع والآخر كان هادئًا كالقبر وهو ينفث دخان سيجارته، هبط على السلالم في ذهول غير مصدق، ثم وصلت للمحل المقصود، بسخرية طلبت:

- رغيف فول ورغيف طعمية للأستاذ ملاك.

- ملاك المباحث؟؟

- لهذه الدرجة هو مشهور!!

fb/mashro3pdf

- كل صباح يرسل لي أستاذًا محترمًا مثل حضرتك.

- اللهم أحرِق قسم الظاهر بجاز وسخ.

دعوتها وتمنيت أن تكون أبواب السماء مفتوحة في تلك اللحظة، وانتظرت حتى لف الرغيفين، ثم سألت بتهكم مرير:

- ألا يوجد بعض الليمون المُعصفر من أجل فتح شهية الحقير؟!

- لا طبعًا، نسبة الأملاح زائدة على الكليتين عنده منذ شهرين.

لم أدر حينها هل أنفجر من الضحك أم البكاء!! حاسبت على الفطور ثم عدت للقسم، صوت الأنين بالدور الأخير كان مستمرًا، دخلت على الملاك الذي بدأ بفتح لفة الطعام، وبعد قضمة أولى انفكت ملامحه وقام بالتوقيع، أنهى لي هذا الرخيص كل شيء مقابل الرغيفين، أخذت الأوراق ثم درت بجسدي عن دون قصد إلى اليمين فشاهدت مصدر الأنين والدخان، ما رأيت كان إبداعًا شيطانيًا في فن التعذيب ببطء!!

الأنين كان لجسد تدلى من السقف عاريًا كما ولدته أمه، مواطن دسوا له في فالق مؤخرته ثلاث سجائر مُشتعلة!! ومع الوقت كانت السجائر تحترق وتتناقص وتُسقط مخلفاتها الساخنة على ظهره، وبنبرات اختلط فيها اليأس بالألم قال هذا الجسد:

- ارحمني يا باشا، سأقول كل ما تريدونه، سأبصم على كل شيء لكن ارحمني.

الباشا كان أحد أمناء الشرطة وقد وضعَ سيجارته على جانب فمه ليخرج الدخان والكلام من الجانب الآخر، قال وهو يمد ساقيه في ثقة بالغة إلى كرسي آخر أمامه:

- ألم أقل لك يا ملاك، كلهم كلاب، لا كلب يتكلم إلا إذا تألم.

fb/mashro3pdf

فررت بسرعة من الحجرة وهبط على السلم وأنا أحمد لهذا الملاك رفقه بي وجعلي فقط خادمًا له!!

****

هذا اليوم أبدًا لن أنساه، ليس فقط لمِ دار في بدايته داخل قسم الظاهر، ولكن بسبب ما جرى لي في نهايته عقب منتصف الليل بالإسكندرية!! في المعمورة لم أتوقع أن يكون جسد رئيسة القناة وهو مغطى تمامًا بالنوتيلا، مُخدرًا موضعيًّا لكثير من الآلام التي خلفتها عبير بين جنبات الروح!!

***

fb/mashro3pdf

عبير

منذ الظهيرة وحسام لم يكف عن محاولات الاتصال بي، من المستحيل أن يكون قد علم بشيء مما سيُعقَد مساء الغد؛ فالأمر لا يعرفه إلا أنا ورئيس تحرير مجلة اللوتس وأمن الدولة، الخبر لم يتسرَّب بعد إلى الوسط الإعلامي، الأرجح أن يكون حسام قلِقًا لتغيُّبي في الأيام الماضية عن الدردشة الليلية على الـ Yahoo Messenger، على أية حال مناسبة الغد لا يصح أن يعرفها حسام بالصدفة عن طريق غرباء، سأخبره بنفسي مراعاة للعيش والملح وعشرة السنوات، أنا لا أريد لحسام أن يغيب عن حياتي، ما لا أستطيع استيعابه حتى الآن هو الغياب المفاجئ لنادر الزيني!!

****

منذ أول لقاء لي معه بحديقة الأسماك في سبتمبر، سيطر عليَّ الضابط نادر الزيني بشكل مطلَق عبر ما أسماه في البداية بالصداقة المحترمة، ثم تعددت اللقاءات بالحديقة إلى أن نجح بتجنيدي تمامًا لحساب أمن الدولة في نهايات نوفمبر، شخصيته وأسلوبه ووسامته الأخاذة، كلها مقومات حسمت أمره بسرعة مع هذه النكرة القادمة من جوف حارة الفص والمتطلعة نحو الصعود، طلب منّي نادر في البداية كتابة تقريرٍ

fb/mashro3pdf

دوريٍّ عـن أحـوال الطلبـة مـن حـولي في المدرّج رقـم ٢ عـلى أن يضـم التقريـر ملخّصًا لتعليقاتهـم عمّا يجري بالبـلاد، قـال:

- والأهـم أن تـدربي نفسـك عـلى التقـاط الأفعـال التـي قـد تصطبـغ بصبغـات دينيـة استثنائية مع الانتباه جيدًا للتعليقات والآراء التي تصدر عـن أصحابها.

- بمعنى؟؟

- مثلًا، مَن الأكثر حِرصًا على الصلاة في موعدها بمُصلَّى الكلية؟؟ مَـن يظهـر عليـه ضجـر لأن مواعيـد المحـاضرات لا تراعـي مواقيـت الصلاة؟؟ مَن بحوزته دائمًا كتيب أذكار المسلم في الصباح والمساء أو ما شابه؟؟ مَن الذيـن يتبادلـون مـا يسمى بالشريـط الإسلامي؟؟ مَن منهم يذكُر سيد قطب أو حسن البنـا أو أبي الأعلى المودودي بخير؟؟

وحينما شعر بدهشتي من نوعية تلك التفاصيل المطلوبة استطرد قائـلًا:

- الصـلاة في أوقاتهـا ليسـت جريمـة، ربنـا سـبحانه وتعـالى يقـول «إن الصـلاة كانـت عـلى المؤمنـين كتابًـا موقوتًـا»، ومـن الرائـع جـدًّا أن يصطحـب الإنسـان كتيبًـا يُذكِّره بترديد «أعوذ بكلمات الله التامات من شَرِّ مـا خَلَـق» ثـلاث مـرات كل صبـاح ومسـاء، لكننـا نهتـم جـدًّا بهـذه التفاصيـل الصغيرة الطيبة مـن أجـل حمايـة هـؤلاء الصالحين مـن أولئك الذيـن يحاولـون استغلال عواطفهـم الدينيـة أو نواياهـم الحسـنة عـلى نحـو متعصـب يضر بالوطـن، وقـد رأيـتِ بنفسـك في مذبحـة الأقصر قبـل أيـام مـاذا فعـل بنـا التطرف والإرهـاب، كل هـذه التفاصيـل مهما صغرت فهي مهمـة بـل ومهمـة جـدًّا بالنسبة إلى أمـن مـصر يـا عبـير.

- نادر، ألن أكون بذلك جاسوسة على زملائي؟!

fb/mashro3pdf

ردَّ بتلقائية بالغة وملامح متعجبة:

- جاسوسة!! أحينما تحمين بلدك من الأشرار تصبحين جاسوسة!! أنتِ مثلي يا عبير، جندية من جنود الوطن، أنتِ تمامًا مثل رأفت الهجان وجمعة الشوان، لا تستبعدي أن تشاهد الأجيال القادمة عملًا دراميًّا يجسِّد مسيرتك تقديرًا لدورك الوطني العظيم هذا.

- ولكن رأفت وجمعة وغيرهما كانوا يتخابرون ضد إسرائيل!!

- ومن قال لك إنك لا تتخابرين معنا هنا في الداخل ضد إسرائيل؟! إن الإسرائيليين بالداخل يغذّون روافد وتيارات يحمل أفرادها بطاقات شخصية مصرية، واعلمي دومًا يا عبير أن الوطن أبدًا لا ينسى جنوده سواء قبل تخرُّجهم أو بعده.

اعتدتُ تسليم التقرير لحضرة الضابط إما داخل مكتب قائد حرس الكلية بنهايات اليوم أو بجوف حديقة الأسماك أو في أي مكانٍ آخر متّفق عليه، ومنذ البداية عمل نادر على إضفاء لمسة شعورية بيننا حتى لا تكون علاقتنا فقط علاقة ضابط بجندية من جنود الوطن، وكثيرًا ما اصطحبني داخل سيارته إذا ما وجدَ أنه قد تسبب في تأخُّري بسبب تسلمه التقرير، هذه السيارة طالما فضفض لي داخلها باعتباري دميته الخاصة وصنيعته المثالية وملك ليمينه لو أراد، لمَ لا وهو من ربّاني أمنيًا منذ تلقاني وتولاني بالرعاية حتى صرت أشبه بقطة منزلية جميلة على كتفه تصلح أن تكون صندوقًا أسود لبعض ما لا يمكن أن يبوح به لأحد.

لكنه لم يفعل ولم يَبُح إلا حينما شاء القدر ذات يوم أن يضعني أمامه عقب كارثة وقعت بعلاقته مع زوجته، تلك العلاقة التي تدهورت كثيرًا بسبب ما هلوسَتْ به امرأته ذات ليلة داخل مستشفى الشُّرطة

fb/mashro3pdf

بالعجوزة، حكى لي عن هلوستها وعن السنوات التي قبلها، إلى الآن لا أصدق أني قد سمعت منه كل هذا!! بدا يومها أنه في حاجة ماسة إلى مُتنفس آمن، لذا عندما أبطل محرك سيارته بشارع نهرو المظلم خلف حديقة الميريلاند أدركت أنه أراد مكانًا خاليًا لا يسمعه فيه سواي، ومعتمًا لا أرى فيه ملامحه بوضوح وهو يبوح، ولأن ضباط الشرطة بطبيعتهم لا يجيدون فضيلة الحياء، لذا حكى وبصراحة فجة عن أزمة علاقته بزوجته المحجبة:

- هل تعرفين يا عبير؟؟ منذ التحقت بكلية الشرطة وأنا لم أكف عن التمرغ بأحضان صفائح الزبالة.

- نعم؟!

- كان طبيعيًا ألا أحصل على مجموعٍ مشرِّف بالثانوية العامة فقد كان همي الأول هو مشاهدة الأفلام الجنسية، وكأي طالب يبحث عن كلية تأويه قمت بسحب أوراق الانضمام لكلية الشرطة، وبطبيعة الحال احتاج الأمر دفع رشوة كبيرة في ظل تقدم آلاف أمثالي، وبالكاد استطاع أبي تجميع المبلغ المطلوب من مكافأة نهاية خدمته فضلًا عن بيع أمي بعض ذهبها، ثم قُبلت أوراقي، منذ ذلك الحين وأنا أطلق شخرة عميقة ولا إرادية في كل عام أشاهد فيه لواءً عجيبًا بالتليفزيون يعلن عن بِدء فتح أبواب كلية الشرطة أمام راغبي خدمة الوطن، صار لي عمرٌ بالشرطة ولم أصادف كائنًا حيًّا انضم لها من أجل الوطن!!

- وماذا عقب قبولك؟؟

- عقب انضمامي للكلية وفي إحدى العطلات حدثني أحد الزملاء الجدد عن مستودع تاريخي للرخيصات اسمه ملهى آمون السياحي في نهاية شارع الهرم، منذ دخلته أول مَرَّة وقد صار هذا الكنيف طوال

fb/mashro3pdf

سنوات الدراسة مأوى لنا وتوكيلًا رسميًّا معتمدًا لقضاء شهوات مجموعة لا بأس بها من ضباط المستقبل، أول يوم لنا بهذا الماخور كان تاريخيًا بحق، عقارب الساعة تعدت العاشرة مساءً حين عبرنا ميدان الجيزة نحو شارع الهرم والذي لم نكن على دراية كافية بجغرافيته، لذا توقفنا كثيرًا بالسيارة لسؤال المارة عن آمون السياحي؟! كانوا جميعًا يشيرون بأيديهم إلى المضي قدمًا نحو الأمام وقد ارتسمت على ملامحهم علامات لم نعرف مغزاها إلا بوصولنا إلى هناك!! لا أدري سببًا منطقيًا جعل المصريين في شارع الهرم يطلقون أسماء آلهة وملوك أجدادهم على أوكار أحط الليالي!!

بمجرد عبورنا إلى داخل آمون ووسط أضوائه الزرقاء الخافتة نشبت معركة صغيرة بين أربع عاريات بسبب تنافُس كل واحدة على استضافتنا فوق مائدة تخضع لنفوذها، تلك المعركة الطارئة انتهت برغبتنا في مائدة منال التي حسمت الصراع مبكّرًا بفضل حجم صدرها!! منال في جسدها وعلى نحوٍ مذهل كانت أشبه بجسد سُهير رمزي في أفلام السبعينيات!! دققنا في كل تفاصيلها وهي تصحبنا نحو مائدة خاضعة لها في أقصى أركان آمون، كانت ناصعة البياض على نحوٍ مبهر وشعرها حالك السواد وقد لملمته إلى الوراء على هيئة كعكة، ارتدت في أذنها حلقًا صغيرًا أحمر بلون الحذاء، أما جسدها فلم يكن عليه سوى هذا الضيق الأسود الذي بدأ من منتصف صدرها وانتهى عند أعلى فخذيها، منال كانت أنثى مُترامية الأطراف وعلى الرغم من مساحتها الشاسعة أبدًا لم تكن بدينة، بل على العكس كان كل شيء فيها بمكانه تمامًا دون زيادة أو نقصان.

- أكانت أنثى إلى هذا الحد!!

fb/mashro3pdf

- كانت شديدة الشبه بمونيكا لوينسكي التي لعقت كلينتون في المكتب البيضاوي.

- ما علينا، وماذا بعد؟؟

- أجلستنا منال على المائدة ورحبت بنا على نحو واعد بليلة لن ننساها، ثم انصرفت نحو مائدة أخرى بعيدة، وفي أعقابها حضر شاب يميل إلى النحافة، وبخفة ماهرة وضع أمامنا على المائدة مبخرة وعلبة مناديل وطبق مُكسرات غلب على تكوينه الفول السوداني، لينهي ذلك كله بعبارة:

- تحت أمركم يا حضرات في أي وقت.

صوته لم يكن غريبًا عليّ!! رفعت رأسي وسط الضوء الخافت لأتبين ملامحه وأستقبل المفاجأة!! إنه وجدي زميلي المتفوق بالمرحلة الثانوية، التحق مثلك بكلية الإعلام، لكنني فوجئت ليلتها بأنه قد التحق أيضًا بملهى في المساء حتى يصرف على نفسه وأسرته، بدأ وجدي التنازلات مبكرًا جدًّا، كلانا لحظتها تجاهل الآخر، فضولي كطالب شرطة دفعني لتتبع طبيعة شغله في المكان، وجدته مجرد نادل أمين ينصاع آليًا لما يؤمَر به من عاهرات الملهى، وكحمامة آمون الزاجلة كان ينقل الوريقات المطوية من منال وغيرها إلى بعض الزبائن والعكس دون أن يسمع أو يرى أو يتكلم، لو امتد بي العمر كي أدوّن مذكراتي، سأكتب أن هذا القواد المبتدئ وهو يرصّ أطباق الفول السوداني على موائد الملهى الرخيص، لم يدرِ أنه عقب سنوات سيحاور الرئيس في عيد الإعلاميين!!

- نعم!! هل تقصد وجدي...

- بشحمه ولحمه.

fb/mashro3pdf

- أكمل.

- هلَّت منال من جديد بابتسامة عريضة وطلبت من وجدي إحضار زجاجات الجعة، ثم أعقبت كلمة الجعة بضحكة رقيعة شعرت معها أن شرطة الآداب على وشك اقتحام الماخور وإنهاء مستقبلنا مبكرًا، تعجبت منال من حلق رؤوسنا جميعًا على هذا النحو!! برَّرنا لها هذا بأي كلام، قلنا إننا أعضاء في منتخب مصر للكاراتيه وعلى أبواب بطولة، كانت منال أثناء حديثها كثيرًا ما تميل بجسدها على نحو عمدي إلى الأمام وهي مستندة بيديها للمائدة حتى يبرز صدرها أكثر فنحاول الاقتراب منه بأفواهنا، لكنها كانت تعود وتبتعد ولا تسمح بالاقتراب إلا بعد أن يُبرز كلٍّ واحد منّا أوراق نقوده، وهكذا ظلت تلف علينا، وحين جاء دوري في تقبيله ولمسه برفق شعرت وكأني أكتشف كائنًا فضائيًا جميلًا هبط مؤخرًا إلى سطح الأرض!!

ثم جاء وجدي بزجاجات البيرة ورصها في صمت، فتحتها لنا منال بأسنانها وصبت في أكوابنا وانصرفت لاصطياد زبون آخر قادم من الباب، تركتنا منال ونحن نشتعل من الداخل بنارٍ لم تمسنا من قبل!! في هذا المساء أدركت ولأول مَرَّة جسد المرأة بعيدًا عن شرائط الفيديو، عرفتُ ليلتها كم كان انفعالي بالأفلام الجنسية ساذجًا مقارنة بهذا الشعور الذي لا يفصلني فيه عن طَعم الست زجاج شاشة التليفزيون!! منذ ذلك الحين تحررت وإلى الأبد من عالم الأفلام وصرت أسيرًا لواقع الرخيصات.

بعدما تركتنا منال نتصهر عادت من جديد لتسألنا بميوعة عما إذا كان هناك ما ينقصنا في القعدة؟! أجبناها بألا ينقصنا سواها،

fb/mashro3pdf

ردت بأنها ملك أيدينا جميعًا، ثم نادت من تلقاء نفسها على وجدي ليحضر مزيدًا من البيرة، أما نحن فقد أبرزنا مزيدًا من الجنيهات كي تسمح منال بمزيد من العبث فيها والقبلات، وسط كل هذا وصل وجدي بالزجاجات الخضراء القاتمة، وحينما أرادت منال فتح زجاجتي الثانية وضعت يدي على فوهتها بحجة أني غير قادر على شرب المزيد، تدللتْ عليَّ ومالت بجسدها لكني أصررت على رفضي، لا لشيء سوى خشيتي من رقم الحساب في نهاية الليلة، لكن مقاومتي خارت ولم تستمر كثيرًا، لِمَ لا وقد قامت منال برفع إحدى ساقيها لتستند بركبتها على حجري!! مددت يدي بين قدميها شيئًا فشيئًا ولم تمنعني، وباللحظة التاريخية التي لمست فيها ما لم ألمسه في حياتي من قبل!! أطلقت منال شهقة مُصطنعة فانهارت يدي الأخرى من فوق زجاجة البيرة لتفتحها بأسنانها دون مقاومة منّي، حينها فقط ضحكت ضحكتها الرقيعة مَرَّة أخرى وهي تسحب يدي من بين ساقيها، يا لها من ليلة حرصتُ فيها ألا أغسل يدي من نعمة منال حتى صباح اليوم التالي!!

وبدا أن أحد ضباط المستقبل بجواري لم يتسم بالثبات الانفعالي المطلوب حينما شاهد منال وهي تسمح بيدي تغوص فيها، فما كان منه إلا أن اندفع على نحوٍ غير محسوب وحاول جذبها من رقبتها وتقبيلها عمدًا على نحوٍ وحشيّ، كان أشبه بجائع منذ سنوات وفجأة وجد أمامه وليمة عامرة تنتظر منه الانقضاض عليها، صرخت منال بوجهه ودفعته بيدها وتخلصت منه ثم بصقت على الأرض بعدما وصفته بالهمجي الفلاح!! ثم انصرفت عن مائدتنا للأبد وكأنها تعاقبنا جميعًا على فعلة هذا المغفل المُستثار، ولو عرفَتْ منال ماذا تخبئ لها الأقدار لما أقدمت أبدًا على نهره والسخرية منه على هذا النحو!!

fb/mashro3pdf

وما هي إلا سنوات قليلة حتى كانت لمنال صورة بصحيفة الجمهورية وهي مطموسة العينين وملفوفة بملاءة، وإلى جوار صورتها صورة أخرى لهذا الطالب الذي وصفته بالهمجي الفلاح وقد صار نقيبًا وداهم شقة للدعارة بإحدى عمارات مساكن ميدان الرماية بحيّ الهرم، ليجد منال في داخلها مع آخرين وأخريات وقد تقدم بها العُمر ونال منها ما نال، وبالطبع لم تتعرف منال عليه في حينها لكنه ذكّرها بنفسه داخل القسم فانحنت وقبّلت حذاء الباشا كي يطلق سراحها رحمة بابنها الطالب في كلية الهندسة، لكنه ركلها بقدمه ثم رفع سماعة الهاتف متصلًا بأحد صحفيي الحوادث ليبلغه بخبر مداهمة الشقة، وأن من بين العاهرات اللاتي سيتم عرضهن على النيابة في الصباح واحدة اسمها أرزاق عبد الشكور وشهرتها منال، لكنها في الحقيقة لا تصلح سوى أن تكون فلاحة همجية تمارس الجنس مع الكلاب ليلًا في الغيطان!!

منذ تلك الليلة في آمون بدأ تاريخي مع الرخيصات ولم ينقطع حتى تخرجت وانضممت لجهاز أمن الدولة، وجودي داخل هذا الجهاز مع شكلي ساعداني على النوم مع كل أطياف الأنثى في مصر، بدءًا من بنات الليل وصولًا لبنات الوزراء ورجال الأعمال والدين وزوجاتهم ومطلقاتهم، غير قادر على وجه الدقة إحصاء أعداد اللاتي أفقدتهن العذرية أو حملن مني وأجهضن أنفسهن أو هؤلاء اللاتي استكملن حملهن ثم كتبن خلف أسماء أجنتي أسماء أزواجهن، ويوم ترقيتي إلى رتبة رائد أصرت أمي على تزويجي رغبة منها في رؤية أحفاد لها، وبالفعل رضخت وتركت لها حق الترشيح واحتفظتُ لنفسي بحرية الاختيار، ومن بين ترشيحاتها اخترت أكثرهن خلقًا والتزامًا، صفاء

fb/mashro3pdf

مُدرِّسة الموسيقى، المحجبة الجميلة التي تصغرني بست سنوات، تقدمت لأسرتها وسرعان ما أبلغوني بالموافقة فلم أكن من هؤلاء الذين يُرفضون، نحن ضباط أمن الدولة كأنصاف آلهة، لا طاقة لبشري فوق أرض مصر أن نقول له كُن ثم يخطر بباله ألا يكون!!

وبالفعل وفي ليلة مبهجة تم زفافنا، وكعادة كل البنات في ليالي الدخول الأول أظهرت صفاء أنها لا تعرف من معاملات الفراش إلا الحضن العذري ومنح القبلات، وأنها لسنوات كانت بانتظار الرجل الذي يعلّمها كل الأشياء، العروس المصرية تتقن كيف تجعل من ليلة العمر واحدة من أسخف الليالي، دائمًا تخشى أن يُطرح عليها من زوجها السؤال الأكثر بلاهة في تاريخ الفكر الإنساني «من علّمِك هذا»؟! وكأن كل شاب قد اختار فتاة للزواج من فوق كوكبٍ مهجورٍ لا تعيش فوق سطحه سوى نباتات تتكاثر ذاتيًّا!! ولا أستثني نفسي من هؤلاء فأنا أيضًا كنت سأطرح عليها نفس السؤال لو وجدتها تتشقلب على السرير من أجلي!! كل رجل يرتاح لأسطورة الزواج من امرأة مُغمضة العينين، لكن الأمر يصبح أكثر تعقيدًا إن ظلت مغمضة هكذا!!

عقب معاناة وصبر أنهيت حقبة عذريتها، غشاء البكارة لم يكن هو الأزمة فأنا على يقين من هواجس كل أنثى لحظة فضها وشعور كل فتاة حينها بأن تنينًا ضخمًا على وشك شقّها إلى نصفين!! الأزمة كمنت في الهوة الواسعة بيننا على السرير!! بين زوج عاشق للجنس الفموي والأوضاع الجسدية المبتكرة والمجنونة، وزوجة بدائية تغمض عينيها من فرط الحياء، ولا تتأوّه من فرط الخجل، تحرص على إسدال كل الستائر وإغلاق كل الأنوار حتى لا تراني أو أرى جسدها ونحن عرايا، اعتقدتُ بأنها حالة مؤقتة مثل بعض العرائس الجدد لكن الحال

fb/mashro3pdf

استمر على هذا المنوال مما باعد بيننا كثيرًا، ليس فقط بالسرير ولكن بكل الأشياء، ومع الوقت صارت الأحضان الأسبوعية أشبه بمهمات اعتقال ليلية!!

مرت الشهور التي صارت عامًا ومرَّ العام الذي صار عامين، كانت تقتل أوقاتها الثقيلة منذ أن تعود من المدرسة بالاستماع إلى السيمفونيات والجلوس أمام الكمبيوتر، أما أنا فقد كان من الطبيعي أن أعود عقب هذه الزيجة السخيفة مباشرة إلى سيرتي الأولى بالتمرغ بين أحضان العشيقات، وبالفعل رجعت وعلى نحو أكثر قوة من ذي قبل، قالت لي زوجة أحد الوزراء ذات مَرَّة بحكمة سريرية بالغة وبعيون زائغة وهي تنفث دخان سيجارتها على شعر صدري أثناء تمددها فوق جسدي عقب دوامة عشق عاتية:

- سأجعل زوجي يطلبك بالاسم قائدًا لطاقم حراسته حتى لا أفارقك.

- يا مجنونة.

- هل أصارحك بشيءٍ يا نادر؟!

- صارحيني.

- غباء زوجتك من نعم الله التي لا تُعَد عليَّ في هذه الدنيا ولا تُحصى!!

كان من الجنون والمستحيل عقب تذوُّق أنثى منصهرة كهذه وسماع كلمات عارية من هذا القبيل، أن أعود إلى البيت في نهاية اليوم لأضاجع تلك المُدرِّسة التي تسدل كل الستائر وتغلق كل الأنوار وبالكاد تباعد بين ساقيها وتغمض عينيها ولا تتأوه، وكأني أعاشر بالظلام الدامس خشبة جميلة للموتى تحت بند الجنس الحلال!!

fb/mashro3pdf

ثم عزمت أمري على تصحيح المسار، لا بالكف عن الرخيصات ولكن بالطلاق، للتخلص من كل هذا العبث الذي لا طائل من ورائه؛ فأنا لم أتزوج من امرأة كي أقوم بتغذيتها وإيوائها في بيتي بدلًا من بيت أهلها، لذا عندما وصلت في المساء وتناولت معها طعام العشاء، قررت أن أصارحها بنيتي في الانفصال، وجهها بتلك الليلة كان مشرقًا مقارنة بأي يومٍ مضى كما لو أنها سعيدة بما ستسمعه مني بعد قليل!! جلست جواري بغرفة المعيشة أمام التليفزيون، إنسانيًا وعلى غير عادتي بدأت أتحسس في داخلي المفردات التي سأستخدمها في حديثي عن الانفصال، وقبل أن أنطق بكلمة واحدة داهمتني بخبر حملها وأنها بشهرها الثاني!! صَمتُّ واتسعت عيناي من الدهشة، نصحتها بالراحة من أجل الجنين، هذه المَرَّة أصبح لي جنينٌ غير منسي بين أحشاء العشيقات!! لم أدرِ هل أبتهج أم أحزن لهذا الخبر الذي أفسد عليَّ فجأة كل ترتيبات الصباح!! اعتنقت عقيدة الصمت المنزلي مع استمرار تمرغي بملاءات أسِرة الأخريات.

وفي بدايات شهرها التاسع داهمتها آلام الوضع بوقتٍ متأخر من الليل، وفي مستشفى العجوزة خرجت ممرضة خمسينية تبشرني بالولد انتظارًا لجنيهات البشرى، تجاوزتها واقتحمت غرفة الإفاقة للاطمئنان على صفاء، أخبرتني إحدى الممرضات بأن تواجُدي ممنوعٌ في هذا المكان لكني لم أُعِرها أي اهتمام، ويا ليتني التزمت بالتعليمات ولم أدخل، كانت صفاء فوق أحد الأسِرَّة تهلوس وكاد عقلي أن يطير مما سمعت!! اقتربت بأذني من شفتيها لأتيقن مما أسمع، بصوتٍ أعياه المخدِّر كانت تخاطب رجلًا بكلمات وكأنها على فراشه، كانت تتأوّه بدلالٍ مفرط وتطلب منه أن يدللها باسم غير اسمها:

fb/mashro3pdf

- رشدي، قل لي يا لبؤة.

تسارعت دقات قلبي وشرد بصري ولم أفق إلا على صوت ممرضة رخيصة لم تجد ما تقول طمعًا في بعض الجنيهات سوى:

- طيَّرت المخدر من عينيها يا أستاذ رشدي!! واضح أنها تعشقك عشقًا، يا حظها!!

ثم أعقبت أقوالها السافلة بضحكة أسفل، لم أجد ما أفعله سوى مدّ يدي الباردة في جيبي لأخرج ورقة لا أدري كم قيمتها وأضعها بيد هذه الوضيعة كي تكف عن عهرها وتتركني فيما أنا فيه، ودون اهتمام برؤية الطفل جرجرت قدمي إلى خارج المستشفى، مشيتُ بغير هدف، وقفت أمام النيل قُرب الفجر، لم أحصِ عدد السجائر التي حرقتها حين كانت الأسئلة تفتك برأسي، هل ما هذَتْ به حقيقة أم هي زبالة اللاشعور؟! هل لتلك الخلاعة أصول بعالمها في الواقع أم هي رغبات لا تدري عنها شيئًا بعقلها الباطن؟!

بخبرتي وسعيًا وراء خيوط الحقيقة، احتفظت بثباتي الانفعالي ولم أخبر صفاء بشيءٍ مما هلوست به كي أبقيها على طبيعتها، راقبتها واستخرجت كشفًا بكل الأرقام التي طلبتها من هاتفها المحمول منذ دخل هذا الاختراع إلى مصر، لم أجد من بينها رقمًا لأي مخلوق يحمل هذا الاسم ولم أجد لها اتصالًا بأي شخصٍ يمكن أن يكون له معها علاقة آثمة، كل الدلائل كانت تشير إلى براءة صفاء من تلك الاتهامات التي عصفت برأسي، حتى إني سألت طبيبًا نفسيًا عن هلوسة الإفاقة، قال:

- ليس من المشروط على الإطلاق أن يكون لتلك الهلاوس ما يوازيها في الواقع، من الجنون أن نحاسب المهلوسين على هلاوسهم!!

fb/mashro3pdf

صدقيني يا عبير، الرجل الذي شكَّ بزوجته مَرَّة لن يكفّ أبدًا عن الشكِّ بها، مع العِلم أن هذا قد يعود لطبيعتي الأمنية أو ربما لعُمق نجاستي.

ثم توقف فجأة عن الحكي فقلت له بكل ما أملك من مهارات الأنثى وكأني اصطاد في الماء العكر:

- بغض النظر عن ظُلمك القاسي لها بسبب نوعية النساء اللاتي مررت بهم، أنت تستحق امرأة تملأ عينيك وتعصمك يا نادر، لكن قل لي، ما الذي جدَّ اليوم وجعلك مختنقًا هكذا؟!

قلتها وقد ربتُّ على يده برفق، فأجاب:

- ما حدث لي معها بالأمس.

- ماذا حدث؟!

كانت بحضني في لقاء ليلي روتيني لا هدف من ورائه سوى إثبات أني ما زلت ذكرًا وهي ما زالت زوجة، وبعدما وصلتْ لقمة هياجها الجسدي وقبيل ذروة نشوتها، ناديتها بأذنيها على سبيل جبر الخواطر «حبيبتي»، تاهت أكثر وأجابت بصوت متهدج غير مسيطر عليه:

- أنا حبيبتك ولبؤتك أنت.

بمجرد أن سمعتُ منها تلك المفردة أصابني الجنون، انسحبت فورًا من بين ساقيها وانطلق المارد الذي طالما توارى بي، أنرت ظلام الغرفة ولا أدري كم صفعة لطمتها، وبعد أن كففت عن صفعها وكفت هي عن الصراخ، استجوبتها وأنا أجلس على حافة السرير عاريًا وهي مكومة بمنتصفه كما ولدتها أمها:

- من الذي كان يناديك «يا لبؤة» من قبل؟؟

ردت وعيناها تتسعان من الصدمة:

- أنت مجنون!!

fb/mashro3pdf

- اعترفي قبل أن أفرغ المسدس في رأسك.

قلتها وأنا أسحب السلاح من الدرج وأشد أجزاءه تجاهها، انهارت باكية من جديد وهي تردد:

- أنت مجنون مجنون!!

- مَن رشدي الذي تنامين معه وعوَّدكِ على مثل هذه النجاسات يا وسخة؟؟

ظلت تلطم خديها صارخة من جديد:

- مَن هذا؟! أنت مجنون!! والله العظيم مجنون!!

لم يتحرك لي ساكن من انهيارها، فقط أعدت عليها السؤال:

- مَن الذي عوَّدكِ على تلك الوساخات؟؟

بعد تردد أجابت بصوت حائر بين البكاء والصراخ واللطم:

- كنت أريد أن أُسعدَكَ وأُسعِد نفسي، كثيرًا ما سمعت صديقاتي المدرسات يتحدثن عن حلاوة الكلام القبيح في السرير بالليل، وكيف أن الرجال يحبّون هذا، كنت أسمع ذلك ضمن أشياء أخرى أحتقرها ولا أحترم مَن تفعلها ولا أجرؤ على القيام بها، الليلة فقط حاولت إسعادك فاتهمتني بالخيانة!! حسبي الله ونعم الوكيل فيك.

قالتها وهي تبكي وتلملم ملابسها الداخلية بطريقها نحو الحمّام، فأعدت المسدس إلى الدرج وقمت لأستر نفسي عاجزًا عن فعل أي شيء!!

ثم كفَّ نادر عن الحكي بعد أن تنهد بعمق وكأنه محاصر بين مطرقة الشعور بالذنب تجاهها وسندان الشك فيها!! قلت له:

- ما كان يجب أن تفعل هذا معها، دائمًا ما تدور تلك الأحاديث والخبرات بين الحريم، هذا طبيعي جدًا فلا تظلمها، حاول أن تصالحها الليلة حينما تعود، نادر، اضحك من فضلك، غير مسموح لك أن

fb/mashro3pdf

تبقى على هذا الحال وصديقتك الصدوقة عبير إلى جوارك، واطمئن يا سيدي أنا لن أطلب منك مطلقًا أن تناديني «يا لبؤة».

حينها فقط انفكت ملامحه وضحك، فربتُ على يدِه برفقٍ من جديد قبل أن أسأله:

- هل تعرف لماذا أبدًا لن أطلب منك أن تناديني هكذا؟؟

أثار الاستفهام ذهنه واستدار لي بكامل جسده داخل السيارة مُستفهمًا:

- لماذا؟!

- أنثى أسد مثلي في حاجة إلى أفعال لا أقوال يا حضرة الضابط.

ضحك بشدة أنسته ما كان فيه، سكتَ بعدها وهو ينظر بعينيَ كأنه اكتشف وجودي فجأة، رفع زجاج سيارته المظلل بالسواد، اقترب ولم أمانع، ضمني إليه وقام بتقبيلي ببطء حتى الغرق، تأكد من وجود علبة المناديل ثم علمني ما لن أنساه!! بشارع نهرو خلف الميريلاند في المساء، علمني كيف أدمن نكهاته!!

****

جرس الـ Yahoo Messenger أيقظني من عار ذكريات الماضي، من جديد يحاول حسام التواصل معي إلكترونيًا، يا له من إنسان في زمنٍ كثُرَ فيه الكلاب!! أودّ أن أبقى في مخيّلته إلى الأبد حبيبته الطاهرة، ماذا لو عرف عقب كل هذا أن حبيبته تم اصطيادها ذات يوم من الطريق لممارسة الحب في الفيوم؟! كم أتمنى أن تعوضك الدنيا عني وتصبح كما تحلم مُخرجا وثائقيًا مشهورًا تلف بأفلامك مهرجانات العالم، نادر حدثني في المَرَّة الأخيرة بكلام غامض عن اقترابه من كنزٍ قديمٍ مكتوب بخط اليد قبل حوالي ١٧٠ سنة!!

***

fb/mashro3pdf

أوراق سليمة

كانت تلك هي الليلة الأولى التي سأبيت فيها مع كلوت وأنا جاريته، فوق المصطبة إلى جوار المشربية دعاني كلوت لأتمدد وأضع رأسي على فخذه عقب يوم مرهق وطويل، وعلى سبيل حكايات ما قبل النوم قرر أن يسرد لي قصة كلارا في مصر كما وعدني:

- منذ أكثر من ربع قرن جاء لويس والد كلارا إلى مصر ضمن علماء الحملة الفرنسية الذين رافقوا بونابرت إلى هنا، غير معروف على وجه الدقة في أي علم تخصص أبوها، لكن ما هو ثابت عند الذين عاصروه، هو أن لويس ندهته نداهة الجمالية.

- نداهة الجمالية!!

- نعم يا سليمة، نداهة الجمالية أسطورة منتشرة هنا بين أبناء هذا الحي وتعود في أصلها إلى روح جارية جميلة شقراء من بلاد الروم يُقال إنها تسعى كل ليلة في طرقات الفاطميين المظلمة لإغواء الرجال من الأجانب المُعجبة بهم، وما إن يتطلع إلى وجهها أحدهم حتى ينساق إليها بلا إرادة!!

- ولماذا الأجانب من الرجال؟!

- يقولون إن الروح كانت لجارية رومية فقدت حبيبها بعدما اقتادها

fb/mashro3pdf

النخاسـون مـن أرضهـا هنـاك إلى قـصر الخليفـة الفاطمـي بالمحروسـة، لتعيش عمرها شاردة العينين بين المشربيات لعل الزمن الذي أتى بها يومًا إلى هنا يأتيها أيضًا بحبيبها، لكن هيهات، ذبلت الفتاة وجفت ثم ماتت جسدًا لكن روحها ظلت تُحلّق حبيسة تبحث بين أسوار القاهرة في وجوه الأجانب الوافدين من أورُبّة عن وجه حبيبها أو من يشبهه فتناديه، وهكذا سلبت النداهة عقل الفرنسي الوسيم لويس في ليلة كان يسير فيها وحيدًا قُرب الفجر عند مسجد الحاكم بأمر الله، استيقظ الأهالي على صوته وهو يصيح بفرنسية لا يفهمونها شاخصًا ببصره إلى أعلى مئذنة المسجد الملتحمة بسور القاهرة، وعلى الفور أدركوا طبيعة ما حلَّ به!!

- وماذا بعد؟!

- انفصل لويس عن الحملة، ارتدى جلبابًا وصار من مجاذيب الحي، نام بالنهار على عتبات المساجد وأمام أبواب الوكالات وصعُبَ حاله على أهل الجمالية الذين كانوا يضعون له ما تيسَّر من ماء وطعام، أما في الليل فقد سار عاشقًا وراء حبيبته النداهة هائمًا على وجهه خلفها بالخرنفش والتُمبكشية وبين السيارج، فقط كان يكف بشهر المسلمين المقدس المسمى رمضان، فلا يعرف طريقه أحد!!

- ألم يفكر أحد حينها في قتله باعتباره من العسكر المحتلين؟!

- على العكس، انتشرت سيرته بين الناس كصاحب معجزات، وحين اندلعت ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين، قام القائد كليبر بقصف المدينة بمدافعه من فوق هضبة المقطم، فتهدمت البيوت على رؤوس الخلق ليتم إخراج لويس من أسفل أحجار بيت كان يسير بجواره دون أن يلحق به خدش أو بجلبابه أذى!!

fb/mashro3pdf

- ومَن تلك التي تزوجته وأنجبت منه كلارا؟!

- اختفى لويس المجذوب لزمنٍ ثم عاد ذات نهار وبين يديه رضيعة شقراء بديعة الملامح عمرها أيام، وكلما حاول الناس الاستفهام منه عنه، كان فقط يشير إليها بكلمة واحدة «كلارا»، قال الناس إنها حتمًا ابنته من زناه بالنداهة الرومية في العالم السُفليّ، وفي اليوم الثالث لظهوره بعد تلك الغيبة، وُجِدَ لويس عند الفجر ميتًا وبحضنه كلارا تبكي على قارعة طريق المعز جوار باب مسجد قلاوون، انقسم الناس في أمر دفنه إلى فريقين، أحدهما رأى مواراة جسده في مقابر النصارى، وآخرون اقترحوا دفنه بمقابر المسلمين خاصة وأنه سبق وقد ظهرت له معجزة ولابد أنه قد اعتنق الإسلام سرًا، وفي نهاية المطاف دُفِنَ لويس بمدافن المسيحيين بعدما حسم الجدل حول جثمانه أحد المُعمَّمين الأزاهرة، قال إنه طالما لم يشهد له أحد بنطق الشهادتين فهو كافر.

- وماذا عن ابنة الكافر؟!

- كلارا رفض تبنيها كل الخلق ما بين رهبة من أصلها السُفلي أو لكونها حتمًا ابنة حرام، بل إن بعضهم اقترحَ دفنها حيَّة جوار لويس قطعًا لسلالة النداهة!! إلا أن امرأة فرنسية عاقر ومقيمة بالحي من قبل مجيء الحملة صممت على احتضان كلارا وتربيتها، لتكبر كلارا في بيت هذه السيدة المجاور لبيت أسرة المعلِّمة روحية صاحبة الحمَّام، ومنذ البداية صاحبت كلارا روحية وعبر السنوات رافقتها وصارت مثلها سحاقية بامتياز!!

- المعلِّمة روحية سحاقية!!

- وهل سيُفرخ تكديس النسوة في الحرملك إلا سحاقيات!! روحية هي أستاذة كلارا ومُعلِّمتها منذ الصغر، في حياة روحية لم يكن ما هو

fb/mashro3pdf

أسعد من اليوم الذي ترملت فيه وتحررت من عالم الرجال إلى الأبد.

- ومن أين عرفت بكل هذا؟!

- هذا وأكثر عرفته من كلارا نفسها في ليلة كانت فيها هنا مكانك وعلى نفس هذه المصطبة.

- حقًّا!!

- هي جارتي بالأعلى وكنت قد سمعت عن سيرتها السحاقية من بعض أفراد الجالية وتعجبت!! أيمكن لهذا الجسد الجميل أن يزهد بذَكر يحيي استدارة انحناءاته؟! لذا دعوتها على العشاء ثم الشراب، بدأ النبيذ الأحمر يسري في عروقها، حاولت تقبيلها بشكل عابر فأثار هذا غضبها واشمئزازها، سألتُها لِمَ لا؟! فأكدت لي حقيقتها بلا مواربة أو مواراة أو خجل، ولما دار الخمر برأسها أكثر فأكثر، اعترفت لي بتاريخها وطبيعتها وتفاصيلها الدقيقة وحكايات الناس التي ورثتها من السيدة التي ربتها، عن أبيها.

- وبِمَ بررت عشق البنات؟!

- عبرّت بكلمات لم أنسها، قالت إنه لا أرق ولا أحن ولا أعلم بجسد الأنثى ومفاتيحها من أنثى مثلها، المرأة طاقة من حنان، وامتزاج حنان امرأتين يعني وهجًا شعوريًا لم تعرف له الدنيا مثيلًا!! نحن لا نعرف الأنانية مثلكم يا معشر الرجال، الأنثى لا تغادر أنثاها بالفراش إلا عقب التأكد من شبعها وسد جوعها برفقٍ بالغ لا يعرف القسوة أو العنف أو الهمجية، الأنثى لا تتسبب لعشيقتها في تشوه لجسدها عبر حمل ورضاعة وسخافة، الأنثى لا ترافق أنثى إلا من أجل حُبٍّ خالص ونقيّ لا يعرف أمثالكم عنه شيئًا، في فراش رفيقتي أشعر كما لو أني أعاشر روحي بالمرآة، لذا نحلّق سويًا بآفاق أبدًا لن نعرفها في أسِرّة الرجال!!

fb/mashro3pdf

- إلى هذا الحد!!

- سُمعة كلارا بين الجالية الفرنسية سهّلت كثيرًا من مهمتي أمام القنصل الفرنسي حين طلبت صباح اليوم وساطته لتسوية أمري معها بخصوصك، استاء الرجل وقال إنها دائمًا ما تضع سمعة الفرنسيين على المحك، لذا قرر بنفوذه حسم الأمر منعًا للفضائح بعدما تسببت حماقتها في جعل الشرطة طرفًا بنزاعات الفرنسيين وشهواتهم!!

وحينما انتهى كلوت من حكيه، اعتدل وبدون كلام حملني بين ذراعيه بعيدًا عن المصطبة والمشربية باتجاه الداخل!! استوقفته قائلة:

- كلوت، أنت تعرف أني مختونة فرعونيًا ولا أُصلِح لك.

تعقدت ملامحه ثم قال وهو يضعني برفق فوق سريره:

- سليمة، من فضلك، لا تكرري عليَّ هذا الحديث مَرَّة أخرى، صدّقيني، سأبذل لاحقًا خلاصة ما تعلمته لأعيدكِ من جديد.

ثم اقترب منّي جدًّا وأحاط وجهي الصغير بكفيه واستطرد:

- الرجل لا يشعر بحبيبته عبر ثغرها الذي في الأسفل ولكن بروحها التي في الداخل، روحها التي إذا توهجت توهج الجسد بأسره وانطلق ليحلّق بعيدًا في السماء، إثارة الأنثى لا تتأتى عبر تقبيل شفتيها أو الحديث إلى نهديها أو الانسلال بين ساقيها، الأنثى لا تُثار بحق إلا إذا عشق مَن أمامها تراب قدميها.

ومع ضوء الشمس المتسلل من المشربية استيقظت من النوم في سريره ولكني لم أجده، كان كلوت قد قام مبكرًا نحو اسبتالية أبي زعبل العسكري بجوار المعسكر العام للجيش في الخانكة عقب ليلة لم يكن فيها رجلًا بقدر ما كان ملاكًا!! ليلة قبَّل فيها جبيني ويديّ قبل أن يتفرغ لشفتيّ، اكتشف نهديَّ مُتسللًا نحو سترهما في حنانٍ بالغ، ولما

fb/mashro3pdf

تجلى لـه صـدري كامـلًا اتسـعت عينـاه بالدهشـة واكتسـت ملامحـه بنـور فتنتـي، فتأكـدت أني أجمـل إنـاث الدنيـا!!

ومـا كـدت أنتهـي مـن لـفّ نفسـي بالبشـكير عقـب طشـت ممتـع مـن المـاء الدافـئ، حتـى سـمعت طرقتـين متتاليتـين عـلى بـاب الـدار، سـترت ذاتي واتجهـت نحـو الطـارق، واربـت البـاب فلـم أجـد أحـدًا، فقـط زهـرة حمـراء متروكـة عـلى عتبتـه!! تُـرى هـل أرادتهـا إحداهـن رسـالة حـب لكلـوت؟! قـد يكـون ذلـك بالفعـل، لِمَ لا وهـو الثلاثيني الوسـيم الأشـقر صاحـب الطلَّة البهيـة والعينـين الزرقاويـن السـاحرتين والعطـر الـذي يبقـى بالمـكان؟! لـو قـورن بغـيره مـن شـباب الخرنفـش والمعـز وأمـير الجيـوش لصـار رجـلًا مـن السـماء!! قـد تكـون صاحبـة الزهـرة إحـدى عاشـقاته مـن خلـف المشربيـات والشـوق قـد اسـتبد بهـا، وقـد تكـون ذات حسـب ونسـب وابنـة لأحـد تجـار شـارع الأزهـر، لكنهـن في الأغلـب مسـلمات وهـو مـن النصـارى وهـذا قـد يُشـعل نـارًا لا قِبَـل لأحـد بهـا، لكنهـا أيضًـا قـد تكـون نجلـة لتاجـر ذهـب مسـيحي بشـارع الصاغـة، أو ربـما مُطلَّقـة يائسـة أو أرملـة ظمآنـة، وظمـأ الأنثـى ويأسـها لا ديـن لهـما!!

اشـتعل حطـب الغـيرة بقلبـي للمَـرَّة الأولى!! أحسسـت بالخطـر مـن امـرأة مجهولـة لا أعرفهـا، يـا إلهـي!! لمَ تسـتكثر عـليَّ الدنيـا الرجـل الوحيـد الـذي احتـواني؟! بـلا إرادة وجدتُنـي أواري تلـك الزهـرة كـي لا يكتشـفها كلـوت أو يُخمـن مـن صاحبتهـا الحُـرّة والتـي حتـمًا سـتكون أفضـل منّـي، أنـا في النهايـة مجـرد جاريـة رتـب لهـا محمـد عـلي - عـن دون قصـد - موعـدًا في مصـر بفـراش شـاب فرنـسي جميـل فصـار حبيبهـا!! في مختلـف الولايـات العثمانيـة كان مـن غـير الجائـز للمسـيحيين حيـازة الرقيـق، لكـن مسـيحيي مـصر تمتعـوا بـما لم يتمتـع بـه أمثالهـم في عمـوم أرجـاء الخلافـة، كان مـن

fb/mashro3pdf

حقهم مثل المسلمين شراء وبيع العبيد والإماء مع وجود حظر عُرفي عليهم تجاه اقتناء الشركسيات واللاتي كن من أجمل مسلمات الأرض، هذا الحظر العُرفي بدا أن من وضعه كان قوّادًا غير مُنصف!! ومع حكم محمد علي أجيز للأورُبّيين في مصر اقتناء الرقيق، لكنهم لم يكونوا جميعًا مثل كلوت، فعل بعضهم بالبنات هنا ما عجزوا عن فعله في بلادهم، كانوا يذهبون لأسواق النخاسين بدافع فضول مشاهدة ساحات تُباع فيها الأنثى وتُشترَى وتُعايَن، ولأنهم أحبوا المغامرة والمتعة وتجربة كل ما هو جديد، أقبلوا على شراء من تعجبهم بأموالٍ كانت بالنسبة إليهم زهيدة، وعقب انقضاء مغامراتهم كانوا يسارعون ببيعهن مقابل مال أو مقايضة ببضاعة أخرى، أو حتى إطلاق سراحهن دون مقابل زهدًا فيهن ودون مراعاة لما قد يكون متحركًا في أرحامهن!!

على أية حال، نفضت عن رأسي هواجس الغيرة وواريت الزهرة، ولكن ومع كل صباح كانت هناك زهرة جديدة تُترَك على عتبات الباب!! وذات صباح خرج كلوت كعادته مبكرًا نحو المستشفى ووضعت نفسي كالعادة داخل الطشت عقب ليلة أخرى من حُبّه العذري الشفاف، وما إن انتهيت حتى سمعت بالخارج عراكًا بين صوتي كلوت وشخصٍ آخر !! لم أدرِ ما الذي عاد بكلوت رغم أنه لم يفت على ذهابه أكثر من ساعة؟! ومع مَن يتعارك هذا الفرنسي الرزين؟! وفجأة بدأت الطَّرقات المجنونة على الباب!! فتحت فدخل كلوت مُمسكًا بفتى أسمر من قفاه، كنت عارية بين طيات بشكير فاتسعت عيناه أكثر وانخفض صوته مُتسائلًا بشك:

- ماذا كان يفعل هذا هنا يا سليمة؟!

جاء الرد مباشرة من الفتى الممسوك من قفاه:

fb/mashro3pdf

لا داعـي أن تظلمهـا يـا سـيدي، أُقسِـم بالواحـد القهـار إني لم أدخـل إلى بيتـك منـذ اليـوم الـذي أبقيتَنـي فيـه إلى جوارهـا وهـي محمومـة لحين عودتـك مـن المستشـفى، ألا تذكـرني يـا سـيدي؟! أنـا مـن الطواشـية، أنـا الخصيّ الـذي قمـت باسـتعارته يومهـا مـن صديقـك الصـاغ ناظـم أنـور.

حينهـا بـدأت علامـات الارتيـاح ترتسـم عـلى ملامـح كلـوت بينـما كانـت ذاكـرتي تعـود إلى الـوراء بسرعـة الـبرق الخـارق لـكل أسـاطير النسـيان!! واصـل الفتـى حديثـه:

- أنا خصيّ كما تعرف يا سيدي فلا تظلمها أرجوك.

وكأن شمسًـا حارقـة سطعت داخـلي فجأة عـلى أكثر صفحـات المـاضي إيلامًـا!! قلـت بحروف منتزعـة مـن قيعـان الذاكـرة:

- هل أنت سر الخاتم؟! أصِرتَ من الخصيان يا سرّ؟!

هـربَ سرّ الخاتـم منّـي بعينيـه بعدمـا انكشـفت حقيقتـه، لم تتحملـه قدمـاه فخـرَّ إلى الأرض جالسًـا ذاهـلًا مهزومًـا خصيًّـا بـلا قنـاع يسـتره أمامـي، أنكـر الهزائـم تلـك التـي تـأتي الإنسـان مـن الداخـل!!

بصوت متهدج من أثر الصدمة توجهت إلى كلوت:

- هـل تذكـر مـا رويتـه لـك عـن الفتـى الـذي انفجـر بجنـونٍ في وجـه العسـكر ونحـن عـلى ظهـر مركـب العبيـد القادمـة مـن شـندي؟! هـذا هـو سِرّ الخاتـم.

ثم توجهت بالحديث نحو سِرّ الخاتم الذي وضع وجهه بين كفيه:

- مـا زلـت أحفـظ آخـر مـا سـمعتُه منـك يـا سِرّ، سُـحقًا للباشـا وكل كلاب الباشـا، مـا ذنـب أمـي وأخـواتي، مـا ذنبنـا جميعًـا، التاريـخ لـن يرحمكـم، سـوف تُسـاقون إلى مزابلـه، وسـتُكتب سِـيركم في أدنـس صفحاتـه يـا هُتّـاك الأعـراض، كان هـذا آخـر مـا نطقـتَ بـه قبـل أنْ تُهـان وتُـضرَب

fb/mashro3pdf

ثم تُساق من قفاك إلى قمرة ببطن المركب، وها أنت قد دخلت عليَّ أيضًا هذه المَرّة مُهانًا ومُساقًا من قفاك!! أصبحتُ جارية وأصبحتَ خصيًّا!! أي جحيم هذا قُدّت منه مصائرنا!!

بدت تلك الكلمات شديدة الوطأة على إنسانية كلوت الذي لم يقو على الوقوف فسحب كرسيًا عند رأس المنضدة ودعاني وسر الخاتم للجلوس على جانبيها ثم قال بتحرج:

- ما جرى قد جرى، احكِ لي دون خجل كل ما حاق بك حتى صرت خصيًّا!!

أشاح سِرّ الخاتم بوجهه بعيدًا عن عيوننا محاولًا اجترار مراراته ثم روى بنبرات مكسورة:

- لم يمسسني العسكر بضُرّ منذ اقتادوني لقمرة في بطن المركب مع مجموعة من الصبية أصغر مني كعقاب غامض!! وفي مدينة تُدعى أسيوط تم إنزالنا من المركب وتسليمنا لعدد من كهنة النصارى!! قام هؤلاء باصطحابنا مقيدين ومعصوبي الأعين نحو قرية اسمها زاوية الدير، وحينما زالت العصابات عن عيوننا وجدنا أنفسنا بمكانٍ مريبٍ محاط بأسوارٍ عالية!! بعدها تم إيداعنا فيما يشبه زنزانة كبيرة، كنا حوالي أربعين صبيًّا وكان السؤال الدائر بيننا ببراءة:

- هل سيقوم هؤلاء الكهنة بتنصيرنا؟!

في هذه الزنزانة الفسيحة قدموا لنا المأكل والمشرب على نحوٍ أفضل كثيرًا من عسكر الباشا، ولا أذكر أن أحدًا منهم تحدَّث إلينا بسوء، فقط كانوا كالأشباح التي تتحرك فوق الأرض في صمتٍ غامضٍ!!

وذات فجر استيقظت على دوران مفتاح أحدهم في قفل الزنزانة، في البداية تم اقتياد أحد الصبية بمفرده ولم يقاوم لأنه لم يعلم إلى أين

fb/mashro3pdf

سيذهب!! وما هي إلا لحظات حتى سمعنا صرخته قادمة من الخارج بجنون، صرخة واحدة لم نسمع بمثلها من قبل، صرخة لم تتكرر ثم أعقبها صمت القبور، تسلل الفزع لقلوبنا، ثم تكرر هذا الموقف مع واحدٍ آخر وقد جُرَّ جرًّا إلى الخارج، لم نكن نعلم عن مصير هؤلاء الذين يجرجرون!! ولِمَ نؤخذ إليه فرادى؟! توالت الصرخات وحين جاء دوري كان النهار قد انتصف وكنت متكومًا بأحد الأركان في ذهولٍ، تم جرّي من الزنزانة وفي الخارج اتسعت عيناي كما لم تتسعا من قبل بعدما رأيت بهما ما لم أرَه من قبل!!

وجدت كل من خرج قبلي مدفونًا بالأرض إلى ما فوق بطنه غائبًا عن الوعي!! مع وجود آثارٍ كثيفة للدم بالمكان مختلطة بقطيعات صغيرة من لحم آدمي، وفي الجوار قِدر كبير يغلي بالزيت على النار!! وأطباق واسعة بها مساحيق داكنة اللون!! شعرت أن قدميَّ غير قادرتين على حملي من فرط الرعب، لكنهم حملوني وقيدوا جسدي إلى حجر كبير مرتفع، ثم جردوني من كل ملابسي وباعدوا بين ساقيّ، ثم انشقت الأرض عن أحدهم وقد اقترب مني بجسدٍ عارٍ إلا من سروال أبيض مثني إلى أسفل ركبتيه بقليل، لحيته كانت كثيفة وفوق شعر صدره الكثيف لمع الصليب، وبيمينه نصل فضي لمع هو الآخر تحت شمس أسيوط البغيضة، اقترب أكثر فأكثر، آخر ما أتذكره هو أن صرختي دوت في حين اندفع الدم من بين قدميّ!! لقد بتروا عضوي الذَكري وغبت بعدها عن الوعي!!

لم أدر عقب كم ساعة قد أفقت!! شمس يوم جديد أوشكت على البزوغ حين عدنا إلى الوعي تباعًا، كنت مدفونًا في الأرض إلى ما فوق بطني بقليلٍ مثل من سبقوني، مِنا مَن بكى ومِنا مَن انتحب ومِنا مَن

fb/mashro3pdf

صمتَ ذاهلًا، ومِنّا أيضًا مَن لم يفق أبدًا!! وحين اكتمل قُرص الشمس جاء إلينا أحدهم يمشي في ثياب الكهنة، وقف بالقرب منا يعزينا في ذكورتنا ويطالبنا بالصبر بعدما أصبحنا خصيانًا وصار لنا قيمة عظيمة وثمنًا باهظًا، حدثنا كيف أن القصور وكبار البيوت ستتهافت علينا، ثم أخذ يستفيض في الحديث عن أن هذه الحياة التي فيها السادة وفيها العبيد هي حياة عابرة قصيرة، ولا راحة أو سعادة إلا في فردوس السماء جوار المسيح وأبيه.

ثم أخبرنا بأن الأمانة تُحتِّم عليه مصارحتنا بكل ما حدثَ تفصيلًا وبصدقٍ في حدود ما يمكننا فهمه واستيعابه، قال إن أعضاءنا الذَّكرية قد بُتِرَت بالكامل، وفور البتر تمَّ صب زيت مغلي مكان القطع لإيقاف نزيف الدم المتدفق حرصًا على أرواحنا وإبقائنا على قيد الحياة، ثم تم تركيب أنبوب صغير فيما تبقى من مجرى البول مع دهن مكان الجرح بمسحوق الحناء قبل دفننا هكذا ليوم وليلة لنُستخرَج من الأرض مَرَّة أخرى وقد صرنا خصيانًا، فعليًا كان هذا الكاهن الرخيص يمهد لنا الصورة التي سنرى عليها أنفسنا عقب الخروج من تحت هذا التراب بعد قليل!!

تم استخراجنا تباعًا لدهاننا مجددًا في موضع الجرح بعجينة من طين وزيت كلمسة نهائية، كنا مسوخًا عارية!! لا نحن على شكل ذكور ولا على هيئة إناث، كنا مجرد خصيان، أسعدنا حظًا كانوا هؤلاء الذين لم يفيقوا مع حلول هذا الصباح، كنا حوالي أربعين ومات منا ما يزيد عن عشرة أرواح، ماتوا ذكورًا وعشنا خصيانًا، وفي الأيام التالية مات منّا ثلاثة خصيان متأثرين بجراحهم وعشت أنا رغم أني أكبرهم عمرًا، كان عمري حينها ثلاثة عشر عامًا ومن غير المعتاد بقاء هذا العمر حيًا

fb/mashro3pdf

في أعقاب البتر، كان الخَصي يُجرى عادة فيمن تتراوح أعمارهم بين ست وتسع سنوات، نجاح الخصي يحتاج لأجواء خريفية وأعمار أقل، لقد خُصيت على سبيل العقاب من العسكر لكنها إرادة الله التي قدَّرَتْ لي البقاء، ما زلت أتذكر الكلمات الغامضة التي قالها أحد كلاب محمد علي أثناء جرجرتي إلى قمرة المركب:

- يا له من بائس، سيتمنى أن تُنكَح أمه وأخواته أمام عينيه كل صباح ولا يعاود التفوه بهذا الهتاف!!

ظللت لفترة أتحاشى النظر إلى أسفلي هربًا من هيئتي الجديدة، ثم اضطررت بالنهاية إلى مواجهة الحقيقة بعدما ابتلَّ سروالي أكثر من مَرَّة لعدم إتقاني التبوُّل على هذا النحو الجديد، مما حتم عليَّ تأمُّل أبعاد طبيعتي المُخنثة بعناية كي أتقن كيف أتبوَّل دون بلل، وعقب تأكُّد الكهنة من تعدينا لهذه الفترة الحرجة تم اقتيادنا إلى القاهرة لبيعنا، وهناك تخطفنا الأثرياء وأبناء الذوات كما لو كنا أحجارًا كريمة!! يومها اشتراني «أنور باشا لاظ» مقابل مبلغ كبير وأحسن إليَّ ورعاني وربَّاني، ومن حينها وأنا أمين عوراته وقواد أبنائه وخزانة فضائح زوجته وبناته، الخصيان هم أمناء أسرار البيوت وسترها.

مرت السنوات وأنا أتمنى الموت في كل مَرَّة أتبول فيها، انتويت الانتحار أكثر من مَرَّة لكنني خفت أن أفنى كافرًا وأبعث في الآخرة إلى الجحيم وأنا الذي لم أعش بالدنيا نعيمًا، لذا استعنت كل ليلة بالبكاء والصبر والصلاة والدعاء على الباشا وعسكر الباشا، إلى أن جاء اليوم الذي استعرتَني فيه يا سيدي من صديقك الصاغ ناظم أنور لاظ لأقضي النهار إلى جوار سليمة وهي محمومة حتى تعود أنت من أبي زعبل، ما إن تركتني بجوارها حتى تذكَّرتُها رغم ضباب الزمن، وكأن

fb/mashro3pdf

شيئًا بداخلي عاد فجأة لينبض، لا أدري إن كنت بالفعل أحببتها أم هي ذكرى جميلة من زمن آدميتي المبتورة ورجولتي التي كنت على مشارفها؟! هل بالفعل أحببتها أم هي أريجٌ بعيدٌ من بقايا عطر شندي الجميلة؟! هذا الذي قد لا أشمه ثانية إلا بالجنة.

بقيت بعدها لأيام أتحلّق حول البيت في محاولة لرؤيتها مَرَّة أخرى، أتحين فرصة لأطل على ملامحها التي هي ملامحي!! صرت أتقفى أثرها لعلّي أجدها ذاهبة أو عائدة، وفي المرة التي خرجت فيها لشراء الأرانب والملوخية مشيت خلفها واقتربت منها إلى أن أصبحت جوارها تمامًا، كدت ألمس يدها وسط الزحام لكنني تراجعت، في لحظة خُيِّل إليَ أنها قد تتعرف عليَ وأنا الآن غير حُرّ وبالأحرى غير رجل، لذا لم أفعل ولم أقترب، اكتفيت بحنينٍ تحت ضلوعي ليلًا في سكوت، حنين ذكَّرني بأنه كان من المفترض الآن أن أكون رجلًا يحب امرأة، لكن عاري أجبرني على حُب سليمة في صمت، أحيانًا يكون الصمت المشرف أفضل من البوح بعار!!

لذا قررت أن أضع على عتبات سليمة زهرة مجهولة كل صباح ثم أطرق على بابها وأفرّ بحقيقتي كي لا ينكشف أمري، زهرة كل صباح فوق عتبات حبيبتي!! زهرة كل صباح فوق عتبات إنسانيتي!!

قالها سِرّ الخاتم دامعًا وكأنه ينعي رجولته أمامي، ما أقسى أن ينعي الرجل ذكورته أمام الأنثى الوحيدة التي أحبَّها!! قالها ثم وقف بصعوبة على قدميه وخرج مُغلِقًا الباب من خلفه في حين ظللت أنا وكلوت ذاهلين في صمتٍ مُطبَق من هول ما سمعنا، كسرَ صمتنا البائس صهيل لحصان في الخارج ومن بعده جلبة شديدة وأصوات صراخ، هرعتُ إلى المشربية وجدت سِرّ الخاتم مُلقى على الأرض

fb/mashro3pdf

والناس تتحوم حوله، انتفضت نحو الباب ومن خلفي كلوت مسرعًا، كالمجنونة فزعت نحو ابن بلدي ولا يسترني غير بشكير، زاحمت الذين يتحلقون حوله، هبطت على ركبتيّ واقتربت منه فوجدته ينزف من فمه، لحظة خروجه من الدرب الأصفر مُغنيًا بالهموم، صدمته عربة مسرعة في طريق المُعز وارتطم رأسه بالحجر، أسندت رأس سِرّ الخاتم إلى ذراعي، فابتسم مشدوهًا نحو الفراغ والدم يتدفق منه، فقط تمتم بأربع كلمات:

- رائحة شندي يا سليمة!!

ثم امتدت يد كلوت لتُغمض عينيه فصرخت.

شُيع جثمان سر الخاتم إلى مثواه الأخير في جنازة خرجت من باب النصر تقدمها أنور باشا لاظ وغلبت عليها البشرة السوداء، ثم مرت أيام كئيبة في أعقاب هذا الحادث الذي ساءت من بعده حالتي، سِرّ الخاتم كان مثالًا لمآساتنا جميعًا وقبل كل ذلك وبعده كنت دون أن أدري حبيبته فارتديت عقب رحيله السواد حدادًا عليه، كنت أشعر أني سبب موته، أما كلوت فقد تعامَل مع حدادي برُقيٍّ مُدهش ورِقّة ليست مُستغرَبَة عليه، كان إنسانًا ولم يحاول مسّ جسدي في هذا الأوان، فقط حاول الأخذ بيدي للعبور فوق تلك الأحزان المفاجئة، وذات صباح وفي محاولة لإخراجي من تلك الأجواء، قال مبتسمًا قبل أن يُقبّل رأسي:

- سليمة، لن أذهب اليوم إلى الاسبتالية، فقط مشوار قصير نحو دار القنصلية ولن أغيب، استعدي لمصاحبتي إلى حارة زويلة عندما أعود.

وحين عاد رأيته مبتهجًا كما لم أرَه من قبل!! عرفت منه أن القنصل الفرنسي أخبره أن الباشا قد انتوى الإنعام عليه قريبًا بلقب «بك» نظير

fb/mashro3pdf

جهده المخلص في مقاومة وباء الكوليرا الذي ضرب مصر قبل فترة، بعدها غنى كلوت بالفرنسية ورقص وأتى بزجاجة نبيذ من الداخل وصبَّ لنا كأسين في صحة اللقب الجديد، ثم احتضنني برفق وقال:

– حان موعد ذهابنا إلى الحارة، من أجل فرحتي عديني أن تخلعي عنك هذا الأسود.

– أعدك كلوت بك.

– يا إلهي منك!! لو سمعت أمي في قبرها اسمي هكذا من بين شفتيك لدبّت فيها الحياة من جديد.

ابتسمتُ وارتديت فستانًا ورديًّا مبهجًا ومركوبًا جلديًا فاخرًا وأسدلت فوق كل هذا فيضًا من حرير أسود غطّاني ثم سترت يديّ بجوربين ووجهي بالبرقع فلم يظهر منّي إلا عينيّ وحاجبيّ المرسومين بدقة، خرجنا معًا من باب البيت ويده مشتبكة بيدي وكأنه يباهي بي الجميع، كل الدرب يعرف أني جاريته لكنه أبدًا لم يشعرني يومًا بهذا، كنت إلى جواره حُرّة كريمة، ولبهاء طلّته في طريق المعز كنت أدرك أن الحريم في المشربيات يستكثرونه عليّ ويحسدونني عليه فأتشبث بيده أكثر، ولما انحرفنا يمينًا نحو الخرنفش سألته:

– ألن تخبرني لمَ نحن ذاهبين إلى حارة زويلة هذه؟!

– لمَ تصرين على إفساد المفاجأة؟؟

– قتلني الفضول.

– اليوم هو ٢١ بئونة وسيحتفلون في الحارة بمريم العذراء ومعجزتها في حل الحديد، منذ جئت إلى القاهرة وأنا عاشقٌ لسحر هذه الاحتفالات المنعقدة بالدروب الضيقة.

تعجبت من كلماته الغامضة لكنه أشار عليّ بعدم التعجل وسأفهم

fb/mashro3pdf

كل شيء في حينه، وبالفعل وصلنا إلى مدخل الحارة في حين كانت الناس مصطفة على جانبيها في بهجة عارمة، أخذني كلوت إلى داخل زويلة لأكتشف أن بالقلب منها كنيسة قديمة اسمها "العذراء حالّة الحديد"!!وجدت كلوت يصافح بحرارة أحد الكهنة الواقفين على بابها ويدعى أبونا مرقس والذي صافحه بذات الحرارة قائلًا بضحكة عريضة:

- يا أخي أنت عيبك الوحيد إنك كاثوليكي.

ثم قدَّمني كلوت للكاهن بصفتي صديقة مقرَّبة جاءت في زيارة له من الجنوب فزهوت بنفسي أكثر، بعدها تركنا مُرقس لنأخذ مكانًا بين المصطفين، وفي وسط الزحام الذي اشتدَّ مع الوقت وقفت أمام كلوت فاحتواني بيديه خشية أن يحتك بي أحدٌ عن دون قصد، ما أروع أن تشعر الأنثى بأمان في رفقة من يشعر أنها أمانة!! وسط تلك الأجواء الصاخبة مالَ كلوت نحو أذني راويًا:

- قبل قرون من الآن لم تكن هذه الحارة موجودة، لقد بحثت عن أصلها، حكايات الكنيسة المصرية تقول إن العائلة المقدسة مرت من هنا في رحلتها الشهيرة إلى صعيد مصر فقدّس الناس تلك المساحة وأقاموا كنيستهم عليها بعد حوالي ثلاثة قرون من مرور يسوع وأمه من هنا، ثم دخل العرب المسلمون مصر وتوالى حكامهم إلى أن جاء القائد جوهر الصقلي قادمًا من بلاد المغرب مستوليًا على مصر باسم الفاطميين، وعقب قدومه قرر إقامة مدينة جديدة في تلك البقعة النائية تكون عاصمة بهية للفاطميين وحاكمهم المعز لدين الله، رسم جوهر حدود الأسوار العالية للمدينة المنتظرة ومن الداخل خططها إلى حارات فكان قدر الكنيسة أن تقع داخل المدينة الجديدة وتحديدًا في

fb/mashro3pdf

حارة زويلة، هذا الاسم الذي اكتسبته الحارة من إحدى قبائل البربر التي جاءت مع القائد جوهر وسكنت جنباتها، احتوى أبناء القبيلة الكنيسة وسط بيوتهم ولم يتعرضوا لها بأذى، ثم مرت الأيام وجاء الأيوبيون وقائدهم صلاح الدين صاحب المذهب السني إلى مصر فقام بالقضاء على الفاطميين الشيعة والتنكيل بهم فتفرقوا في الأرض وتشتتوا، كان من هؤلاء المنكوبين أبناء زويلة الذين رحلوا عن الحارة لكن اسمهم ظل خالدًا فيها، بشر كثيرون عبروا حارة زويلة ومروا والآن جاء دورك كي تمرّين عليها يا حبيبتي.

اقشعرت روحي خلف البرقع من فرط صدقه وتلقائيته بكلمة حبيبتي، قالها وسط الجموع وكأنه يشهدهم أني حبيبته، لمعتْ عيناي فربت هو على كتفي بحنوٍ وابتسامة بليغة، ابتسامة طيّبت كل ما مرَّ بي من سنوات وما قد يمر، أدركت حينها أن بعض الابتسامات قد تواري كثيرًا من الجروح وتداوي وأنها كالعسل فيها شفاء!!

لم يأخذني مؤقتًا من هذا الرحيق الساري بعينيه سوى أجراس الكنيسة التي تعالت مؤذنة ببدء الاحتفال وسط تهليل الرجال وزغاريد النساء ابتهاجًا بالموكب الكهنوتي الذي بدأ في التحرك من بوابة الكنيسة نحو الخارج حاملًا أيقونة كبيرة للعذراء وبجوارها رجل عجوز وبينهما قضبان زنزانة!! كانت صيحات الرجال المحتشدين تدوي وزغاريد النساء تتعالى كلما مرت عليهم أيقونة العذراء، والجميع يشير نحوها في الهواء تطلُّعًا إلى بركتها، وحين مرت أمامنا الأيقونة التفتُّ نحو كلوت مائلة عليه وسط الزحام أسأله:

- من هذا العجوز الذي بجوار مريم في الأيقونة؟!

- متياس الرسول، وله قصة عجيبة معها، معجزة جعلت الناس يطلقون عليها حالّة الحديد.

fb/mashro3pdf

خرج الموكب يسارًا في طريق الخرنفش ومنه يمينًا في طريق الخليج ليكمل الدائرة عائدًا مَرَّة أخرى إلى الحارة، وعقب انتهاء مراسم الاحتفال هدأت الأجواء الصاخبة وصحبني كلوت نحو الكنيسة، عبرنا بوابتها الخشبية العتيقة ثم هبطنا إلى الأسفل عبر سلالم حجرية بيضاء مكشوفة إلى السماء وكأننا في طريق إلى جوف التاريخ، قال:

- نحن نهبط إلى الأسفل لأن الأرض التي شُيّدت عليها الكنيسة قبل قرون كانت تنخفض عن السطح الحالي لأرض الحارة بضعة أمتار.

في الداخل، رفعت البرقع عن وجهي، السكوت كان مدويًا إلا من همسات الدعاء، أما الهواء الساكن فقد عُبّق بنكهات الشموع التي أضيئت من أجل مريم، الأيقونات الملوَّنة على الجدران لم نكن نطل عليها بقدر ما كانت تطل علينا، أمام إحداها وقفت أتأمل مع كلوت في صمت ليأتي صوت خفيض من الخلف:

- هي أيقونات الأعياد السيدية الكبرى، من أقدم الأيقونات في مصر والعالم كله.

كان الصوت للأب مرقس كاهن الكنيسة الذي انضم إلينا ورافقنا بجولة عرفنا فيها على أيقونات المكان حاكيًا لنا عن قصة كل واحدة إلى أن قاطعه كلوت قائلًا:

- سليمة سألتني عن القديس الذي بجوار العذراء وبينهما قضبان من حديد في الأيقونة التي طاف بها الموكب في الخرنفش.

ابتسم الكاهن ودعانا للارتياح على دكة خشبية في الجوار، وبعدما طلب ثلاثة أكواب من العرقسوس البارد قص علينا:

fb/mashro3pdf

- بعد صعود المسيح إلى السماء، تفرَّق تلاميذه بالأرض ينشرون رسالته ومنهم متياس الرسول وهو القديس الذي رأيته بأيقونة الموكب، رحل متياس شمالًا ليبشِّر بالمسيحية في الأناضول بمدينة وثنية تُدعى برطس وبدأ الناس في اتباعه، ولما وصل الأمر للحاكم أمرَ بالقبض عليه وسجنه مقيَّدًا بأغلال من حديد تنكيلًا به، ثم وصلت أخبار متياس إلى العذراء في أورشليم فصلَّت بعمق الليل من أجل فك كربه ووقعت المعجزة، عقب صلاتها حملت سحابة ناعمة السيدة العذراء من أورشليم وحتى برطس، وقُرب الفجر وأمام بوابة السجن صلَّت مريم فانصهرت الأقفال والسلاسل وصارت كالماء، بعدها استيقظ الحاكم على الجلبة التي ازدادت حول قصره، كان أهالي المدينة قد تجمّعوا شاكين من ذوبان كل حديدهم، ولما استقصى عن السبب أخبره الحُرّاس عن سيدة غريبة جاءت إلى السجن عند الفجر وصلتْ صلاة عجيبة ذاب من بعدها الحديد، فأرسل في طلبها على ألّا يمسها أحدٌ بسوء وحين دخلت عليه سألها كيف فعلت هذا فأخبرته بأن من فعل هو الله الذي استجاب لها من أجل متياس، فطلب منها أن تصلي كي تعيد حديد برطس إلى ما كان عليه ففعلت وعاد حديد المدينة كله جامدًا، على الفور أشهَر الحاكم إيمانه وأمرَ بتحطيم كل الأوثان ومنذ ذلك الحين اقترنت معجزة حلّ الحديد بمريم العذراء، وأطلق أجدادنا اسم العذراء حالة الحديد على كنيسة حارة زويلة تبرُّكًا بمريم ومعجزاتها، لذا نحتفل به كعيد كل عام في مثل هذا اليوم الموافق ميلاديًا ٢٨ يونيو وقبطيًا ٢١ بئونة.

حينما انتهى الأب مرقس من حكيه كنا قد انتهينا من العرقسوس البارد فاستأذنّاه بالانصراف وهنأناه عائدين للدرب الأصفر، لكن

fb/mashro3pdf

كلوت اتجه بي نحو خان الخليلي!! وأمام متجر فاض بالبريق توقف بي ليفاجئني كعادته!! قرر أن يشتري لي خاتمًا ذهبيًّا!! ارتبكت من مداهمة البهجة على غير موعد!! رفعت البرقع وخلعت عن يدي الجورب، راح كلوت يجرب على إصبعي بعض الخواتم التي عرضها علينا الصائغ وأنا مستسلمة في دهشة، وأثناء إحضار الصائغ لمجموعة أخرى من الخواتم، مالَ عليَّ كلوت هامسًا بابتسامة دافئة أعرفها:

- لابد من الخاتم يا سليمة، إن للروح طقوسًا تراعى في عالم الجسد.

- لم أفهم!!

- أنت لستِ جاريتي، أنت شريكتي يا سليمة، لقد تأخرنا بعض الوقت حزنًا على سِرّ الخاتم، وآن آوان إعادتك من جديد كي تكتمل شراكتنا.

لم أفهمه تمامًا لكني تهت في خان الخليلي بين مفاجآت الروح وأحلام الجسد وبريق الذهب!! جعلني بكلماته شريكة في روحه وانتوى الليلة أن يصلح بوابة رحمي المهجور ثم اختار لي أحد الخواتم كهدية!! مشاعره الصادقة كانت نهرًا يفيض عليَّ بلا مقدمات لريّ شقوق العمر وجفاف السنوات!!

بالدرب الأصفر خلف ستر المشربيات استحممت ونمت له على ظهري، ثم وكأني عروس بليلة دخلتها مدَّ يديه بهدوء ناعم ليخلع عني ردائي الداخلي، كانت المَرَّة الأولى التي سأفتح فيها قدميَّ على هذا النحو منذ ختنتني زينب في شندي، كنت في حيرة بين الرهبة والخجل، رهبة منه كجراح وخجلًا أمامه كإنسان، تمنيت ألّا أكون أبدًا على هذا الحال في المرة الأولى التي أسفر له فيها عن مكمن عفتي، رفعت ساقيّ إلى أعلى وكأن سماء القاهرة تستند إلى أناملي الرقيقة، هكذا

fb/mashro3pdf

مـزح معـي في محاولـة منـه لإزالـة توتـري، ملـت بـرأسي بعيـدًا عـن زُرقـة عينيـه وزغـت ببصـري في الـلا شيء تاركـة لـه مـا تيسَّـر مـن شرفي، وبمجـرد اطلاعـه وفحصـه قـال بصـوت عميـق:

- أي شيطان هذا يوسوس للأم بختان ابنتها فرعونيًّا هكذا!!

ثـم أمسـك بأدواتـه وبـدأ عملـه لفـك خيـوط جسـدي وروحـي، استطرد بصـوت خفيـض وكأنـه يحـدث ذاتـه:

- لقـد حفـت البظـر كامـلًا وبـترت الشـفرين الكبيريـن والصغيريـن ثـم قامـت بحياكتـك لتغلـق هـذه البوابـة الورديـة تمامًـا، فقـط تركـت فتحـة صغـيرة جـدًّا لمـرور مـا يتحتـم مـروره، لكنـك رغـم كل هـذا مـا زلـت سـاحرة يـا سـليمة!!

لم أشـعر بنهايـة مهمتـه إلا حينـما وجـدت شـفتيه بشـغف العاشـقين تقبـلان قدمـي اليمنـى المعلَّقـة عـلى كتفـه الأيـسر، كان يُقبِّـل قدمـي بحنـوٍّ بالـغ وهـو يتمتـم بملامـح تتصبـب قليـلًا مـن العـرق وكثـيرًا مـن الشـوق:

- أميرتي البرونزية، كل شيء ما زال فيك رائعًا.

ثـم اسـتطرد بنـبرة خاشـعة وهـو يواصـل تقبيـل قدمـي ببـطء كأنـه يُصـلي إلى وجـودي بشـفتيه:

- صدقينـي، الختـان الحقيقـي ختـان الـروح لا الجسـد، أنـتِ أكمـل إنـاث الأرض وأروعهـم، أنـتِ فيضـان مـن البنـات!!

ثم حاولتُ في دلالٍ أن أسحب قدمي لكنه تمسَّك بها أكثر:

- لا يا سليمة أرجوك، دعيني أقبِّل تراب قدميك.

وفى كلـوت بوعـده وأعـادني مـن جديـد، جعلنـي أتوهـج كـما لم أتوهـج مـن قبـل حتـى فـاض منِّـي الرحيـق، حينهـا فقـط آمنـت بصـدق كلماتـه عـن أن الأنثـى لا تُثـار بحـق إلا إذا عشـق مـن أمامهـا تـراب قدميهـا.

***

fb/mashro3pdf

حسام

يا إلهي من هذا المشهد ومن تلك اللحظة ومن وصفك البارع لها يا سليمة!! أكاد أقع في غرام برونزيتك وأحسد كلوت على قدميك!! هذه الصفحة تحديدًا من أوراقك ليست بحاجة إلى مخرج أفلام وثائقية بقدر ما تحتاج مخرج أفلام روحية، الحمقى فقط في هذا العالم قد يُصنّفون هذا المشهد بين سليمة وكلوت جنسيًّا!!

هذه الصفحة تحديدًا سأصرّ على تجسيدها في الفيلم كما هي بدون حذف أو إضافة، وإن لم تسمح ميزانية الإنتاج بتصويرها على طريقة الـ "دوكيو - دراما" سأحضر فنانًا تشكيليًّا وأطلب منه أن يقرأ تلك السطور ومشاعرها ثم يبدع إحساسها بريشته وألوانه.

سأخبر الدنيا كلها بسرٍّ جديدٍ من أسرار التاريخ، سأصف للكون بأسره كيف جمع محمد علي بين برونزية سليمة من شندي وإنسانية كلوت من مارسيليا في سريرٍ دافئٍ بالقاهرة!! سأخلّد جدتك الفاتنة يا بشير.

***

fb/mashro3pdf

بشير

غَلْق الطريق بهذا الشكل سيجعلنا نتعفن داخل الميكروباص ونتحول لهياكل عظمية قبل الوصول لميدان رمسيس!! على سبيل التسلّي سأقلّب في جريدة الأهرام التي أشتريها كل صباح دون سببٍ منطقيّ كفعل موروث!! صفحة الرياضة أولًا، نادي القرن في الصدارة، لا جديد في ذلك، الأخبار المأساوية لنادي الزمالك الذي لم يرَ نورًا منذ تعاقد الأهلي مع لاعب الترسانة محمد أبو تريكة أفيون رائع لأمثالي، الانتقال إلى صفحة الأبراج قد يكون أكثر هذيًا وتسلية، الجدي برج الصابرين ولا يأتي في العادة إلا بآلام، ما هذه الصورة الكبيرة؟! مَن هذا؟! يا ربنا المعبود!!

****

حينها لم أكن مهتمًا بالسؤال عمن الذي أشعل حشود عساكر الأمن المركزي ثم زيَّن لها الخروج من بوابة المعسكر بغضب!! ولم يكن أمامي سوى أن أغضب مع الغاضبين وإلا سوف أُدهَس تحت الأقدام، كل الطرق كانت تؤدي إلى الخروج من المعسكر، ولكن إلى أين؟! إلى الشارع!! في هذه اللحظة لم نفكر بحجم الكارثة التي من الممكن أن تقع إن تدفقنا إلى الشارع بهذا الشكل!! لم نكن نعرف إلى أي

fb/mashro3pdf

هدفٍ سوف نخرج، هل للهرب أم إلى غير ذلك؟! لكننا خرجنا وما كان قد كان، بمجرد خروجنا تم قطع الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية، ولأول مَرَّة وجدَتْ الكائنات الجائعة نفسها وجهًا لوجه أمام الفندق الزجاجي الفاخر الذي طالما سال لعابنا عليه وعلى مَن فيه أثناء خروجنا الحزين وعودتنا البائسة من المعسكر بكل مأمورية، هذا الفندق ورواده كانوا من الأمارات اليومية التي جعلتنا على يقين أننا في هذه الدنيا مجرد حيوانات بلا ثمن، لم يكن هناك أقسى من نظرات روّاده المُنعمين نحو وجوهنا الكالحة خلف أسلاك نوافذ عربات الأمن المركزي كما لو كانوا يتفرجون على قرودٍ مضحكة بحديقة الحيوان ولم يبقَ سوى أن يرموا إلينا بأصابع الموز وحبات الفول السوداني من أجل أن يتسلوا ويسلوا أطفالهم، ولو أنهم فعلوا ورموا علينا لما ترددنا لحظة في التقافز من حولهم لالتقاط ما رموا!! كم كانت بطوننا الخاوية في شوقٍ إلى الفول السوداني والموز!! المكان الأنجس في التاريخ سيكون بانتظار هؤلاء الذين سخطوا جنود مصر إلى قردة باسم الوطن!!

على أية حال، جاءت لحظة الحقيقة ووجدت القردة نفسها أمام أشجار عامرة بالموز!! حشود المتمردين وجهًا لوجه مع الفندق الزجاجي الفاخر رمز الجنة ونعيمها في خيالهم!! أعترف أني اقتحمت الفندق مع المقتحمين، كل مَن بالبهو أصيبوا بذعرٍ رهيبٍ، للوهلة الأولى تخيلوا أن حضورنا المفاجئ من أجل القبض على مجرم خطير، لكنهم فوجئوا بنا نحطِّم كل ما نجده بطريقنا، حطمنا بجنونٍ ونهبنا كعوضٍ مشروع عن الآدمية المفقودة والحرمان الطويل!! وفي المطعم أكلنا كل ما أمكَن أكله ثم قمنا بتعبئة جيوبنا بأطعمة لا عِلم لنا بأسمائها!! آخرون اتجهوا إلى أرفف الخمور والمشروبات والعصائر الملونة

fb/mashro3pdf

وتجرعوا من أنهار الجنة كما لم يتجرعوا من قبل حتى دارت رؤوسهم، ومنّا مَن اتجهوا نحو الغرف للبحث عن كل شيء وأي شيء، أما أنا فقد كنت من هؤلاء الذين اقتحموا بدافع الفضول ومن أجل الاستكشاف بابًا كان مغلقًا، كان بحقّ بابًا من أبواب الجنة!!

دفعت الباب أمامي ومن خلفي العساكر ولم نصدق عيوننا، كادت ألسنتنا تتدلى من فرط المفاجأة!! وجدنا وراء الباب نساء تلك الجنة، عرفت فيما بعد أن هذا المكان اسمه وحدة الساونا، مصريات وأجنبيات مستلقيات بأجسادٍ بيضاء وخمرية وسط البخار الأبيض، اختلطت صرخاتهن بضحكاتنا الشيطانية، أكاد أقسم إنه في هذا المساء لم يكن بالدنيا ما هو أكثر هذيًا من هذا المشهد، نسوة عاريات في متناول عساكر أمن مركزي بُلهاء داخل حمَّام بخار!! هذا المشهد لا يمكن رؤيته إلا داخل فيلم كوميدي رخيص ولا أحد سيصدق أنه قد حدثَ بالفعل، كنا نحاول تقبيل أجسادهن على نحوٍ فطريّ غرائزي أثناء محاولتهن الهرب، كنا نمد أيدينا بنهم لا يُوصَف إلى ما تيسر لنا من أجسامهن أثناء الفرار، لم أغتصب أيَّ واحدة منهن ولم أسعَ لذلك، لكنها لحظات الجنون التي تصاحب هذه النوعية من المفاجآت غير المتوقعة، في النهاية تركناهن يخرجن من المكان وهن ملفوفات بالبشاكير، لحمهن الأبيض كان بديعًا وآخاذًا مثل نسوة الأفلام وكنا قد نسينا شكل الحريم..!!

خرجنا من هذا الفندق بعد أن اقتسمنا كل ما يمكن أكله ثم تركنا كل ما خلفنا حطامًا، واصلنا تدفقنا إلى الشارع مَرَّة حتى بلغنا ميدان الرماية وحينما نظرنا إلى جهة اليمين منه وجدنا حشودًا أخرى من رفاق الأمن المركزي آتية من طريق الفيوم، عرفنا منهم أنه قد حدث داخل معسكرهم تمامًا مثل الذي حدثَ عندنا، هل هي صدفة؟ لا يمكن أبدًا

fb/mashro3pdf

أن تكون صدفة.. الذي أشاع بين صفوفهم أخبارَ مدّ سنوات تجنيدهم وتخفيض قروشهم هو نفسه من أشاعها بين صفوفنا.. من أوحى لهم بحرق بعض ضباطهم هو من أوحى لنا بسحل بعض ضباطنا، ولا شك أيضًا أن من أوسع لهم طريقهم هو نفسه من أفسح لنا طريقنا!!

وقبل أن نتوجه إلى شارع الهرم كان متمردو طريق الإسكندرية قد التحموا بمتمردي طريق الفيوم لتبدأ عجلة انتفاضة الأمن المركزي في الدوران وعلى نحوٍ مرعب، دخلنا شارع الهرم ،لم تمتد أيادينا لمحال أكل عيش المصريين فهؤلاء ليسوا أقل منّا بؤسًا، فقط اقتحمنا العديد من الفنادق وعلب الليل ومحلات عصر الانفتاح وأندية شرائط الفيديو، كنا بلا عقل ننتقم من هذا المجتمع الذي طبعَ بكعوب نعاله فوق خدود وجوهنا، ولم نكن وحدنا في ذلك، بمجرد دخولنا الكتلة السكنية انضم إلينا العمال والفقراء والشحاذون وصاروا ينتقمون معنا بلا تمييز؛ ثأرًا من كل الظالمين في هذا البلد!

لم أدرِ كم ساعة مرت علينا ونحن نمارس نوبات هذا الجنون الذي لم نفق منه إلا حينما سقطت وسطنا أول قنبلة مسيلة للدموع وأربكتنا، وقبل أن نستوعب ماذا حدث كانت الثانية والثالثة قد أطلقتا تباعًا، مَن هذا الذي أطلق علينا تلك القنابل ونحن مَن كنا نطلقها على الناس ونضربهم بالعصي؟! ثم توالت القنابل ووقع منا مَن وقع وبدأنا في التفرق عشوائيًّا وسط الضباب، ومن وسط الدخان الأبيض شقت ماسورة الدبابة الأولى طريقها في شارع الهرم، لقد قام المشير أبو غزالة وزير الدفاع بإنزال الجيش إلى الشارع، يبدو أن ما أحدثناه لم يكن صغيرًا أو هينًا، في الحقيقة نحن لم نفعل شيئًا، نحن فقط نفذنا، لكن مَن الذي خطَّط؟! مَن الذي حرَّك؟!في الأحداث الكبرى يبقى الفعل دائمًا ماضيًا وكثيرًا ما يبقى مبنيًا للمجهول!! وسط الدخان الذي خيَّم

fb/mashro3pdf

على شارع الهرم جرينا مثل جرذان ضالة في الأرض من أمام الدبابات، قامت الشرطة العسكرية بإلقاء القبض على كل مَن وجدته منّا أو من غيرنا، أطلقتُ ساقيَّ للريح كما يقولون وركضت بلا وعي محاولًا الفرار، دخلت إحدى العمارات المطلة على شارع الهرم في محطة الطالبية ثم أغلقت بوابتها من ورائي، صعدت كما لو أني طائر بجناحين فوق السلالم، تجاوزت كل الطوابق سعيًا للوصول إلى السطح، وبالفعل وصلت إليه لكن بابه كان مغلقًا بجنزير وقفل حديدي، في أجزاء من الثانية فكرت بكيفية التصرف في هذا المأزق، كان من المستحيل العودة مَرَّة أخرى للشارع؛ لأن هذا سيعني القبض عليَّ لا محالة، لذا تركت باب السطح المغلق وهبط على السلالم بسرعة إلى باب الشقة التي في الطابق الأخير من العمارة، وبكلتا يديَّ وبلا هوادة ظللت أطرق على الباب، وفي اللحظة التي أيقنت فيها أن الشقة خالية أو أن سكانها عازفون عن الاستجابة هلعًا من طبيعة طرقي، فُتِح الباب فجأة وتحرك ببطء ثم انكشف تدريجيًّا عن رجلٍ ذي هيبة وشعر أبيض غزير، بدا أنه كبير الشقة، وجدني على بابه لاهث الأنفاس، حملق فيَّ بنظرات جامدة ومتأنية كأنه يتفحصني، كنت بوجهٍ شاحبٍ وزيٍّ عسكريٍّ رث، ومن المؤكد أنه قد ربطَ بيني والمعركة الدائرة في الشارع، ثم بدا أن قلبه قد رقَّ، ودون أن أقول أية كلمة أشار إليَّ بالمرور!!

بمجرد دخولي أشار عليَّ بالجلوس ثم دخل إلى إحدى الغرف، من الصورة الكبيرة المعلَّقة على الجدار أدركتُ أن الأسرة الساكنة في تلك الشقة مكوَّنة من خمسة أفراد، أب وهو الذي فتح لي الباب، وأم ترتدي الحجاب، وأمامها ثلاثة ذكور في مراحل دراسية مختلفة، لكن بدا أنهم جميعًا غير موجودين باستثناء هذا الرجل، وبدا أيضًا أن هذه

fb/mashro3pdf

الصورة قد مرت عليها سنوات نظرًا لطبيعة الفارق الواضح بين هيئة الرجل في الصورة المعلقة وهيئته التي استقبلني بها. وبعد لحظات خرج الرجل من الغرفة وأعطاني ملابس داخلية وهدمة شتوية من الكاستور ودعاني بصوته ذي الطبقات العريضة إلى دخول الحمَّام كي أستحم، كان انطباعي الأول عن الرجل أن له سطوة خاصة لا تعطي فرصة لمن أمامه إلا أن ينصاع لأمره، وقبل أن أدخل إلى الحمَّام استوقفني كي يوقد لي شعلة السخان، بعدها أغلقت الباب، خلعت ملابسي، وتحت المياه الدافئة دندنت بأغنية محمد منير احتفاءً بالاستحمام والنظافة:

عصرت جلبي الجواني على التراب الأسواني..

رِجع يا نوبة عنواني، كوم امبو رايحة وأمينة..

تعالى نلضم أسامينا..

ورغم أصوات الصراخ التي كانت تتعالى بالشارع، وطلقات الرصاص التي لم تنقطع، والقنابل المسيلة للدموع التي دوت بانفجارات مكتومة تميزها، كنتُ أنا في عالم آخر ظلَّ يمتلئ بالبخار حتى ذكَّرني بسيقان وصدور الحريم البيضاوات العاريات اللاتي كن في الفندق. بلا إرادة قارنت بينهن في خيالي ووفاء بنت عمي التي عُقدَ قراني عليها بتخطيطٍ من أمي ولم أدخل بها بعد، كم كن جميلات وكم كانت وفاء يابسة!! تحرك ما كان مني ميتًا وصَمتُ عن الغناء ثم مارست العادة السرية، استأنفت بعدها الاستحمام والدندنة باسترخاء أعمق، وقناعة مؤقتة، بدا أني بالفعل في حاجة إلى أنثى حتى وإن كانت وفاء بنت عمي!!

تجففت وارتديت الملابس الداخلية النظيفة والكاستور، ثم خرجت لأجد الرجل قد وضع على المائدة أطباقًا لطعام ساخنٍ وعظيمٍ، مشهد

fb/mashro3pdf

كـدتُ أن أفقـده مـن الذاكـرة، صينيـة بطاطـس باللحـم في الفـرن وأرز أبيـض بالشـعرية وملوخيـة وسـلطة خـضراء بالفلفـل الحـار، قـال وهـو يدعـوني للجلـوس:

- حظك حلو يا عسكري، قذفَ بك القدر في يوم طبخت فيه.

وأثنـاء الطعـام الـذي تناولتـه بنهـم تاريخيّ سردت عليـه حكايتـي بـكل تفاصيلهـا منـذ أن خرجـت مـن المعسـكر وسـط الحشـود وحتـى طرقـت عـلى بابـه، بـدءًا ممـا كنـت أعانيـه مـع زملائـي بالمعسـكر مـن ذُلٍّ ومهانـة، مـرورًا بالمنشـورات المجهولـة التـي وُزِّعَـت علينـا والأخبـار التـي كانـت فيهـا، وصـولًا لـكل الأحـداث المتلاحقـة التـي رمَـت بي أمـام عتبـة شـقته، شـجعني عـلى هـذا الحكـي شـعوري بأنـه رجـلٌ طيـب القلـب رغـم قسـوة ملامحـه بعـض الـشيء فضـلًا عـن المـذاق الرائـع لصينيـة البطاطـس، وبالطبـع لم أسرد عليـه الجـزء الخـاص باقتحامـي الفنـدق مـع آخريـن، وعندمـا انتهيـت مـن الأكل والحكـي، قـال:

- حسـنًا، يجـب أن تبقـى هنـا في الشـقة معـي لبضعـة أيـام حتـى تهـدأ الأمـور قليـلًا في الشـارع خاصـة وأنهـم قـد أعلنـوا حظـر التجـول.

- حظر التجول!!

- وهـل كنـت تتصـور ورفاقـك شـيئًا مختلفًـا؟! لقـد ارتكبتـم مصيبـة، عـلى كل حـال لـو نزلـت مـن هنـا فسـتلقى مـا لا يُحمَـد عقبـاه، والآن قـم وأدخِـل هـذه الأطبـاق المطبـخ واعمـل لنـا برَّاد شـاي، ولا تخجـل، البيـت بيتـك يـا «ابـو سـمرة».

هكـذا اختـار أن ينادينـي نسـبة إلى بـشرتي السـمراء، وعندمـا أردت أن أخـبره باسـمي، قاطعنـي بحسـم قائـلًا:

- لا أريد أن أعرف، سمَّيتُك أبو سمرة وانتهى الأمر.

fb/mashro3pdf

أصر الرجل أن يجهل اسمي إلى الأبد واحترمت رغبته!! ثم دخلت المطبخ وانتهيت من عمل الشاي واتجهت بالصينية نحو الصالة، وجدتُه جالسًا على الكنبة يشاهد نشرة أخبار القناة الأولى بالتليفزيون، كان خبرها الأول عن فرض حظر التجول بسبب الأحداث التي وقعت بعدد من معسكرات الأمن المركزي، وفهمت أن ما وقع هنا بالجيزة قد وقعَ مثله في معسكرات القاهرة والقليوبية والإسماعيلية وسوهاج وأسيوط، ثم انتهت النشرة وبدأت الأغاني الوطنية بدلًا من البث المعتاد، وبعد سكوتٍ وتفكيرٍ عميقٍ ظهرَ على ملامحه، أمسك الرجل بعلبة سجائره ومدها لي فسحبت واحدة على استحياء ثم سحب أخرى لنفسه وأشعلها بعود كبريت، وقال وهو ينفث دخانه:

- أنتم قلبتم الدنيا، الجيش في الشارع والبلد كلها في قبضة أبو غزالة، من الممكن جدًّا وبسهولة أن يطيح بمبارك الآن من القصر ويجلس مكانه.

رددت منكمشًا من هذه الأسماء الكبيرة التي ذكرها:

- أقسم بالله يا باشا العساكر أبسط من هذا بكثير.

قاطعني منزعجًا:

- لا تناديني «يا باشا»، قل لي يا حاج.

ثم استكمل:

- أعلم أنكم أبسط من تلك اللعبة الجهنمية، لا أعرف كيف أسهِّلها لك، لكن سأحاول، هل تعرف كيف تلعب الشطرنج؟؟

- على قدّي يا حاج.

- حسنًا، مصر مثل رقعة الشطرنج، على أرضها دائمًا صراع بين الأفيال والفرسان وأصحاب الطوابي والوزراء والملِك، وفي هذا الصراع

fb/mashro3pdf

هناك مَن يحرِّك العسكري، وهناك مَن يختبئ خلفه، وهناك أيضًا مَن يضحّي به.

- هل تقصد يا حاج أن أحدًا هو الذي حرَّك كل هذه الجموع من العساكر؟!

ردَّ وهو يضحك ساخرًا:

- ما شاء الله عليك، أنت أذكى عسكري قابلته في حياتي، مَن الظالم الذي قال إن أفراد الأمن المركزي أغبياء!!

قلتُ في حزنٍ:

- وحتمًا سأكون ممن يُضحَّى بهم وسأحَاكَم وأسجن وسيضيع مستقبلي.

صَمتَ وهو يُفكر كأنما يبحث عن شيء ضائع ثم ردَّ:

- لا لن تُسجن.

- كيف؟!

- ألم تحكِ لي أن مكتب الأفراد بالمعسكر والذي به سجلات إجازاتكم قد احترق بكل ما فيه؟؟

- صحيح.

- إذن اسمع منّي جيدًا، طالما لم يُقبَض عليك متلبسًا بشيء فأنت في أمان، وعقب أيام ستعود إلى معسكرك بشكلٍ طبيعيّ، وحتى لو حاكموك ستقول إنك كنت في إجازة من قبل اندلاع الأحداث بيومٍ أو اثنين، ولن يستطيع أحد إثبات غير هذا.

وكأنه ألقى إليَّ بطوق نجاة وأنا أغرق، انتفضت من مكاني واحتضنته وقبَّلته وأنا أصرخ من الفرحة:

- يحيا العدل يحيا العدل.

fb/mashro3pdf

ضحك بشدة ثم سكتت ضحكته تدريجيًّا واستكمل كلامه بصوتٍ عميقٍ بعد أن أنزل كوب الشاي من على فمه وسرح بعينيه وكأنه يتذكر شيئًا بعيدًا:

- مساكين عساكر الأمن المركزي، شهدت اختيارهم من معدومي العِلم وبغال الجسد كجيش قوي من الأغبياء في مواجهة هذا الشعب لو تمرد!! ولم يحسب أحد حساب اليوم الذي قد يتمرد فيه هؤلاء!!

بعد جملته الأخيرة انكمشت في نفسي أكثر وتقزمت، منذ اللحظة الأولى شعرت أن له هيبة وسطوة لا تتماشى أبدًا مع جلبابه الذي يرتديه وإنسانيته معي!! سألته ولساني يكاد يتدلى من فرط الدهشة والعجب والخوف والرهبة:

- مَن أنت يا باشا؟!

لم يجب لكنه ردَّ مَرَّة أخرى وبضيقٍ شديد:

- ألم أقل لك قل لي يا حاج بدلًا من يا باشا!!

أقمت بالشقة عدة أيام لم يسمح لي فيها بأي سؤالٍ فضولي، غسلت ملابسي الداخلية والعسكرية وقمت بنشرها على حواف بعض المقاعد كما أشار عليَّ كي لا تلفت نظر أحد وهي على الحبال، وفي اليوم الأخير أعطاني حذاءً وملابس مدنية أرتديها وأخرج بها وبدا أنها قديمة وتخص ابنه الأكبر الذي في الصورة، أما ملابسي العسكرية فقد وضعتها مع البيادة بكيسٍ بلاستيكي أسود لا يكشف ما فيه، وعند الرحيل لم أخرج من باب العمارة خشية كمين الشرطة العسكرية الذي ظلَّ ثابتًا بالقرب من البيت، لذا ومن أجل الأمان استأذنته في فتح باب السطح، وبفضل التدريبات التي تلقيتُها في المعسكر استطعت القفز من فوق سطح البيت إلى أسطح بيوت أخرى كي أفرّ بعيدًا عن احتمالات

fb/mashro3pdf

الكمين، وبالفعل استطعت الهرب من تلك المنطقة التي كانت أشبه بمنطقة عمليات عسكرية، وأخيرًا وصلت بيتنا في السكاكيني، طرقت عليهم الباب وفتحوا لي ثم تعالت صرخات فرح كل الموجودين ابتهاجًا بوصولي، لم يصدقوا أني على قيد الحياة وأني بخير، واحتفالًا بنجاتي قرروا أن أدخل بوفاء بنت عمي في نفس الليلة!!

****

أنا مذهول من السطور المكتوبة بالأهرام عن صاحب الصورة، هو نفسه الحاج المجهول الذي أصرَّ قبل سنوات ألا أعرف اسمه أو يعرف اسمي!! هو الذي أنقذني في فبراير ١٩٨٦ لوجه الله!! وقبل أن أغادر شقته احتضنني هامسًا في أذني بطلب غامض لم أستوعبه، قال:

- سامحني يا ابو سمرة، سامحني يا ابني.

« اللواء سامح الغول، الخبير الأمني وأحد مؤسسي قوات الأمن المركزي في مصر، رحل بالأمس عن عمر يناهز التسعين، كانت أسرته كلها قد رحلت في صيف ١٩٨٥ حين انسلت أسياخ حديدية من فوق عربة نقل إلى داخل سيارة زوجته وأولاده، ليعتزل الدنيا كلها عقب انضمامه لإحدى الطرق الصوفية»..

رحمك الله يا حاج سامح وغفر لك، أهنتني وغيري بيدك، وبيدك الأخرى آويتني وجعلت لي مخرجًا، سأحتفظ بعدد الأهرام كي أُطلِع عليه حسام، هو الوحيد الذي اعترفتُ أمامه بتفاصيل ما فعلته داخل وحدة الساونا، وكيف نجوت من هذه الأحداث، بعدما باح لي في ساعة صفاء بأسرار ليلة العمر التي جمعته برئيسته في الإسكندرية!!

***

fb/mashro3pdf

حسام

خيم الغروب على السكاكيني، رئيسة القناة تنتزعني مجددًا من بين أوراق سليمة، للمَرَّة الرابعة تتصل وللمَرَّة الرابعة لا أردّ، سأخبرها لاحقًا بأني كنت نائمًا من فرط التعب، ربما تريد أن تطمئن عليَّ بعد اعتذاري المفاجئ في الصباح بحجة الإرهاق، وربما تريد أن أؤنس الليلة وحدتها في شقتها بالزمالك، نفسيًا وجسديًّا أنا غير مؤهل اليوم على الإطلاق لشيء من هذا القبيل!! صغيرًا وأنا أشاهد سحر العزايزي في التليفزيون، لم يخطر ببالي أن يكون لي معها قصة على هذا النحو في باحات ماسبيرو الخلفية!!

****

حتى أتمكن من البقاء داخل مبنى التليفزيون قبلت أن أكون مخبرًا غراميًا لسحر العزايزي، نقلتُ إليها كل كبيرة وصغيرة عن رفيقها عماد الدرملّي وغريمتها رانيا عز الدين، بدءًا مما يقولانه أمامي ووصولًا للرسائل الغرامية بينهما باعتباري مساعد رانيا ويدي قريبة من هاتفها، هذه المهام الرخيصة رسخت مكانتي عند سحر وضاعفت من ثقتها بي، وبناء عليه حجزَتْ لي مكانًا في القناة بشكلٍ آلي عقب التخرج مباشرة لأترقى من مساعد مخرج تحت التمرين إلى مساعد مخرج في

fb/mashro3pdf

انتظار التعاقد الرسمي.. في عوالم الرغبة قد يصبح كيد النساء وقودًا للمستقبل!!

ولم يكن هناك ما هو أكثر سوادًا على سحر العزايزي من اليوم الذي دخلت فيه إلى مكتبها لأجد بين يديها بطاقة دعوة ذهبية اللون لحضور عقد قران عماد ورانيا، هكذا وبدون مقدمات اجتماعية معتادة مثل الإعلان عن قراءة فاتحة أو إشهار خطوبة، لم يشعر أحد بما كان يعتمل داخل صدر سحر من قهرٍ قدر ما شعرت أنا، كنت أدرك مدى غيرتها على عماد ومدى ارتباطها به رغم فارق العمر بينهما، ومثل باقي العاملين كنت على يقين من حب عماد لرانيا رغم رؤيتي له وهو يعتصر شفتي سحر بمكتبها في دوامة عاتية من دوامات العشق!! مُنذ هبط آدم إلى الأرض وأفعال الرجل الجسدية لا يمكن الاستناد إليها أبدًا كبرهان على صدق مشاعره!!

في هذا اليوم ظلت سحر بمكتبها حتى وقت متأخر، منذ تسلمت مظروف الدعوة لم تسمح بدخول غيري، فقط أضاءت اللمبة الحمراء أعلى بابها واستدعتني، ثم انهزمت أمام مقاومة الدموع وهي تقول:

- عماد سيتزوج رانيا، كنت أعرف أن هذا اليوم سيأتي آجلًا أم عاجلًا.

كُسرت سحر في داخلها، رأيتها كما لم أرَها من قبل!! سمحتْ لنفسها بالانهيار أمامي ثقة بي، وبعد أن كفت دموعها عن السقوط سألتني بصوت شارد:

- حسام، هل لديك أي ارتباط غدًا؟؟

- تسجيل حلقة ومن بعدها مونتاج للصبح.

دون نقاش رفعَتْ السماعة وأمرت السكرتير بإسناد كل شغلي خلال

fb/mashro3pdf

اليومين المقبلين إلى مساعد مخرج آخر!! ثم وضعَتْ السماعة وقالت:

- سنسافر الإسكندرية الليلة.

اندهشتُ وصمَتٌّ!! هل سأسافر مع سحر؟! ولماذا؟! ثم استطردتْ قبل أن أنجح في استيعاب أي شيء:

- اذهب الآن وحضّر شنطتك وسأنتظرك تحت كوبري غمرة بسيارتي في تمام التاسعة مساءً، سنكون بالإسكندرية عند منتصف الليل.

أخطر الانهيارات العاطفية تلك التي يعقبها محاولات غير محسوبة للانقلاب على الواقع!!

قبل الموعد حملت شنطتي الصغيرة نحو المكان المتفق عليه أسفل الكوبري واصطحبت مالًا يكفي إقامة ليلتين بفندق سكندري متواضع، بطبيعة الحال لم يكن باستطاعتي دفع مقابل أي فندق قد تقيم به سحر، وبمجرد خروجي إلى شارع رمسيس وجدت سحر قد وصلت قبل موعدها، انتظرتني داخل سيارتها السوداء ذات الدفع الرباعي وقد ارتدت نظارة أيضًا سوداء، ربما لأن عينيها كانتا على غير ما يرام من فرط البكاء.. ربما حتى لا يعرفها أحدٌ من المارة، وربما محاولة يائسة للاختباء من مرارة الواقع! صعدتُ جوارها فتحركت وانحنت يسارًا صاعدة كوبري أكتوبر، قالت:

- كلما ضاقت بي الدنيا بحثت عن الفرج أمام البحر، حين تتقدم بك السنوات ستكتشف أن الطريق إلى الإسكندرية في حد ذاته سبيلٌ للخلاص، لا يُطيب الروح من جروحها قدر الوقوف أمام بحر الإسكندرية ليلًا.

وعقب عبورنا بوابات القاهرة أغلقت سحر زجاج السيارة اتقاءً

fb/mashro3pdf

لبرودة مُنتصف نوفمبر، فقط تركَتْ جزءًا صغيرًا يسمح بخروج دخان السيجارة التي أشعلتها، ثم ضغطت زر تشغيل الموسيقى، ومن الوهلة الأولى تعرفتُ على هذا الاستهلال المُخملي لسِحر الآلات الاسكتلندية، كانت المقطوعة الملائكية الأروع التي صاحبت أكثر مشاهد فيلم «القلب الشجاع» حنانًا، من المؤكد أن آلهة للموسيقى قد شملت جيمس هورنر برحماتها لحظة تأليفه مقطوعة «من أجل حب الأميرة»!!

ظلت سحر لدقائق تستمع للموسيقى في صمتٍ وتنفث دخانها بعمق، وفجأة تنهدَتْ من أقصى نقطة في داخلها ثم باحت من تلقاء نفسها:

- هل تعرف يا حسام؟؟ في كل مكالماتي مع عماد، كثيرًا ما همس لي قبل الفجر بأني لست امرأة عادية بل أميرة من أميرات الحكايات، وعندما كنت أسأله لماذا يراني كذلك؟! كان يطلب منّي أن أنهض من فوق السرير حالًا وأضيء الغرفة وأقف أمام المرآة لأتأكد من صِدق كلامه!! كنت أرد عليه بنفس الهمس وبذات الدلال الذي تجيده الأنثى في مثل هذا التوقيت من الليل «اسكت يا مجنون»!! لكنني بالفعل ودون أن أخبره، كنت أقوم وأضيء النور لأطالع نفسي بالمرآة شاردة بقُبلات شفتيه البطيئة في السماعة، كنت أتحسس شعري وأتلمس جسمي وأصدِّق كل ما يتفوه به عني، وفي كل مَرَّة عقب انتهاء المكالمة، كنت أشغل مقطوعة جيمس هورنر «من أجل حب الأميرة» وأستعيد على خلفيتها كل كلماته.. الأنثى من الكائنات الروحية التي تقتات في وحدتها على سماع الغزل الليلي.

سألتها على استحياء وعقب تردد:

- هل كان حقًّا عماد يحبك يا مدام؟؟

fb/mashro3pdf

- حين نكون وحدنا ناديني باسمي دون ألقاب سخيفة.

أعدت السؤال بحرجٍ بالغ:

- هل كان عماد يحبك يا سحر؟

ابتسمت وقالت:

- هل تصدق أن اسمي هكذا شكله منك أحلى.

ثم استطردت:

- ما أنا متأكدةٌ منه هو أني قد تعلقت به، كان بالنسبة إليَّ طوقًا للنجاة. في البداية حينما اقتربت منه واقترب منّي كنت على وَشَك الطلاق الرسمي عقب سنوات من الانفصال الوجداني، ورغم فارق العمر بيني وعماد إلا أني شعرت بارتياح بالغ له أثناء الحكي والفضفضة، وبعد الطلاق وجدت نفسي رغمًا عني أتشبث به أكثر، المرأة عقب الطلاق تكون في جوعٍ بالغ إلى أذن تستمع وصدرٍ خشن تمسح فيه دموعها.

- وهل كان عماد هو تلك الأذن وذلك الصدر؟

سألتها وأنا أمد لها يدي بالولاعة وبين شفتيها سيجارة جديدة ترتجف من وطأة صدقها بالاعتراف والحكي، قالت:

- نعم كان كذلك وعلى أكمل وجه، لن أنسى هذا المساء الشتوي المطير الذي خرج فيه طليقي ومن خلفه المأذون والشهود، بمجرد غَلْق الباب وجدت نفسي وحيدة وسط الصالة الواسعة ولا يوجد سوى تماثيل برونزية على الأرفف ولوحات زيتية على الجدران، فضلًا عن دقات بندول الساعة ونقر زخات المطر على الزجاج خلف الستائر.. ترتدي المرأة لحظة الطلاق قناع تماسك زائف!! ولم أجد إلا عماد أخلع أمامه كل أقنعتي!! اتصلت به كي أخبره بإتمام الطلاق ووحدتي

fb/mashro3pdf

وفزعي، قابلني عقب أقل من ساعة، صرنا نتجول في كل شوارع القاهرة الزلقة، حكينا وحدنا في طرقات الشتاء الخالية، وفضفضنا عن أوجاعنا على أرصفة الجسور اللامعة فوق النيل، احتسينا الشاي الثقيل من الأكواب الرديئة وعند الفجر شربنا حمص الشام حارًا من عربة كان صاحبها في هذا التوقيت أشبه بالمنوَّم مغناطيسيًا فتغامزنا عليه وضحكنا حتى دمعت عيوننا، طالعنا عناوين الجرائد طازجة برائحة المطابع، ثم عاد بي إلى البيت ولم يتركني إلا مع أول شعاع ناعم قادم من بين السحب القاتمة، خدَّر عماد آلامي بليلة من أصعب ليلات حياتي فنسيت معه كل شيء.. والمرأة منا أبدًا لا تنسى جميلًا روحيًا أُسدي لها ذات ليلة باردة في حضن رجل دافئ.

- جَميلٌ روحي!! أنت تدركين إذن منذ البداية أنه جميل وليس حُبًّا!!

- هو جميل روحي ليس أكثر، أنا لست بنتًا ساذجة أو امرأة غبية، حينما صعد برفقتي إلى الشقة في نهاية الليلة واحتضنني، أدركت أنه يُطيب خاطري عبر مخدر موضعي للروح، حقنَه لي دافئًا وأنا بين ذراعيه، وأنا لم أرفض هذه المخدرات الروحية بل سعيت إليها مجددًا رغبة منّي في تضميد جراحي!! تمسكت به رغم علمي أن الوقت اللطيف الذي يقضيه معي حتمًا سيكون له آخِر، الحكمة تقتضي أن ما لا يُدرَك كله لا يُترَك كله، عماد كان ماكينة شابة ومثالية لصناعة الحب، والمرأة في عصر الجفاف قد يدفعها الظمأ إلى الرضا بأي ماكينة لغزل المشاعر!!

- ألم يشعرِك فارق العمر بشيءٍ من عدم الارتياح؟!

- لقد أتقن كيف يجعلني فتاته وأنا على عتبات الخمسين!!

fb/mashro3pdf

الغزل من عماد كان حلوًا ومختلفًا، صدقني يا حسام، يبارك الله لهؤلاء الذين يرفقون بآثار حُسن المرأة القديم، والملائكة في السماء تلعن هؤلاء الذين يُشعِرون الأنثى بأن العمر قد تقدَّم بها!!

- السؤال الذي يُحيِّرني، هل كنت تعرفين شيئًا عن حبه لرانيا أم ستر عنك أمرها؟؟

- حب عماد لرانيا لم يكن مفاجأة بالنسبة لي، منذ البداية وأنا أعرف أمرَها، كثيرًا ما اشتكى داخل حضني من عشقه لحبيبته وتعنُّت أبيها في زواجه منها!!

- وهل كنت راضية بهذا الوضع؟!

- كنت عشيقة مثالية!! كنت قابلة وراضية!! عماد كان يتناسى همومه بين ذراعيَّ مثلما كنت أخدِّر أوجاعي بين ذراعيه، حضنه كان آلة للزمن أعود بها كثيرًا نحو الوراء!!

- إذن حبه لرانيا لم يشكِّل لك أزمة منذ البداية؟!

- الأزمة التي أمرّ بها الآن هي أزمة كل امرأة حلمت بأن يتحول رفيقها إلى شريك حياة، وعماد لن يتزوجني أبدًا، ليس لأني أكبر منه بعشرين عامًا، ولكن لأن الرجل الشرقي بصفة عامة لا يفضل الارتباط رسميًّا بمن رافقها حتى وإن دقَّ قلبه لها!! الشرقي دائمًا يبحث عن أخرى شريفة لم ترافق أحدًا من قبل، أو بالأحرى لم يعرف أنها رافقت أحدًا من قبل!! هذا الكائن الذكوري الأحمق يريد أن يقنع نفسه بأنه الرجل الأول في حياة شريكته، تلك الشريكة التي ربما قصَّ شريط بكارتها من قبل وأجرَتْ عملية ترقيع في عيادة رخيصة بواسطة طبيب أرخص، أو ربما سلَّمت كل جسدها دون المساس بعذريتها لحبيب في شقة، ومن بعده صديق في سيارة، ومن بعدهما مدير خلف باب مكتب

fb/mashro3pdf

في رحلتها نحو الصعود، ليأتي في النهاية ذَكر أحمق يطلب الزواج من صاحبة الصون والعفاف، لقد صرنا أمام مشهد ضخم، كل رجل فيه صار يتزوج من رفيقة الآخر، لا لشيء سوى لأنهم جميعًا يترفعون عن الزواج من رفيقاتهم لاهثين خلف أساطير الشرف، ونصيحة منّي، إذا عشقت وتسنى لك فرصة شراكة أبدية بعشيقتك فلا تجعل صفحة من تاريخها معك أو مع غيرك تُفسد عليكما هذه الفرصة النادرة، حاسبها بدءًا من اليوم الذي أحبَّتك فيه بعيدًا عن خيالات الذكور حول الشرف!!

وصلنا إلى الإسكندرية عقب منتصف الليل بقليل، ومن بعيد اكتسى البحر بغطاء فضي ساحر بفعل ضوء القمر، الأسفلت كان لامعًا من أثر بعض أمطار الخريف، تركنا محرم بك ومصطفى كامل ورشدي ثم عبرنا من فوق كوبري ستانلي البديع نحو سان استيفانو وميامي وسيدي بشر والمنتزة، لم تلتفت سحر إلى أيٍّ من الفنادق المعروفة أو المجهولة، دخلت بنا بوابة المعمورة التي كانت في مثل هذا التوقيت من العام أشبه بقطعة من الجنة هجرها أصحابها لسبب غير معلوم، قالت:

- من المؤكد أنك تشعر مثلي بالجوع.

ثم توقفت أمام محل للأسماك، دون أن تنزل هرع إليها صاحب المحل الذي تعرَّف على سيارتها واحتفى بها كزبونة دائمة، أتى لها بطلبها دون أن تطلبه ووضع الكيس الأبيض الكبير في الكنبة الخلفية، ثم تحركت بالسيارة لتتوقف بنا مَرَّة أخرى أمام بناية أنيقة بيضاء من طابقين تطل على البحر مباشرة، أغلقت المحرك وقالت:

- هذا المأوى الخلاب كان أفضل ما تركه أبي رحمه الله.

حينها تيقنت أني لن أقيم في فندق مختلف في المستوى عن فندقها،

fb/mashro3pdf

ولا حتى في غرفتين متجاورتين داخل نفس الفندق وإنما في بيت واحد!!

أدارت المفتاح في الباب وأضاءت الأنوار في الداخل وفتحتْ النوافذ الخريفية، بدا المكان منسّقًا بعناية، أخبرتني أنها عادة ما تأتي إلى هنا نهاية كل أسبوع، أدخلتني إحدى الغرف ثم ذهبت لتفرغ شنطتها بغرفة أخرى، وقبل دخولها الحمَّام طلبت منّي التصرف بحرية كما لو أني في بيتنا بالسكاكيني، ثم دخلت لتستحم، وعقب دقائق انقطع صوت المياه المتدفقة بالحمَّام، خرجَتْ بعدها سحر في عباءة مغربية الطراز، بنفسجية مريحة ومنقوشة بخيوط فضية هادئة، تناولنا العشاء وضحكنا كثيرًا أثناء تقشير الجمبري، وعقب الانتهاء تولَّت هي تنظيف المائدة في حين دخلتُ أنا إلى الحمَّام وألقيت بنفسي تحت المياه الدافئة لأتخلص من عناء يوم عجيب بدأ بالأستاذ ملاك في قسم الظاهر نهارًا وانتهى في شقة سحر بالمعمورة ليلًا!! خرجتُ من الحمَّام لأجد كل أنوار المكان مُطفأة!! ظننت أن سحر قد خلدت إلى النوم لكني فوجئت بصوتها ينادي عليَّ من غرفتها، اقتربت من باب غرفتها التي ظننت في بادئ الأمر أنها مظلمة، فلما وصلت اكتشفت أنها مضاءة ببعض الشموع!! أما هي فقد كانت تتلألأ على السرير بقميصٍ أبيض لا ترتديه إلا عروس في ليلتها الأولى!!

اندهشتُ وتسمَّرتُ في مكاني، قالت بكل أوتيت من جرأة الأنثى:

- لا تخجل، أنا أكثر منك خبرة بتلك الحياة الفانية، أنا مجروحة من عماد وأنت مجروح من عبير، لو كانت حبيبتك تستحق حبك أو كان عشيقي جديرًا بحضني لما جمع بنا القدر في هذه الليلة على سرير يليق بجراحنا، أنا جربت هذا من قبل وكان رائعًا، تعالَ لنداوي الداء بالداء.

fb/mashro3pdf

تقدمت ببطء نحو حافة السرير، يا إلهي!! لم يدر بخيالي في يوم أني سأتذوق من نبع تلك الأنثى التي اشتهرت في عشرينيات وثلاثينيات عمرها بتفاحة ماسبيرو!! كانت ممشوقة العود مثل راقصات الباليه، تميل إلى النحافة بصدر بناتي كآية من آيات الرقيّ، برونزية البشرة كأوروبيّة انطلت للتو بشمس دافئة لبلاد شتوية، استواء جسدها فوق السرير على ضوء الشموع أكد انطباعي الأول حين رأيتها يوم دخولي التليفزيون أول مَرَّة، بطلة كلاسيكية لفيلم إباحي صُوِّر سينمائيًا بدول شمال إسكندنافيا في نهاية سبعينيات القرن العشرين!!

شعرتُ كما لو أني بحلم فاضح سينتهي باحتلام ليلي ثم استحمام في الصباح!! لكنه لم يكن حلمًا!! توترت وارتبكت.. لم يسبق لي من قبل اقتحام جسد امرأة أو احتضانها أو حتى شم رائحة بشرتها، وسحر لم تكن أي امرأة، صحيح أن أكثر من ربع قرن كان يفصل بين عمرينا، لكنها بدت في قميصها الأبيض كما لو كانت حبيبة ظمآنة في مقتبل العمر تسعى لحضن حبيبها!! وبخبرتها أدركَتْ ما أنا فيه، لذا وبذكاء بارع سهلت عليَّ الأمر، أحاطت رأسي بكفيها وقبلتني فوجدتُ نفسي أقبِّلها بعمق، تنهدنا سويًّا عقب فراغنا من دوّامة القُبلة الأولى الطويلة، نظرتْ في عينيَّ وسألتني وهي تناورني بشفتيها:

- ما رأيك؟!

- ما رأيك أنتِ؟!

- شفتاك رائعتان، ولكن قل لي.

- ماذا؟!

- هل تحب النوتيلا؟؟

- ما هذه؟!

fb/mashro3pdf

- نوع من معجون الشوكولاتة بالبندق.
- أنا أحب أي شوكولاتة بالبندق.
- لكنها هذه المَرَّة لن تكون كأي شوكولاتة في حياتك.

وبجنون لم أتوقعه قامت ثم طلبت منِّي إغماض عينيّ، وبعد دقائق طلبت منِّي أن أفتحهما، انعقد لساني من الدهشة وأنا أراها قد خلعت قميصها الأبيض وارتدت بدلًا منه طبقة رقيقة من النوتيلا!! بجنون خلاب دهنت نفسها بمعجون الشوكولاتة بالبندق!! وكل ما قالته:

- تذوَّق النوتيلا وتعرف عليها بنفسك.

على ضوء الشموع اتبعت تعليماتها حرفيًّا، بعد لعق كل الشوكولاتة من فوق جسدها لم تعد الحياة معي أبدًا كما كانت!! كان نورها أسفل طبقة الحلوى يتبدى شيئًا فشيئًا فنذوب معًا أكثر فأكثر، أخذت سحر يدي كمُكتشف جديد لتعرفني على كل نواحيها، علمتني كل أشكال العشق ورافقتني إلى كل زوايا الهوى، كانت أهم دروسها على الإطلاق أن الرجل لن يتمكن أبدًا من اكتشاف روعة نقوش رفيقته المتوارية في أركان جسدها والمخفية بين طيات روحها إلا عبر شفتيه!! هكذا فقط سيتمكن من التعرف على المذاق الحقيقي لنكهات عشيقته!! وقد لا يرضى عنها بعد ذلك بديلًا. أقسم أن تلك الأنثى كانت من أبدع الذنوب وأرقى الخطايا، عقب ليلتي الأولى معها، لم أدرِ إن كان عليَّ أن أستغفر الله أم أحمده!!

بعد غروب شمس ثاني أيام المعمورة، وعقب ساعات كثيرة من التمرغ بحضنها على ملاءات الأسرة وسجاجيد الأرض وفوق صقيع الرخام الذي انصهر بجسدينا، أعتمنا أنوار المكان وأسدلنا ستائره، ووضعنا الحقيبتين في شنطة السيارة وأغلقناها ثم وقف كل منّا أمام الآخر صامتًا وكأننا على وشك الاستيقاظ من حُلمٍ جميلٍ في حين كان العطش

fb/mashro3pdf

ما زال يضربنا من الداخل والارتواء حلم بعيد!! كانت أصوات الأمواج تداعِب أرواحنا وحُمرة الغروب قد اختفت وحلت محلها في السماء فضية القمر، وسط كل هذا لمست سحر أصابعي بأناملها، وبعينيها ظمأ إلى نوبة عشق جديدة قبل الرحيل!! وبدون تردد فتحتْ شنطة السيارة مَرَّة أخرى وأخرجت غطاءها!! سحبتني من يدي محذِّرًا نحو رمال البحر وأنا غير مصدِّق ما تنتوي فعله!! في حياتي لن أنسى هذا المشهد الذي يُعَد عن جدارة واحدًا من كلاسيكيات العشق الإنساني منذ هبط آدم مع زوجته إلى الأرض!!

افترشت سحر غطاء السيارة فوق الشاطئ المهجور، خلعت عني كل ملابسي وملابسها، كنا دافئين لدرجة لم نشعر معها ببرودة عتبات ديسمبر، احتضنتها وتمرغت بها حتى انزحنا من فوق الغطاء إلى الرمال الناعمة، تعبدَتُ بشفتيّ إلى كل شِبر في جسدها بعد أن اكتسب نكهات جديدة بفعل رذاذ البحر واكتسى بلون فضي، وبجنونٍ يسابق جنونها عشقتها كما لم تُعشَق من قبل، تيقنت أسفل القمر أن من لم يمارس الحب مع عشيقته فوق رمال البحر ليلًا فهو لم يمارسه أبدًا!!

عقب هذا الفاصل من الجنون ارتدينا ملابسنا مَرَّة أخرى وركبنا السيارة باتجاه العودة، بعد خروجنا من بوابة المعمورة سرنا بمحاذاة بحر الإسكندرية، أخبرتني أنها تود خلع النظارة القاتمة عن ملامحها فهي لا تشعر بحاجة إليها مثلما كانت في اليوم الذي وصلنا فيه، مددت يدي لأخلعها عنها، كانت مبتهجة ولا ترغب في مواراة بهجتها عن العالم، هكذا هي المرأة حين تكون على قناعة تامة بما أقدمت عليه مع عشيقها، لا تبالي بأحد في هذا الكون، فقط تتملكها رغبة عارمة في أن تُباهي بدفء شريكها الأرض والقمر والملائكة ونجوم السماء!!

fb/mashro3pdf

وصلنا القاهرة قبل منتصف الليل بقليل، توقفَتْ بنا تحت كوبري غمرة وقبل أن أنزل من السيارة وخلف الزجاج المُظلل بالسواد، طبعَتْ قبلة صغيرة على شفتي وحين امتدت يدي لفتح الباب استوقفتني ثم احتضنتني بقوة مَن لا تريد أن تفرِّط بطوق النجاة، قوة هذا الحضن تُرجِمَت صباح اليوم التالي في ورقة أخرجتها من درج مكتبها بماسبيرو كي أوقِّع عليها وتوقع هي أيضًا!! لم يكن عقد زواج عُرفي بيننا، ولكن عقدًا شرعيًّا يربطني بوزارة الإعلام، عقب ليلتين فقط في حضن سحر العزايزي بالإسكندرية أنجزت ما قد ينجزه غيري في شهور طويلة قد تصل إلى سنوات من العمل!! إن للجسد حسابات أخرى!! طرتُ من فوق الأرض فرحًا وسط دهشة وغمز ولمز الكثيرين ممن ينتظرون في بؤس طويل دورهم بالتعاقد، الكل أرجع الأمر لاحتمالات الوساطة أو القرابة أو المحسوبية لكن أحدًا لم يخطر بباله أن سحقي لها بكفاءة على سرير المعمورة جعلني رسميًّا وبهذه السرعة مساعد مُخرج باتحاد الإذاعة والتليفزيون، ذات يوم بعيد قد أعترف في مذكراتي أن مُستقلبي قد مرَّ رسميًا من عنق رحم رئيسة القناة!!

ولأن لا يمكن لجناح بعوضة أن يُحلِّق داخل ماسبيرو إلا بموافقة وزارة الداخلية، قمت بملء استمارات الاستطلاع الأمني حتى أتِم أوراق تعاقدي، لكن الموافقة الأمنية تأخرت وبدأ القلق يتسرب إلى نفسي رغم أني لم أكن يومًا من أصحاب النشاطات المقلقة للدولة!! وذات صباح رنَّ جرس الباب، فتحتْ أمي ثم دخلت عليَّ غرفتي لتوقظني بتوتر وتخبرني أن أمينًا للشرطة يسأل عنّي!! انتفضتُ من فوق السرير وبقدمين حافيتين سارعت نحو باب الشقة لأتسلّم منه أمرًا بالحضور يوم الثلاثاء في تمام التاسعة صباحًا بمبنى أمن الدولة في

fb/mashro3pdf

مدينة نصر، نادرًا ما يأتي الثلاثاء بخير!!

كل سائق كنت أستوقفه وأقول له أمن الدولة، كان يجيب ببلاغة عبر الضغط على دواسة البنزين مُتمتمًا بشتائم لا أسمعها، وفي النهاية طلبت من أحدهم الذهاب لنادي السكة الحديد الرياضي، ومن أمامه مشيت على قدميّ المسافة المتبقية نحو المبنى المُقبض، وصلت قبل موعدي بعشر دقائق، على البوابة أبلغوا اسمي لاسلكيًّا لأحدهم بالداخل، فجاء الرد بالتأكيد على موعدي مع سيف باشا، بعدها مررت من بوابة كشف المعادن للتأكد من خلوي من كل ما يضرهم، ومن البوابة وحتى مكتب الباشا رافقني أحدهم بزِيّ مدني ومسدس عند خصره عبر ممر ضيق مغطًّى بفروع الأشجار، الممر في نهايته أفضى إلى ساحة مكشوفة تشبه في هيئتها تمامًا حوش مدرسة السكاكيني الابتدائية ولكن بدون أطفال أو مُدرسات، ساحة رأيت فيها ما لن يبرح خيالي، القدر فقط هو من جعل الكائن الأمني الذي أمشي برفقته يتوقف لحديث عابر وهامس مع كائن أمني آخر لإبلاغه بشيء ما، وفي هذه الدقيقة كان المقطع الذي لا يمكن أن يُشاهَد إلا بدار عرض أبطال أفلامها من قاع الجحيم!!

في الساحة رأيت صفًّا من بضعة ملتحين معصوبي الأعين بشرائط من قماش أسود، كانوا حفاة عراة إلا من أقمشة بيضاء حائلة اللون أقرب إلى أجولة مثقوبة، تم اقتيادهم في طابور بائس للوقوف داخل طشوت ذات لون فضي باهت، بعدها طلب الضابط من كل واحد فيهم أن يقضي حاجته من بول أو براز داخل الطشت الذي يقف بداخله قبل العودة إلى السراديب مَرَّة أخرى!! لن أنسى صورة هذا الذي كان في ملامحه أشبه بأسامة بن لادن وهو يرفع الجوال عن مؤخرته ويجلس

fb/mashro3pdf

القرفصاء ليقضي حاجته في الطشت وهو يبكي في صمت، وفجأة خرج عن شعوره صارخًا بأسى «حسبي الله ونعم الوكيل»، فما كان من الضابط إلا أن اقترب منه في صمتٍ مثل حَيّة تزحف، ثم انخفض من الأرض ليفاجئه على غفلة بصفعة مدوية من خارج نصوص البشر، صفعة انقلب على إثرها هذا الطويل النحيف داخل الطشت ثم تكوم على الأرض مُختلطا ببوله وبرازه!!

كان هذا كل ما استطعت اللحاق به خلال توقفي العابر، ثم تحرك بي الكائن الأمني من جديد ولم أستطع أن أدقق أكثر من ذلك في المشهد الجهنمي حتى لا ألفت نظر أحدٍ إليّ، كل ما شغلني حينها هو التفكير في معرفة سبب استدعائي!! وهل يمكن أن يقودني القدر بعد قليل للوقوف داخل طشت لأقضي حاجتي فيه عاريًا برفقة هؤلاء؟! متى يتدخل الله لإنقاذ المصريين من هؤلاء الضباط؟!

ثم دخلنا المبنى المطل على ساحة الإهانة، ولتوتري لم أدرِ إلى أي طابق صعدنا، الهدوء كان عميقًا والإضاءة خافتة والمكان كبيت كبير للأشباح، وعلى أحد الأبواب طرق الكائن الأمني برفق، ثم دخل وخرج ليخبرني بأن الباشا سمح لي بالدخول، دخلت المكتب وأغلقت من ورائي الباب، وجدت الباشا واقفًا يطالع المقرفصين وسط الطشوت من خلف الزجاج الأسود لنافذته، لم أرَ منه سوى ظهر عريض ويد غليظة تمسك سيجارة وأخرى وضعها في جيبه، من المؤكد أنه شعر بوجودي في الغرفة، إن لم يكن من صوت حركتي فحتمًا من دوي دقات قلبي التي أخذت تتسارع، كانت الغرفة متوسطة المساحة أقرب إلى الضيق، وجميع درجات ألوانها وُلِدَت من رحم بُني قابض للروح، ولم يوجد بجميع أرجائها ما يبعث على الأمن أو الطمأنينة في

fb/mashro3pdf

نفس الإنسان، وعلى الجدران لا آية كريمة ولا لوحة جميلة، فقط صورة الرئيس بابتسامته الصفراء تحتل مكانها بالخلفية أعلى كرسي المكتب الذي خلا سطحه من كل شيء إلا ملف مغلق وواجهة خشبية صغيرة نُقش عليها بخط أسود عريض «المُقدم/ سيف الهواري»، سيف باشا بدا من ظهره أشبه بماكينة عريضة على هيئة بشرية، كيان بارد ارتدى سترة رمادية داكنة، معصم يده أظهر أن بأسفل السترة الرمادية قميصًا أسود، حضرة الضابط كان أقرب إلى بناء مصبوب من لحم الموتى!!

ودون أن يلتفت إليَّ داهمني ببداية لم أتوقعها، نفخ دخان سيجارته في الزجاج ثم سألني:

- لمحتك تنظر إليهم بتأثر!! هل صعب عليك حال هؤلاء الكلاب الذين بالأسفل؟!

وأنا أبتلع ريقي محاولًا تجاوز المفاجأة، استطرد:

- صدقني، لو تمكن هؤلاء من مصر لجعلوك أنت وأمك وأختك، تقفون جميعًا عرايا في طشوتهم.

- نعم؟!

- اقعد.

على الفور نفّذت ما أمرَ به، جلست على الكرسي الأيمن بركبتين مضمومتين أما هو فقد ظلَّ على ذات الوضع، ظهره إليَّ ووجهه نحو النافذة وسيجارته برُبعِها الأخير، ولمزيد من التوتر وقبل أن ينتهي منها استهل حديثه بسؤال لم أتوقعه:

- كيف حال هناء؟؟

- هناء؟!

- نسيت اسم أمك يا حسام!!

fb/mashro3pdf

- لا أبدًا، الحمد لله بخير.

عاد لصمته عقب إجابتي المقتضبة وكأنه يعطي فرصة لمزيد من الرعب أن يجتاحني، كاد عقلي أن يطير من الحيرة والهم والقلق، ما شأن هذا الكلب بأمي؟! لماذا يسألني عنها؟! ما علاقة هناء بأمن الدولة؟! هل سيهددني بها أم سيهددها بي؟! هؤلاء لا دين لهم ولا إنسانية، وبعد أن انتهى تمامًا من سيجارته استدار إليَّ ببطء بالغ، ملامح وجهه لم تكن تعبّر عن أي شيء، صنم قمحي البشرة برأسٍ مستطيل وشعر وشارب حالكي السواد، عرض عليَّ سيجارة من علبته فرفضت بأدبٍ متعللًا بأني لست من المدخنين، فسحب سيجارة جديدة لنفسه وأشعلها وهو يطلب عبر سماعة هاتفه الداخلي كوبًا من الليمون البارد، ثم قال:

- الليمون البارد هو المشروب المثالي لزوارنا في المَرَّة الأولى، أما من يعتادون المكان فهؤلاء لهم معاملة خاصة.

معاملة خاصة!! كلماته كان يمكن قراءتها من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، وعقب أقل من ٣٠ ثانية طرقَ أحدهم الباب داخلًا بالليمون وكأنه قام بعصره على عتبات الغرفة!! وبعد دخول الليمون بدأ سيف باشا في التقليب داخل الملف الموضوع أمامه بأصابع يده الغليظة، ثم أخرج منه ورقة، من الوهلة الأولى أدركت أن الورقة تخصني، لا لشيء سوى لأن الخط الموجود بها هو خط يدي، كانت استمارة استطلاعي الأمني، لكن وبعيدًا عن الورقة، ظلَّ يقلِّب في الملف ثم قال:

- لقد شقيت أمك في تربيتك أنت وأختك بعد المرحوم، مسكين هو الآخر، مات تحت أنقاض عمارة هليوبليس يوم الزلزال أثناء صعوده لعيادة الدكتور النفسي.

fb/mashro3pdf

- دكتور نفسي!!

- ألا تعرف أن والدك كان يُعالج نفسيًا وعصبيًا من أجل الاعوجاج الذي أصاب فكّه السفلي بعد جَلدِه في السعودية؟!

- جَلدُه!!

- ألا تعلم أن الوالد رحمة الله عليه، حينما ترككم في السكاكيني وسافر لتكوين مستقبلكم، قُبِضَ عليه هناك بزجاجة بيرة وحُوكم وجُلِدَ وتم ترحيله؟!

- لا، لا أعرف حضرتك!!

هكذا أجبت ببصر شارد وعينين زائغتين وأنا أنصت لكل ما وارته أمي عنا طوال هذه السنوات، ثم استكمل بوقاحة بالغة:

- اشرب الليمون ودعك من كل هذا الآن، ولنتحدث في المفيد، بصفتك رجل البيت، هل تعرف شيئًا عن مشي أختك؟؟

- ماذا تقصد حضرتك بمشيها؟!

- هل تعرف أنها تصلي جماعة في مسجد الهديّ أمام مدرسة طورسيناء الابتدائية بجوار محل ألبان حبشي؟؟

- نعم أحيانًا.

- لا ليس أحيانًا، بل دائمًا.

- حضرتك أدرى.

- وأنت؟؟

- أنا ماذا؟!

- هل تصلي مثلها في الهديّ؟؟

- لا لا، أنا لا أصلي من الأساس.

هكذا أجبت بتلقائية فردّ ضاحكًا على نحو ساخر:

fb/mashro3pdf

- هكذا اطمأننت عليك يا رجل.

كانت تلك هي المَرَّة الأولى التي تنفك فيها ملامحه، ثم استطرد:

- عليك أن تنصح أختك شيماء بالابتعاد عن مثل هذه الأماكن المشبوهة لأنها قد تؤذي نفسها وتؤذيك معها بلا ذنب، ربك رب قلوب يا حسام، ألا توافقني على ذلك؟؟

- طبعًا أوافق حضرتك.

- أنا فقط قمت بوقف استطلاعك الأمني حتى أستطلع إجابتك عن هذا السؤال الأخير وكانت إجابتك «طبعًا أوافق»، مبروك عليك التعاقد مع ماسبيرو، ولكن هل تعلم يا حسام ما هو مصير الذي لا يدرك أن ربنا رب قلوب ويخلط الأوراق ببعضها؟؟

- لا، لا أعلم.

- لا، أنت تعلم جيدًا وشاهدت بنفسك في الحوش وأنت بطريقك إلى هنا، خالط أوراق الدين بالدنيا قد يخسر كل شيء ويقف في النهاية عاريًا يقضي حاجته وهو معصوب العين.

وهكذا تعلمت من حضرة الضابط أهم الدروس الدينية في حياتي وهي أن ربي رب قلوب، ثم أضاف:

- أنت تعمل في مكان حساس وبأي وقت تجد حولك ما هو جدير أن تخبرنا به من أجل البلد، ستجد أبوابنا مفتوحة لك، مصر في أشد حاجة لشبابها الواعي المحترم.

وبعد أن أذن لي بالانصراف وقبل أن أدير مقبض الباب للخروج استوقفني:

- صحيح، من الأفضل لمستقبلك ألا يعرف أحد شيئًا عما دار هنا، أي أحد يا حسام، حتى لو كانت سحر.

fb/mashro3pdf

صمتُ فأشار لي بالخروج، خرجت من مكتبه شاعرًا بوطأة ختم أمن الدولة!! ليس على أوراقي فحسب، بل على ذِكرى أبي وسيرة أمي وشرف أختي!! انصرفت من المبنى وداخلي يضطرب من هذا الحقير الذي ساومني على مستقبلي مقابل ألّا أصلي جماعة في مسجد الهديّ مثل شيماء!!

****

للمرة الخامسة الهاتف يرن باسم سحر العزايزي وينقذني من الغرق بذكريات مكاتب أمن الدولة، لن أردّ، أنا اليوم مهموم بعبير، الحقيقة أن سحر رغم كل ما قدَّمته وتقدمه، أبدًا لم تستطع أن تحقق نصرًا على عبير في داخلي، منذ ظهرت العشيقة على سطح الأرض وهي عاجزة عن علاج الرجل من حبيبته، هي بالكاد تُخدِّر من آلام عشقه لها!! وهكذا مرت الأيام ومن بعدها السنوات، عشيقتي في حضني تغمرني بنكهاتها، وحبيبتي في عقلي الباطن بطلة ليلية لكل أحلامي!!

****

ذات صباح استدعتني سحر في مكتبها مع باقي أفراد قسم الإخراج لتوزيعنا على المحافظات استعدادًا لتغطية انتخابات مجلس الشعب، وبشكل فكاهي أجرت قرعة قذفت بي إلى دمياط. وفي اليوم المحدد وصلنا اللجنة الانتخابية المعدَّة للتصوير بداخل إحدى المدارس هناك، كان بانتظارنا فيها مدير المكتب الإعلامي للمحافظة والذي نسَّق بنفسه ورتَّب طابورًا نموذجيًا حازت المرأة على نصفه!! بعدها جلستُ داخل سيارة الإذاعة الخارجية وأمرت المصور بتتبع المراسل حتى ننقل كل هذا الكذب، ثم أجرينا لقاءات مع بعض الناخبين المزيفين للحديث

fb/mashro3pdf

عن أزهى عصور الحرية، في الحقيقة كانت جميع لجان دمياط خاوية على عروشها!!

عقب الانتهاء من بث الرسالة اتجهت خارج المدرسة بكوب من الشاي شاردًا في غيوم دمياط الشتوية، وحين انحنيت لوضع الكوب على الأرض جوار الجدار شعرت بيدٍ تطرق على كتفي، اعتدلت والتفت نحوها، اندهشت، تسمرت، منذ سنوات ولم أرها إلا في أحلامي الليلية أو صور الماضي الجماعية، ارتبكت، ارتجت روحي، ابتسمَتْ هي ومدَّتْ يدها، مددت يدي غير مُصدِّق أني سألمس يدها مَرَّة أخرى عقب كل هذا العدد من مئات الليالي المريرة!! وددتُ لو تركت نفسي بكفها الدافئ لثلاثة أيام أو أكثر!! صمتُّ من وقع المفاجأة، لكنها قطعت الصمت بسؤال:

- حسام، كيفك أنت؟؟

عبير صارت أجمل!! يا إلهي من استحضارها لفيروز في تلك اللحظة!! يا إلهي منك يا عبير ومن تأثيرك عليَّ!! أي مخدِّر هذا تضعينه لي في عمق عينيك فيفقدني ذاكرة الآلام!! وعلى نحوٍ لا إرادي وبشكل تلقائي وغير محسوب وجدت نفسي أرد عليها:

- كيف حالك أنت يا حبيبتي؟؟

تورّدت ملامحها مثل أجمل تفاحات الجنة ثم نظرت إلى الأرض وهي تقول:

- حبيبتي!! أما زلت تحبني يا حسام؟!

- وهل كان لي أن أحب غيرك يا أروع بنات الدنيا!!

خجلتْ أكثر وهربت من عينيّ إلى كل اتجاه وهي تقول:

fb/mashro3pdf

- رغم كل السنوات أنت الوحيد الذي ما زال يُتقن كيف يتعامل مع روح عبير يا حسام!! ولكن قل لي ما الذي جاء بكَ إلى هنا وكيف سارت بكَ الدنيا منذ آخر يوم بامتحانات البكالوريوس!!

وقبل أن أنطلق مع عبير أخبرتُ المراسل والمصوِّر بأني سأغيب قليلًا ثم خرجت للسير معها بشارع البحر، وحدها الصدفة هي مَن قادتنا لنلتقي في دمياط بعد كل هذا الفراق، حكينا كثيرًا عن السنوات الماضية، وعرفت أنها كصحفية في مجلة اللوتس جاءت لتغطية العُرس الديمقراطي، وما إن قالت هذا التعبير حتى غرقنا في ضحك أقرب إلى البكاء، قلت لها ساخرًا:

- إلى هذا الحد أصبحتِ منهم يا عبير؟!

- أنا لست منهم يا حسام، أنا من حارة الفص، ما جاء بي هو ما جاء بك، أنت تصور العُرس وأنا سأكتبه، وإذا كنت تريد ما لن تصوره أنت وما لن أكتبه أنا، تعالَ معي لأريك.

ثم قبضتْ على يدي وسحبتني خلفها كالمنوَّم مغناطيسيًّا من ضفة النيل إلى مشهد آخر في الداخل، مشهد أيقنت بعده مدى رومانسية مصطفى كامل حين قال لو لم أولَد مصريًّا لوددت أن أكون مصريًّا!! قادتني عبير نحو لجنة انتخابية نسائية قريبة، بدا من بعيد صفوف المحجبات والمنتقبات اللاتي احتشدن أمام بابها!! ولأن الحشد من جماعة الإخوان، أصر الأمن على عدم فتح اللجنة رغم وجود القضاة المشرفين على سير العملية بالداخل منذ الصباح!! كانت الأجواء شديدة التوتر وغير آمنة وتنم عن شيءٍ قد يشتعل، لذا أخبرتُ عبير بحتمية الابتعاد عن هذا المربع، لكنها بحاستها الصحفية أصرَّت على البقاء وسحبتني من يدي نحو سطح بيت بالطوب الأحمر مقابل للجنة،

fb/mashro3pdf

ومن الأعلى كشفنا المشهد كاملًا، ظللنا نراقب كل شيء متوارين خلف سور منخفض، وبكاميرتها الصغيرة استعدت عبير لأي شيء يحدث، وبدا أننا صعدنا في الوقت المناسب!!

أعطى الضابط أوامره بفتح اللجنة أمام الناخبات وسط حمد وتهليل وتكبير من المصطفات، بخيالي الساذج اعتقدت أن الأمن أراد نزع الفتيل، لكن ما إن سمح الضابط بدخول ما يقرب من عشر إخوانيات حتى أشار بيده على نحو غامض!! عقب إشارته انسلت مجموعة أخرى من النسوة على ملامحهن علامات إجرام، وبعدها تم إغلاق بوابة المدرسة على الجميع في الداخل، ثم تعالت الصرخات!!

قامت النسوة التابعات للأمن بجذب الناخبات نحو تراب الحوش ثم شددن عن رؤوسهن أي حجاب أو نقاب، وسحلوهن على الأرض جذبًا من الشعر أو الأرجل باتجاه الفصول الخالية لتأديبهن على نحوٍ خاص!! وفي داخل الفصول تعالت الصرخات أكثر وفجأة هدأ كل شيء تمامًا!! بعد ذلك بلحظات خرجت بعض المجرمات من الفصول وبأيديهن قطعًا من أقمشة ملونة وصغيرة الحجم!! ولما دققنا النظر اكتشفنا إلى أين وصل العار!! تلك الأقمشة لم تكن سوى بعض الملابس الداخلية لحريم الإخوان المسلمين!! وفي مشهد أسود نادر ومن فوق السور بدأ قذف الملابس التحتية للناخبات المحتجزات في الداخل فوق رؤوس الأخوات المصطفات في الخارج!!

وعقب أن عمَّ الصمت والذهول، أعطى الضابط أمرًا بفتح الباب مَرَّة أخرى لتخرج المضروبات والمهتوكات في حالة إعياء، بعدها تُرك باب اللجنة مفتوحًا دون أن تجرؤ إحداهن على التقدم خشية ملاقاة مصير السابقات!! فقط ظللن واقفات بدون حركة، لا هن قادرات

fb/mashro3pdf

على مخالفة أمر المرشد بالتصويت ولا هن قادرات على مواجهة ما ينتظر أجسادهن في الداخل من هتكٍ وألمٍ!! وهكذا وصلت إباحية الضابط المصري إلى أقصى درجة في ترمومتر الدعارة الأمنية!! أي شيطان هذا أوحى لخيال حضرة الضابط بفكرة تحصين الصناديق من الجماعة باستخدام الملابس التحتية لحريم الجماعة!!

ومن فوق سطح البيت التقطت عبير بعدستها كل التفاصيل ثم أخفت الكاميرا في ملابسها السفلية بالقرب مؤخرتها، داعبتها متمنيًا:

- ليتني كنت كاميرا.

- اخرس يا سافل.

قالتها ضاحكة ثم جذبتني من يدي نحو الأسفل، سألتها:

- إلى أين؟!

- إلى قلب المعركة طبعًا.

- أنتِ مجنونة!!

- سأكون مجنونة فعلًا لو تركت فرصة المشاهدة عن قُرب تفلت من يدي، لو خائف سأذهب وحدي.

لم يخلقني الله من هؤلاء الذين يتركون عبير وحدها!! لذا هبطتُ في إثرها باتجاه اللجنة استطلاعًا لمكان المعركة النسوية التي وضعت أوزارها، على البوابة استوقفنا الضابط فأبرزنا له بطاقات الهوية التي تثبت تبعيتنا لإعلام الدولة فتركنا نمر، وما إن وصلنا إلى قلب الحوش حتى وجدنا صوتًا بغيضًا من خلفنا ينادي بصيغة فتح تحقيق عاجل:

- من أنتما؟! وماذا تفعلان هنا؟!

مصدر الصوت كان رجلًا ضخم الجثة، أبيض البشرة، أصلع الرأس، ارتدى سترة جلدية ضيّقة وسوداء، وعلى وجهه نظارة شمسية

fb/mashro3pdf

بذات السواد، بدا أنه ضابط أمن دولة خمسيني ذو هيبة ورتبة رفيعة، على الفور وبكل ثقة أجابت عبير بأنها صحفية من اللوتس تغطي العملية الانتخابية أما أنا فقد أخرجت له بشكلٍ آلي صامت بطاقة التليفزيون المصري، وبنفس الغلظة السابقة استأنف:

- وما الذي جاء بكما إلى هنا؟! ألم نرتّب لكم لجنة لتصويرها وتغطية أخبارها و . . .

وقبل أن يستكمل كلامه جاء ضابط أصغر همس له بصوت سمعناه:

- يا باشا القضاة غاضبون مما حدثَ قبل قليل.

ما كان من هذا الجبل البشري إلا أن انتفخت ملامحه البيضاء واحمرت ثم انفجر على نحوٍ سينمائي غير متوقَّع!! وسط حوش المدرسة دار حول نفسه دورة كاملة، وبصوتٍ جهوري متوعد وجه حديثه أثناء دورانه إلى مسامع كل القضاة الموجودين داخل اللجان:

- قضاة غاضبون!! قضاة أولاد زانية!! لا يعرفون شيئًا اسمه مصر!! هذه البلد ليست لعبة يا أوساخ!!

وعقب أن أنهى دورانه حول نفسه عاد ليخاطبنا بذات النبرة التهديدية:

- أما أنتما فأنا غير مسئول عن سلامتكما منذ الآن، وإذا لم تخرجا حالًا فستكون ذكريات هذا اليوم بالنسبة لكما حقيرة جدًّا.

انصعنا لتهديده فورًا، لكن عبير استأذنته في دخول الحمام قبل المغادرة فأذن لها، ثم اتجهتُ نحو دورة مياه مطلة على الحوش، انتظاري لخروجها من الحمام كان فرصة لمراقبة ما كان حادثًا في الفصول، أحدها ضم المجرمات وهن يُدخن السجائر بانتظار أية إخوانية تقدم على

fb/mashro3pdf

محاولـة الدخـول، وبالفصـول الأخـرى جلـس القضـاة شـامخين أمـام الصناديـق بعدمـا تلقـوا في سـلام نفسـي نـادر طعـن ضابـط أمـن الدولـة في وطنيتهـم ونظافتهـم وشرف أمهاتهـم!!

وعقب خروجها من الحمّام سألتُها باستنكار:

- أكان هذا وقته؟!

ابتسمت بمكر وهي تقول:

- مـن أجـل بقـاء هـذا الكوكـب خلـق الله لـكل ضابـط رخيـص صحفيًّا أرخـص منه!!

عُـدت لسـيارة الإذاعـة الخارجيـة وانطلقـت عبـير لاسـتكمال باقـي مهمتهـا الصحفيـة وتواعدنـا عـلى لقـاءٍ آخـر قبـل غلـق الصناديـق، وحينـما وصلـت لجنتـي وجـدت المـكان بـأسره غارقًـا وسـط علـب للمشـويات مطبوعـة بألـوان العَلَـم!! عـشرات مـن الوجبـات وصفائـح الميـاه الغازيـة وزجاجات الميـاه وعلـب المُهلبية!! مرشـح الحـزب الوطنـي قـرر منـح هـذا العُـرس الديمقراطـي نكهـة مميَّـزة كتحيـة واجبـة لرجـال الداخليـة والقضـاء والإعـلام المتواجديـن باللجنـة، ورغـم شـعوري بالجـوع الشـديد، إلا أن شـيئًا مـا بداخـلي تقـزز مـن مشـوياتهم الفاخـرة!! إذا كنـتُ مُجـبرًا عـلى صناعـة كل هـذا الكـذب مـن أجـل أكل العيـش، فأنـا غـير مجـبر عـلى تنـاول لحـم مصـر مُقطَّعًـا في علبـة ولا شرب دمهـا مُثلجًـا في صفيحـة!! حتـمًا سيأتي يـوم عـلى كل هـؤلاء يتقيـؤون فيـه أرواحهـم!!

وقبيـل غلـق الصناديـق، وجـدتُ عبـير تبحـث عنّـي داخـل المدرسـة وأنـا عـلى وشـك الانتهـاء مـن بـث رسـالة جديـدة، سـألتني:

- ألا يتملكك فضول رؤية ذروة المشهد في الجوار؟!

- ارحميني.. سيتم القبض علينا!! ولكن ألهذا المشهد ذروة أخرى؟!

fb/mashro3pdf

- اعلم دائمًا أن أكثر المشاهد إثارة لم تأتِ بعد!!

- ما الجديد هناك؟!

- تعزيزات أمنية ضخمة وصلت محيط اللجنة النسائية وأعداد الإخوان تتضاعف حولها في حصارٍ كبيرٍ، ولا أحد يعرف كيف ستعبر الصناديق وكيف سينجو القضاة وكيف ستخرج المجرمات؟! حريم الجماعة متسمرات بثأرهن على عتبات المدرسة، المعركة لو احتدمت نيرانها فلن تكون بعيدة عن هنا، شارع واحد يفصلنا عنها، صدقني، المكان الأكثر أمانًا والأفضل للمشاهدة هو سطح نفس البيت الذي كنا فوقه.

- صدقيني أنتِ، الأكثر أمانًا أن نفرّ من دمياط بسرعة.

- وهل سنترك متعة المشاهدة تفلت منا؟!

- يا مجنونة!!

ردت بإغراء ساخر:

- تخيل أن عبير بذات نفسها ستكون معك وحدها فوق سطح بيت عند غروب الشمس!! هل ستُفلت الفرصة من يدك؟!

ردَّدتُ وأنا أغمز لها بعينٍ واحدة:

- دقيقة واحدة وسألبّي كل رغباتك يا قمر.

- اخرس يا سافل.

أسرعت برفقتها إلى نفس المكان، المشهد من أعلى صار شديدَ التعقيد، انقضى موعد التصويت وأغلق الباب على مَن بالداخل، وحل المساء وتعالى هتاف الآلاف:

- بالروح بالدم نفديك يا إسلام.

fb/mashro3pdf

التعزيزات والمدرعات تمركزت غرب الشارع وتركت شرقه لمن يريد الانسحاب لكن أحدًا لم يفر، ثم انقطعت الكهرباء فجأة لإظلام المكان، أنارت المدرعات كشافاتها وأطلقت أول قنبلة مسيلة للدموع، بدأ الهرج والمرج بين صفوف المحتشدين، تقدمت المدرعات ببطء لكسب مزيد من الأرض، بعد دقائق ودون مبالغة كان المشهد أشبه بلقطات اجتياح قوات الاحتلال لمخيم جنين بالضفة الغربية في نشرة التاسعة!! في نفس التوقيت وبعيدًا عن هذا الصخب كانت صناديق الاقتراع قد وجدت منفذًا لها عبر شبابيك المدرسة من الجانب الآخر باستخدام الحبال.

عقب نهاية المعركة وانصراف الجميع، اتصلتُ بزملائي لأخبرهم بأني سأعود بمفردي، ثم سحبتُ عبير من يدها باتجاه الموقف ونحن غير مصدقين ما رأيناه!! ركبنا الميكروباص وجلسنا بالكنبة الخلفية، ولما اكتمل العدد تحرك السائق باتجاه القاهرة، خرجنا من دمياط واستقامت السيارة على الطريق، استندت عبير برأسها إلى كتفي واستكانت وسط الظلام، تلمستُ أناملها فاسترخت بكفي، غلبها النعاس وراحت في نومٍ عميقٍ، مِلتُ برأسي على رأسها حتى التصقت شفتاي بشعرها، شردتُ في رائحته وأنا أتذكر كل شيء، ولم تفق عبير من غفوتها إلا على دمعة فرت منّي على جبهتها، قالت بصوت هامس:

- أتبكي يا حسام؟! صدقني أنا لا أستحق!!

أجبتها بصوت مختنق:

- لسنوات طويلة حلمت برأسك على كتفي هكذا !!ولم يخطر ببالي أن الحلم سيتحقق في ميكروباص!! أخبريني يا عبير، هل هذا سيتكرر؟! وإن تكرر، فكم سنة أخرى سوف أنتظر؟!

fb/mashro3pdf

أبدًا لم تجب عبير عن الاستفهام اليائس الذي طرحته عليها، فقط أدارت ملامحها ببطءٍ نحو بعض أنوار القرى الصغيرة التي كانت تجري إلى جوارنا من بعيد وسط العتمات، وعقب لحظات من الصمت الحائر عادت عبير واستكانت برأسها ثانية إلى كتفي فألصقت أنا من جديد شفتي بشعر رأسها مُستنشقًا نسمات جنتها الكامنة!!

تمنيت ألا نصل أبدًا إلى القاهرة، لكننا مع الأسف وصلنا، ولأن الوقت تأخر وعبير تخاف من الكلاب لم أتركها إلا عند باب بيتها في حارة الفص، تلك الحارة التي كانت تغطّ في نومٍ عميقٍ وظلامٍ أعمق، وقبل أن أتركها تمر، رفعتُ يدها وأذبت عليها بشفتي كل نكهات اللغات غير المنطوقة!! نظرَتْ في عينيّ نظرة طويلة صامتة ثم أعطتني ظهرها باتجاه السلم، تحركت أنا للخروج من الحارة في خطوات بطيئة، وعقب خطوات قليلة وجدت عبير قد عادت تنادي عليَّ بصوت خفيض وهي تقف من جديد عند عتبات البيت:

- حسام لو سمحت.

توقفتُ والتفتُّ إليها!! تقدمتْ نحوي ثم احتضنتني بكل ما في هذا العالم من مفاجآت الصدق!! ضمتني إلى صدرها واعتصرتني بين ذراعيها وهي تقول بصوت مختنق:

- حسام، أنا آسفة، آسفة على كل ما فات، وكل ما هو قادم.

هكذا عقب منتصف ليل أول أيام ديسمبر احتضنتني عبير على نحو مفاجئ وغير متوقَّع!! هكذا تأسفتْ بشكلٍ غامضٍ على كل الماضي وكل المستقبل!! هكذا ضمتني بين ذراعيها وهكذا انسلت من بين ضلوعي وصعدَتْ بدموعٍ غير مفهومة تجري على السلم كحلمٍ ليلي هارب!! يا إلهي منك يا عبيرَ!! هل هذا الدفء الذي كان ملتصقًا بي

fb/mashro3pdf

هو دفء جسدك؟! هل تلك التي فاضت من خلف سدود السنوات هي روحك؟! هل هذا الذي شعرت به نابضًا من بين ضلوعك هو قلبك؟! لم أدرِ كم مرَّ من عمر الزمن وأنا في حضنك؟! اللحظة الواحدة في حضنك يا حبيبتي بألف سنة مما يعدون!!

لم أقابل عبير وجهًا لوجه مَرَّة أخرى عقب تلك الليلة، فقط بعد مرور يومين شاهدت صورتها في مجلة اللوتس بجوار تحقيق صحفي مطوَّل عن أسباب المشاركة القوية للمرأة الدمياطية في الانتخابات، أما المواد التي سجَّلتْها بكاميرتها خِفية فقد شاهدتها كاملة على قناة الجزيرة، سواء تلك التي صُوِّرَت من أعلى سطح البيت لسحل حريم الإخوان، أو ما تم عرضه للأمن والقضاة والمجرمات من داخل الحوش نفسه كفضيحة مصورة!! حينها أدركتُ لماذا استأذنت عبير ضابط أمن الدولة في دخول الحمَّام قبل أن نخرج من المدرسة، لقد التقطت كل ما تريد من نافذته الصغيرة المطلة على الحوش، وحينها فقط فسرت غموض الكلمات التي قالتها عقب خروجها من الحمَّام:

– من أجل بقاء هذا الكوكب خلقَ الله لكل ضابط رخيص صحفيًّا أرخص منه!!

عبير كانت تتقن استثمار كل شيء حولها، وفي مَرَّة بعد حوالي شهرين من تلك الأحداث صادفتها من بعيد في شارع العباسية وهي ترتدي نظارة شمسية سوداء وتقود سيارة جديدة حمراء كورية الصُّنع!!

****

اللعنة على عبير وسحر وماسبيرو وأمن الدولة، فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، يكفي ما ضاع منِّي، يجب أن أركز في حلمي، سأعود إلى أوراق سليمة، تُرى ما الذي كان مكتوبًا في بعض صفحاتها التي

fb/mashro3pdf

تآكلت وسطورها التي انمحت؟! ما طبيعة الأسرار التي دوَّنتها ولم نعد قادرين على مطالعتها؟! لو شاء القدر لهذا المشروع الوثائقي أن يرى النور سيتحتم عليَّ ذِكر أن عددًا عشوائيًّا من الصفحات قد هلك بفعل الزمن، كلي شغف لمعرفة ماذا حدث بعد أن اكتملت إنسانية كلوت بتقبيل قدميّ سليمة!! ماذا فعلتْ هذه الفاتنة البرونزية بالطبيب الفرنسي؟!

* * *

fb/mashro3pdf

أوراق سليمة

عقب اطمئنان كلوت كلوت لإزالة كل الخيوط التي نسجتها أمي فوق موضع عفتي قبل سنوات، ظلَّ يُقبل قدمي ببطء في عشق امتد للحظات، ثم قام بضم ساقيّ إلى بعضهما وألبسني بيديه ردائي الداخلي مَرَّة أخرى وقال:

- ثلاثة أيام يا حبيبتي على الأكثر وستصبحين على ما يرام.

بعدها قبَّل خدي كقطعة من أحجار كريمة يُخشَى عليها من نسمات الصيف، ثم صعد إلى جواري وهمس وهو ينظر في عينيّ:

- هناك مفاجأة تنتظرك في الصباح الباكر يا سليمة.

- مفاجأة وفي الصباح الباكر!! قل ما هي؟! قل لي ما هي؟!

- لو أخبرتك فلن تكون مفاجأة.

قالها ثم نفخ في المصباح وأخذني في حضنه وظلَّ يهدهدني ويدندن لي بكلمات فرنسية كأني طفلته حتى رحت في نوم عميق، وعقب الفجر بقليل أيقظني عبر ريشة صغيرة ظل يداعبني بها في ملامحي وأنا لا أود الاستيقاظ من أمان هذا الحضن، قال بلهجة باكرة وسعيدة:

- هيَّا يا سليمة، لم يتبقَ سوى ساعة على مجيء العربة التي ستُقلنا إلى عاصمة الدنيا.

fb/mashro3pdf

- ماذا؟!

- لا وقت للشرح الآن، سأخبرك بكل شيء في الطريق، فقط لملمي أشياءً تكفي لإقامة مؤقتة، واصطحبي أجمل فستان حاكته لك الخياطة.

اعترتني الدهشة ولم يكن أمامي سوى الامتثال لأمره ولملمة الأغراض التي سنحتاجها، وحينما وصلت العربة، سار بنا الحوذي باتجاه بولاق!! فسألته من جديد:

- ألن تخبرني إلى أين؟!

- حسنًا يا أميرتي، لقد تلقيت دعوة من قصر الباشا مع غيري من كبار ضباط الجيش والأمراء وقناصل الدول والأعيان وكبار الموظفين والعلماء للاحتفال بالانتهاء من صناعة سفينة حربية جديدة بالترسانة، سنقضي بالإسكندرية إجازة قصيرة.

وفي بولاق صعدنا إلى مركب أبحرت بنا شمالًا في فرع رشيد مسافة يومين كاملين ثم رست بنا عند بلدة اسمها العطف، ومنها ارتقينا إلى مركب آخر أبحر بنا في ترعة المحمودية، تلك الترعة الشهيرة التي شقَّها الباشا ليصل بين النيل والإسكندرية، وعند غروب الشمس وأنا أقف عند سور المركب، لاحظ كلوت على ملامحي إعجابي بتلك البيوت الكبيرة المقامة على ضفتي المحمودية على خلفية من الحقول الخضراء الشاسعة، فوضع يده على كتفي وهو يقول مبتسمًا:

- هل تعجبك هذه البيوت الجميلة الملوَّنة؟!

ابتسمت واستندت برأسي إلى كتفه، فاستطرد يقول بجدية:

- صديق لي مهندس اسمه دي سريزي، ستزينه في الإسكندرية، حكى لي ذات مَرَّة أن تلك البيوت المطلة على المحمودية لا تخلو ليلًا من عبث العفاريت والأشباح.

fb/mashro3pdf

- عفاريت وأشباح!! هل هذا كلام حقيقي؟!

- تلك المياه العذبة التي تبحرين فيها الآن وتداعب نسماتها ضفائرك الصغيرة وعلى جانبيها تلك الجنات الخضراء، كل هذا كان قبل سنوات قليلة، مجرد صحراء قاحلة مهجورة لا زرع فيها ولا ماء ولا بشر، حتى أمر محمد علي بشق ترعة في تلك الأرض، جمع عسكر الباشا آلافًا من الفلاحين في الجيزة والقليوبية والمنوفية والشرقية والغربية والبحيرة واقتادوهم عبيدًا مربوطين بالحبال لحفر تلك الصحراء بين النهر والبحر، مات أكثر من اثني عشر ألفًا إثر العطش والجوع والمرض وكرابيج العسكر.

- كرابيج العسكر لم تترك ظهرًا حُرًا إلا وأذلّته!!

- كل من مات من الفلاحين دُفِن في مكانه أسفل التلال المرفوعة من قاع المحمودية، حتى من سقط من فرط التعب وكانت فيه روح كان يُهال عليه تراب الحفر!! الوقت لم يكن يسمح بإنقاذ أحد أو دفنه، العسكر لم يعتنوا بجثامين الفلاحين قدر اكتراثهم بتحقيق حُلم وليّ نعمتهم، وفي عام ١٨٢٠ احتفل محمد علي بافتتاح ترعته ولم يسمها باسمه أو باسم أحد من الذين ماتوا أثناء شقِّها، بل أطلق عليها اسم ولي نعمته في الآستانة السلطان محمود فكانت المحمودية!!

- متى يثأر الله للمظلومين!!

- وفي يوم شاءت الظروف أن يبيت دي سريزي هذا خلال رحلة من الإسكندرية إلى القاهرة في بيت مطِلّ على المحمودية مباشرة، أقسم لي بأنه لم ينم طيلة الليل من أصوات الصرخات المكتومة التي كانت تأتي من ناحية الترعة!! ظن أنه قد أصيب بهلاوس سمعية، لكنه في الصباح عرف من الأهالي هناك أن هذه الصرخات المرعبة والأنات

fb/mashro3pdf

المعذَّبة معتاد عليها كل ليلة في هذا المكان!! وأن تلك الأصوات هي آلام أرواح الفلاحين المدفونين على جانبي الترعة أو استغاثات رفاقهم الذين دُفِنوا وهم أحياء!! بعض الناس أقسموا له إنهم في الليالي القمرية يرون خطوط أجساد كثيرة تخرج في الظلام من قلب سواد ترعة المحمودية لتجلس على ضفّتها ثم تقفز بشكل جماعي عائدة إلى قاعها عند رفع أذان الفجر محدثة في أثناء قفزها بالترعة جلبة تقشعر لها الأبدان!!

رصد كلوت الخوف الزاحف على قسماتي فأردف ضاحكًا وهو يضمني إليه:

- تعالي إلى الداخل، السماء قد أظلمت وقد يتشبث أحدهم الآن بسور المركب ويختطفك نحو القاع.

انكمشت في حضنه برعبٍ فيّاض، فاستطرد بمزيدٍ من الضحك:

- لا تخافي، هكذا كثيرمن أهل مصر، الأحياء فيهم أموات والأموات منهم أحياء.

ثم وصلنا الإسكندرية في اليوم التالي قبيل الغروب، شقَّ الحوذي طريقه نحو الحي الإفرنجي ليتوقف بنا أمام أحد الفنادق المطِلّة على البحر، أقمنا في الطابق الثاني منه، إرهاق السفر الذي طال لأربعة أيام كان قد نال منا كثيرًا، استحممت والتففت بشكير أبيض، فلما رآني هكذا اقترب منّي وضمني إليه، ثم أمسك بيدي اليسرى وقبَّلها، وأخرج من جيبه الخاتم الذهبي الذي سبق واشتراه لي من خان الخليلي ليضعه في إصبعي ببطء، قلت:

- الآن فهمت قصدك حينما أخبرتني في الخان أن للروح طقوسًا تراعى في عالم الجسد.

fb/mashro3pdf

- وهل كنت تتصورين أن أقدِم على العبور إلى داخل جسدك دون قربان ذهبي أتعبَّد به إلى روحك أولًا يا سليمة!!

- أنا ملكك.

- أنتِ شريكتي.

استسلمتْ له روحي من فرط رقته فاحتضنني مجددًا وظلَّ يقبلني في شفتيّ الصغيرتين كما لم يقبِّلني من قبل، لا أتذكر على وجه الدقة متى انزاح عني البشكير وسقط أو متى انسدلت عنه كل ملابسه، فقط أذكر انصهاري من تسلل شفتيه لرقبتي وكيف سحرَ جسدي بقبلات رائقة تحت إبطي، بعدها انساب إلى كافة أنحائي وواصل بسحره احتلال كل أرجائي في تسليم كاملٍ منّي، إلى أن وصل ولامس بأنامله بلل عتبات جنتي، بعدها رفعَ أناملَه أمام عينيّ قائلًا بخشوع العاشقين فوق ملاءات أسرة الفتنة:

- هذا رحيقك يا سليمة!! ألم أخبرك من قبل يا حبيبتي أنك فيضان من البنات!!

رددتُ بحرفين أرهقهما تقطر الرحيق:

- آه!!

بحرفية عاشق أسدل كلوت الستار على سنوات عُذريتي المظلمة فصرت أتدفق حتى مطلع الفجر!! بعدها رحنا في النوم لوقتٍ قليل ثم استيقظنا كي نتأهب لحضور حفل السفينة الجديدة، ارتدى كلوت بدلته بعد أن استحم وكذلك ارتديت أنا فستانًا زهريًّا، وحين انتهيت ورآني هكذا شهق بعمقٍ وقال:

- أنت عروس سمراء من عرائس النيل!!

fb/mashro3pdf

وقبل أن أسدل الحرير الأسود فوق الفستان تأهبًا للبس البرقع، استطرد:

- لا، أنتِ جميلة هكذا، ستنزلين معي بالفستان فقط وستضعين قبعته على رأسك كالفرنسيات دون برقع أو هذي من هذا القبيل، الحفل سيكون مليئًا بالأوروبيين والأوروبيات، لن يستهجنك أحد، فقط سيُدهشون من الأميرة البرونزية التي بُعثت على يدي من قلب القاهرة!!

ثم وضع يده بيدي واصطحبني لخارج الحجرة، وقبل أن نترك البهو طلب كلوت من السيدة اليونانية صاحبة الفندق ألا يقوم أحد بتغيير ملاءة السرير لأنه سيشتريها للذكرى مقابل أي ثمن تحدده!!

في ترسانة الإسكندرية جلست بالصفوف الخلفية مع عائلات المدعوين بينما تقدم كلوت نحو الصفوف الأولى، كانت المرة الأولى التي أرى فيها محمد علي وابنه إبراهيم!! خفق قلبي بقسوة، بدا على هذا السفاح سعادة طفولية بقطعته الحربية الجديدة، داهمتني كل الأفكار التي كان من شأنها أن تقضي على عُمر الباشا ومستقبل كلوت وحياتي، لمَ لا أنادي على محمد علي وأقترب منه ثم أبصق في وجهه بعد أن جردني عسكره من ملابسي في شندي؟! لمَ لا أستل سكينًا من أحدهم لأحز رقبته جزاء استرقاق بنات سنار ونسائها؟! لمَ لا أخطف بندقية أحد حراسه وأصوب فوهتها نحو رأسه قصاصًا لمجزرته في كورتي؟! لمَ لا أصعد للمنصة الواقف عليها كي أركله في خصيتيه ثأرًا لخصيتيّ سر الختام؟! في كل الأحوال كان الباشا بعيدًا مزهوًا بفرحته، لم أستطع أن أصل إليه لكن قلبي حدثني بأني حتمًا سأصل إليه في يومٍ ما!!

fb/mashro3pdf

انزلقت السفينة إلى البحر بمدافعها ما بين تصفيق وتكبير وانقضى الحفل، ظللت بمكاني حتى رأيت كلوت يلوح لي من بعيد وبرفقته رجلين، قمت إليهم ثم قدَّمهما لي كلوت، أحدهما الحاج عمر الذي رحَّب بي قائلًا:

- إسكندرية زاد نورها يا بنتي.

في حين رفع الآخر يدي إلى أعلى وقبَّلها بعدما رطن بالفرنسية:

- بنسوار مدموازيل سليمة.

ثم إلى كلوت غامزًا بدعابة:

- من أين لك بتلك الأميرة الفرعونية أيها المحظوظ؟!

هكذا قال مسيو دي سريزي مؤسس ترسانة الإسكندرية ومهندس أسطول الباشا والذي استطرد بابتسامة عريضة:

- حدَّثني عنك كلوت كثيرًا في مراسلاته، ينتظرك مستقبل باهر.

اتسعت عيناي عجبًا والتفتُ إلى كلوت الذي بدا عليه الارتباك، فاستدرك دي سريزي بضحك:

- آوه آسف، ألم تخبرها بعد يا كلوت؟! يبدو أنني كدت أفسد مفاجأتك لها يا دكتور،على أية حال دعونا نتحرك من الترسانة.

صمم الحاج عمر على ضيافتنا جميعًا ببيته الكبير الواقع على مقربة من قلعة قايتباي الشهيرة، وبالطريق سألني الحاج عمر عن جذوري وعرف أن أصلي من شندي فأجاب:

- أحسن ناس والله.

ثم ظهرت بعينيه نظرة احترام وعطف وإشفاق، نظرة أنا فقط من فككت طلاسمها دون الاثنين الآخرين، نظرة لم أرَها منذ نظرت بعينيَّ أبي للمَرَّة الأخيرة حين أمسكَتْ أمي السلم كي أصعد عليه وأفرّ نحو

fb/mashro3pdf

سطح البيت هربًا من عسكر الباشا تحت جنح الظلام.

عقب الوصول، كانت رائحة البوري المشوي والجمبري تفوح من المكان، عهد بي الحاج عمر إلى نساء بيته في الحرملك لأستريح وأوصاهم بي قائلًا:

- أوصيكم بابنة شندي خيرًا.

وفي الحرملك سألني الحاج عمر عن علاقتي بكلوت وعرف أني جاريته، فقال والحزن على وجهه:

- كما توقعت، فكَّ الله كربنا جميعًا ولعن من مَلّك بناتنا للغرباء!! لو وجدتِ نفسك بحاجة إلى شيءٍ أو مساعدة في هذا البلد فلا تترددي، ها قد عرفتِ المكان.

- لا حرمني الله منك يا أبي.

قلتها بدون شعور واعتذرت له بعدها فضمني إليه وهو يقول:

- لا تعتذري فأنتِ مثل بناتي والله.

الحاج عمر الذي ارتسمت على ملامحه أمارات النخوة والشهامة عرفت أنه من أقدم وأمهر مُعلمي صناعة السفن بالإسكندرية، ولما اعتزم الباشا تأسيس أسطول له على الطراز الحديث عاهدًا بذلك إلى دي سريزي، أبقى المهندس الفرنسي على الحاج عمر كيَدٍ يمنى له في كل كبيرة وصغيرة داخل الترسانة وخارجها وذلك لخبرة الحاج وإخلاصه.

وبعد الغداء دار بين ثلاثتهم حديثٌ بلغة عربية جيدة من كلوت وركيكة جدًا من دي سريزي، وذلك حتى يشاركهم الحاج عمر النقاش حول الحروب التي خاضها الباشا والحروب التي ينتوي خوضها مجددًا، أما أنا فقد انشغلت بقطع الفاكهة إلى أن انتهوا وانصرفنا، بعدها أصر دي سريزي على دعوتي أنا وكلوت لمقهى إيطالي على البحر، ولسبب

fb/mashro3pdf

غامض تغيرت ملامح دي سريزي كثيرًا وهو يطالع قائمة الطعام والمشروبات!! ولكن كلوت سرعان ما تدخل وسحب القائمة من يده وطلب لنا صنفًا مدهشًا من الحلوى، جليد مُحلى بالسكر وملون يُدعى جيلاتو، خليط من الثلوج والحليب والفواكه والجوز والسكر يُقدم في كؤوس زجاجية، حلوى باردة جدًّا إلى حد التجمد!! جلبها الإيطاليون إلى الإسكندرية، من أعجب الأشياء التي تذوَّقتها بحياتي!! وأثناء دهشتي المفعمة بالبهجة مما أتذوق، داهمني كلوت بخبرٍ غيَّر مسار حياتي وأبدًا لم يخطر لي على بال!! قال:

- بما أن دي سريزي كاد أن يفسد عليَّ في الترسانة المفاجأة التي رتبتها لك، لذا يتحتم الآن إخبارك بأن هذا الجيلاتو احتفاءً منا بلقب «دكتور» الذي سيُضاف قريبًا إلى اسمك يا سليمة.

رفع دي سريزي كأس الجيلاتو في الهواء صائحًا:

- في صحة دكتور سليمة.

فرفع كلوت بدوره كأسه والتفت إلينا كل مَن بالمكان في تعجُّب من الرجلين الفرنسيين اللذين بصحبة تلك السمراء التي ترتدي كالأوروبيات!! وفي حين كانت دهشتي تربك ذهني عن التفكير، استطرد كلوت قائلًا:

- بما أنك تجيدين قراءة العربية وكتابتها وصرت الآن تجيدين الفرنسية بغض النظر عن عار اللكنة التي تنطقين بها.

ضحكت أنا ودي سريزي بينما استمر كلوت في كشف المفاجأة:

- لقد أسسنا اسبتالية ومدرسة للطب في أبي زعبل كما تعرفين من أجل جيش الباشا، ثم بدأ العوام أيضًا في الاستفادة منها، وبمراقبة الأحوال وجدت أن الرجل الشرقي لديه حساسية من كشف جسد

fb/mashro3pdf

امرأته على الأطباء باعتبارهم غرباء، فضلًا عن العادات التي لا تسمح للرجال بتوليد النساء، وانتشالًا للأهالي من هذا الجهل، اقترحت على الباشا فكرة مستقبلية بتأسيس مدرسة للقابلات والولادة يُلحق بها اسبتالية للنساء، فابتهج الباشا بالفكرة وأثنى عليها ووافق بشكلٍ مبدئي، وإلى أن يُنعم ببدء التنفيذ قررت اصطحابك بشكل استثنائي وخاص لمدرسة الطب لإعدادك هناك كقابلة محترفة، على أن تساعديني في الإشراف المباشر على بنات تلك المدرسة عقب إنشائها.

بلا شعور انتفضت من مقعدي واحتضنته بكل ما أوتيت في الدنيا من فرحة غير مصدقة!!

وعقب التهامنا لهذا الجيلاتو اللذيذ، خرجنا من المقهى، قام بوداعنا مسيو دي سريزي متعجبًا من أننا لم نقم بالمسافر خانة رغم كوننا من ضيوف الباشا في تلك المناسبة!! لكن كلوت برَّر له ذلك بأنه فضّل أن يكون على راحته بدون قيود، لذا اختار ذلك الفندق الصغير، ردَّ عليه دي سريزي غامزًا بعينه:

- فلتبق على راحتك كما تريد، أتمنى لكما ليلة سعيدة.

ثم استوقفنا عربة نحو الفندق، وبالطريق قال كلوت:

- مسكين دي سريزي، رغم البهجة التي تبدو على ملامحه إلا أنها تخفي وراءها صندوقًا مغلقًا من الأحزان.

- كيف؟!

- قبل أن يخرج لويس دي سريزي كالعادة إلى عمله في ميناء تولون بفرنسا، قبّل ابنته النائمة إيلين ثم ودَّع زوجته جين وطلب منها أن تجهز له على العشاء شرائح السلمون المشوي مع نبيذ أبيض، عند الظهيرة خرجت جين بصحبة طفلتها إيلين إلى سوق الأسماك عند البحر، وعند

fb/mashro3pdf

الغـروب عـاد دي سريـزي للبيـت ولم يجـد السـلمون ولا النبيـذ، وعقـب يومـين مـن البحـث، رمـت أمـواج تولـون جثـة جـين إلى الشـاطئ وبعدهـا بسـاعات وُجِدَت جثـة إيلـين في موضـع غـير بعيـد، وعليهـما آثـار الغـرق، عـاش دي سريـزي مصدومًـا وقـرر أن يـترك كل شيء هنـاك ويـأتي إلى مـصر في محاولـة منـه للهـرب مـن كل مـا يذكِّـره بأسرتـه الميتـة!!

تنهد كلوت بعمقٍ ثم واصل:

- لـذا تغـيَّرت ملامحـه وانطفـأ وجهـه بالمقهـى حينـما طالـع قائمـة المأكـولات والمشروبـات ووجـد السـلمون المشـوي والنبيـذ الأبيـض، منـذ ذلـك الوقـت حـرَّم دي سريـزي عـلى نفسـه كل مـا كان مشـتركًا مـع زوجتـه وابنتـه، لربـما يجتمـع بهـما ثانيـة في مـكان آخـر وزمـان آخـر لتنـاول العشـاء!!

- لكن ملامحه وبهجته لا تنم أبدًا عن كل هذه الأحزان!!

- كلهـم في ترسـانة الإسـكندرية يحسـدون دي سريـزي عـلى راتبـه الشـهري والـذي يـوازي حـوالي عشريـن ألـف فرنـك فرنـسي، ويرجعـون بهجتـه الدائمـة إلى عـدم معاناتـه!! إن نثـر النـكات والبهجـة عـلى مَـن حولنـا ليـس بالـضرورة دليـلًا دامغًـا عـلى سـعادتنا، قـد يكـون ذلـك مجـرد قنـاع نـداوي بـه جـراح أرواحنـا، أكثـر الخلـق توزيعًـا للابتسـامات هـم الأعمـق حزنًـا والأشـد ألمًـا!!

توقفـت بنـا العربـة أمـام الفنـدق، هبطنـا واجتزنـا المدخـل نحـو السـيدة اليونانيـة التـي كانـت مسـتغرقة في قـراءة روايـة قديمـة بـأوراق مصفـرة، قـال لهـا كلـوت بابتسـامة أكثـر هـدوءًا:

- بُنسـوار مـدام، آسـف عـلى إيقـاف أحلامـك، أسـتأذنك في مفتـاح الحجـرة.

ابتسمت وردت وكأنها بالفعل استيقظت للتو من عالم مختلف:

fb/mashro3pdf

- مرحبا مسيو كلوت، تفضل المفتاح، لكن اسمحا لي أن أشعل أنا أحلامكما هذه الليلة.

قالتها وعادت إلى مطالعة روايتها!! اعترتنا بعض الدهشة ولم نفهم ماذا تقصد، صعدنا الطابق الثاني، أدار كلوت المفتاح بالباب، شهقنا وتسمرنا من روعة ما رأينا!!

كان المشهد بالغرفة رائعًا، شموع تضيء المكان، زهور التوليب النقية البيضاء منثورة على الأرض وأريجها يتصاعد، وعلى السرير رُسِمَت قلوب بزهور صغيرة مجففة حول آثار رحيق حبنا الذي جفَّ على الملاءة!! وأمام المرآة تُرِكَ ظرف صغير بداخله رسالة كُتبت بخط أنثوي منمق:

«مسيو كلوت، لما رأيت آثاركما على الملاءة، أدركت لمَ إصرارك على الاحتفاظ بها مقابل أي ثمن، كل هذا الرحيق لا يفيض من سليمة إلا إذا انصهرت بعد صبرٍ في أحضان رجل أحبَّها بصدقٍ، فاستأمنته على روحها وتألق جسدها، وللذكرى الجميلة أرجو أن تحتفظا بتلك الزهور بين طيات الملاءة الساحرة، ومن كل قلبي أتمنى لكما دوام العشق، استمرا بإتقان الحب إلى ما لا نهاية، تقبّلا تحيات يونانية وحيدة أبدًا لن تنسى روعة ما رأت منكما».

هذه الرسالة وتلك الأجواء أشعلت أحلامنا كما تعهدت لنا تلك السيدة قبل أن نصعد إلى الغرفة، وفي الصباح، اعتزمنا شكرها على كل ما صنعته من أجلنا الليلة الفائتة، وقررنا شراء هدية لها على سبيل الذكرى الجميلة، لكننا لم نجدها، وجدنا مكانها شابًا إيطاليًا آخر قال لنا حينما سألناه عنها:

fb/mashro3pdf

- تلك السيدة حزمت حقائبها ورحلت نحو اليونان عند الفجر، لقد باعت هذا الفندق لأبي منذ ثلاثة أيام، لكنها ظلت حتى الأمس من أجل تسليم إدارة المكان على نحو غير مربك للمالك الجديد.

وبعد أن انتهى الشاب من كلامه قام كلوت بتسليمه مفتاح الحجرة، فلاحظ الشاب أن المفتاح يحمل رقم سبعة، فاستطرد يقول:

- آه حسنا، رقم سبعة، لقد تركت لكم المالكة القديمة رسالة صغيرة قبل تحرُّكها للميناء، فتح كلوت الورقة المطوية ليجد فيها بذات الخط الأنثوي المنمَّق:

"كلوت وسليمة، أسعد الله صباحكما، أتمنى أن تكونا قد قضيتما ليلة سعيدة، قبل أن أودّع الإسكندرية دفعت لكما حساب إقامتكما بالفندق حتى شمس اليوم كهدية صغيرة، كما حاسبت الإدارة الجديدة على ملاءة السرير، هي من الآن بكل زهورها ورحيقها مِلكٌ لكما، تقبّلا تحيات يونانية وحيدة أبدًا لن تنسى روعة ما رأت منكما."

ستظل الإسكندرية هي أفضل ما يحدث للإنسان بحياته، وستبقى في ذاكرة أي عابر عليها كأجمل حُلم سعيد، لذا مرت أوقاتها سريعًا وعدنا إلى القاهرة، وفي الدرب الأصفر فوجئنا بكلارا التي ترددّت سمعتها أكثر فأكثر قد رحلت عن الطابق العلوي والدرب كله، أما الأيام فقد مرت على عَجلٍ، ما بين الدراسة في أبي زعبل نهارًا والمذاكرة التي يعقبها تمرغ في أحضان كلوت ليلًا، وحدث أن انقطع عني الدم لشهرين فأدركت حملي الذي لم يستمر لسقوط الجنين، وشعرت أن هذا السقوط قد نال استحسانًا خفيًا من كلوت، تأكد لديّ هذا الشعور لما حرص كلوت من بعدها في كل مَرَّة على نشر ماء عشقه الدافئ بكل أرجاء جسدي إلا داخلي!!

fb/mashro3pdf

ومع الأيام هبطت أشواقنا شيئًا فشيئًا لكن كلوت ظلّ على نبله، ولم يعكر صفوي نحوه سوى مَرَّة أنهيت فيها يومي مبكرًا بالمدرسة على غير المعتاد، أدرت مفتاح الباب ودخلت، فوجئت بكلوت في البيت!! المفاجأة الأكبر كمنت في أنه لم يكن وحيدًا!! تأوهاتها الحارة معه كانت تدوي قادمة من خلف الباب الموارب، خفق قلبي بشدة وترددت كثيرًا قبل أن أطلّ عليهما، قسوة المشهد أبدًا لن تبرح مخيلتي، زوجة أحد أصدقائه الفرنسيين كانت عارية تتلوى تحته، وبالطبع لم يشعرا بي وأنا بدوري لم أزعجهما، وكجارية مثالية انتظرت على المصطبة الخشبية بجوار المشربية، سهمت في صخب شارع المعز فرارًا من صخبهما، ولما انتهيا، خرجا من الحجرة مثل آدم وحواء لحظة هبوطهما على الأرض أول مَرَّة!!

فوجئنا بي، ارتبك كلوت وتلقائيًا حاول ستر عورته بيده كأنما أراه لأول مَرَّة، أما السافلة فقد ارتدت ملابسها على مهلٍ، وتعمدَتْ قبل ذهابها طبع قُبلة على شفتيه!! وعقب مغادرتها حاول كلوت بكلمات مرتبكة أن يشرح ما حدث متحاشيًا النظر في عينيّ:

- صدّقيني يا سليمة، لقد أتت هنا كي أقوم بالكشف عليها لشكها بمرض يقلقها، وحين جاءت وصرنا وحدنا بالمكان، حدث بيننا ما حدث رغمًا عنا.

كأنني لم يكن أمامي سوى التظاهر بتصديق تلك الرواية الهزلية البائسة، وألا أفكر في أن هذا الموعد كان مُرتَّبًا بعناية وأن الأمر لم يكن لينكشف إلا قدريًّا!! كان عليَّ أن أنسى أصوات شهقاته والكلمات المتسخة بينهما!! كان عليَّ ألا أفكر في كم مَرَّة فعلها كلوت من قبل ومع مَن؟! كان عليَّ ألا أتخيل عدد المرات التي نام فيها الطبيب المحترم مع

fb/mashro3pdf

الزوجة الخائنة في فراشي وربما أيضًا في فراش زوجها؟! غير متاح أمام المرأة في مثل هذه المواقف سوى تصديق مثل هذه الروايات الهزلية البائسة للرجال إن أرادت الأمان والاستقرار والاستمرار بحياة من خانها.. نعم التصديق، فقط التصديق وببلاهة، ثم اصطناع المغفرة، هذا عن المرأة الحُرَّة، أما الجارية فلا تملك من أمرها شيئًا سوى الانتظار على المصطبة جوار المشربية في صمتٍ حتى ينتهي سيدها من مضاجعة زوجة صديقه!!

* * *

fb/mashro3pdf

حسام

بأذنيكِ يا سليمة سمعتِ شهقاته وبعينيكِ رأيتِها تتلوى تحته!! لم يدر بخيالك أن القدر سيأتي بعد أكثر من قرن ونصف بإنسان غريب يقرأ ما كتبتِه ويشعر بنصل السكين البارد الذي حز قلبك في تلك اللحظة!! كم أتمنى أن يُكذِّب القدر ظنوني ولا يحز نصل السكين البارد قلبي أنا أيضًا!! كم أتمنى ألا تكون الأنثى التي تلوَّت أسفل رجل على غلاف مجلة اللوتس هي عبير!!

* * *

fb/mashro3pdf

عبير

وأخيرًا رقية البلانة، لكن وقبل أن أتمدد أمامها وأستسلم بين يديها كي تعيد لجسدي كامل بريقه، تركتُ لحسام رسالة مؤقتة على الـ Yahoo Messenger، حسام الذي كان من المفترض أن يكون حبيبي ذات ليلة لولا نادر الزيني الذي غيَّر مبكرًا مسار حياتي في نفس الليلة!! حتى اللحظة ما زلت غير قادرة على استيعاب المفاجأة التي رتبها القدر خصيصًا لحضرة الضابط مكافأة له عن مجمل أعماله!!

- آه، على مهلك يا رقية.
- اصبري وسأجعلك شمعة السكاكيني كله.
- أريد أن أكون شمعة شارع قصر العيني لا السكاكيني.
- طيب، ارفعي رجلك.

****

منذ اليوم الأول في مجلة اللوتس أدركت أن نعومة صعود الأنثى داخل المؤسسات الصحفية تعتمد كثيرًا على مدى إدراك من حولها لنعومة قدميها!! نعومتي هذه فتحت لي أبوابًا كانت مغلقة في وجوه مَن هم في مثل عمري من الصحفيين المتدربين أو المبتدئين، الأنثى الجميلة بأروقة الصحف يسعى كل مَن بالمكان إلى مساندتها والفيض

fb/mashro3pdf

عليها بأنقى خلاصات الحكمة والتجربة، ليس هذا فحسب بل وبحنوٍّ بالغ أيضًا، في حين يواجه ذكر الصحافة سخافات شتى وصعوبات عديدة من أجل التدرب واكتساب الخبرات وتكوين المصادر وهو ما لم أتعرض له على وجه الإطلاق في مجلة اللوتس بقدمي الناعمتين.

هذا عن الصحافة، أما عن الوطن، فقد اختلف تمامًا مضمون التقارير التي أكتبها لحضرة الضابط، صرت أقدم لنادر الزيني تقارير عن رفاق المهنة بدلًا من زملاء الجامعة مما أكسَب ما أكتبه قيمة أكبر، وعقب تسليم كل تقرير كان الحديث ينتقل بنا من دنيا السياسة إلى عالم الجسد، ومثلما تحولت على يديه من طالبة جميلة إلى جندية من جنود مصر، تحوّلتُ على فراشه من صحفية شابة إلى امرأة يافعة، فض حضرة الضابط عذريتي بناءً على طلب منه ورغبة منّي، لم أكن لأعصيه فهو صاحب الفضل، ولم أكن لأقاومه فقد اشتقت له بدلًا من أنصاف حلول المتعة في ظلمات شارع نهرو خلف الميريلاند والتي تُجوّع الأنثى أكثر مما تشبعها!! وذات مساء وعقب أن انتهى من معاشرتي لثالث مَرَّة على التوالي باح لي بأني قد أغنيته عن الكثيرات، السؤال الذي دار بذهني هو كيف لا تتقن زوجته الاحتفاظ به وأنا أطويه كيفما أشاء؟! يا لها من امرأة غبية!! كثيرًا ما كانت تلك المرأة تخطر ببالي وأنا تحت المياه الساخنة في كل مَرَّة أستحم فيها عند عودتي للحارة عقب مشقة الخدمة الوطنية!!

بانقضاء عهد عذريتي كسرت وإلى الأبد حاجز الجسد الذي قد يحول بين الأنثى وتسلقها المهني في بلد مثل مصر، هذا الحاجز الذي إن كسرته أنثى الصعود مَرَّة فلن تكون هناك قوة على سطح الكوكب قادرة على إيقاف تحليقها نحو السماء، صرت نموذجًا لصحفية حسناء

fb/mashro3pdf

بلا بكارة، تمارس تحقيقات مملوءة عن آخرها بالكذب والخداع والتضليل من أجل الوطن!!

وعند وصولي ذات صباح إلى مقر المجلة بشارع قصر العيني، تلقيت اتصالًا من مديرة مكتب رئيس التحرير تخبرني فيه أن منعم بك المحمودي طلب أن أدخل إليه فور وصولي، اندهشت!! طالما تمنيت فرصة أحتكّ فيها برئيس التحرير نفسه لكن فيمَ يريدني الرجل!! منعم المحمودي هو أشهر أعزب بالصحافة المصرية، عزوفه عن الزواج منح بعض حساده وخصومه فرصة لنشر شائعات شذوذه أو ضعفه، أسرعت نحو طابقه جريًا على السلم ولم أنتظر المصعد، سمحت لي مديرة مكتبه بالدخول عقب استئذانه، المكان من الداخل كان كبيرًا ومبهرًا أما هو فقد كان بالنصف الثاني من الخمسينيات يدخن السيجار خلف مكتب زجاجي، كان يتحدث بهاتفه المحمول وفي أعلى الجدار من خلفه صورة كبيرة ضاحكة تجمعه بالرئيس، بسيجاره أشار لي بالجلوس، وفي المسافة من الباب إلى الكرسي كان قد قرأ كل تفاصيلي بعينيه دون حياء، وعقب انتهائه من الهاتف قال:

- أنتِ...

ثم نظر بالورقة أمامه كي يتذكر الاسم واستكمل:

- آه عبير، الهانم أشادت بتحقيقك عن مشاركة المرأة بدمياط في انتخابات المجلس.

ابتسمتُ بشدة لأن كلمة هانم إذا عُرّفت بحرفي الألف واللام فهي تعني في عُرفنا قرينة الرئيس، في تلك اللحظة أيقنت تمامًا أن أجود التحقيقات الصحفية هي أكذبها على الإطلاق، لمَ لا وقد قمت بفبركة كل ما جاء في هذا التحقيق، أما الحقيقة فقد أرسلت كل تفاصيلها نحو

fb/mashro3pdf

الخليج عبر وسطاء قدروا قيمتها بالدولار الأمريكي، ثم استطرد:

- وطالما أن هذا أعجب الهانم فأنا أنتظر من صحفية مجتهدة مثلك تقديم سلسلة أفكار أخرى تصلح كتحقيقات في نفس الاتجاه، معك مهلة سبعة أيام كاملة.

انتهت المقابلة التي لم تستمر سوى خمس دقائق، خرجت من عنده طائرة من الفرح، لِمَ لا وقد نلت دولارات الجزيرة ورضا الهانم وإشادة رئيس التحرير، ولكن بدا أن هذا اليوم كان لديه المزيد من المفاجآت غير المتوقعة!!

في المساء وجدت من يطلبني على الهاتف الأرضي، امرأة تريد أن تتحدث إلى عبير، كل ما قالته أنها ممرضة بمستشفى قصر العيني وأن مريضًا عندهم حالته متدهورة أعطاها رقمي ولا أمنية له سوى أن يراني، وطلب منها ألا تبوح باسمه!! ثم أملتني رقم غرفته، بت ليلتي وأنا في حيرة شديدة، مَن هذا الرجل؟! هل بالأمر خُدعة؟! مَن يريد أن يورطني أو ينصب لي كمينًا لن يستدرجني إلى مستشفى قصر العيني!! فكرت أن أتجاهل الأمر كله وأنام، لكن الفضول كاد يقتلني!!

في الصباح، صعدت إلى أحد طوابق قصر العيني، وعندما استوقفت إحدى الممرضات لأستعلم منها عن مكان الغرفة قالت بتعجب:

- يا فرج الله!! أخيرًا سأل عنه أحد!

اقتربت من الباب الموارب ثم دفعته ببطء، تبدت لي المفاجأة شيئًا فشيئًا، كان على سريره الأبيض شاردًا بعينيه من النافذة نحو زُرقة السماء، تعرفت عليه من أول وهلة رغم فقده الكثير من وزنه وتكالب آثار الزمن عليه، رقد على الفراش كجزء من أشلاء الماضي والذاكرة، لم أرَه منذ غروب الجمعة التي لملم فيها أوراقه وأغراضه من قاع حارة

fb/mashro3pdf

الفصل خارجًا منها وسط نكات الساخرين وبذاءات الشتامين.

التفتَ إليَّ، شهق بأنفاس مُنهكة قائلًا:

- عبير!! كنت أشعر أنك ستأتين وأني سأراك ثانية.

تهلل وجهه الشاحب بالفرحة واكتست ملامحه الباهتة بالبهجة كما لو أن حياة جديدة زارته، اقتربت منه أكثر فأكثر، دون شعور ملت عليه واحتضنته، ساعدته على الاعتدال في سريره، سحبت كرسيًّا وجلست جواره، كان يتنفس بصعوبة وغير قادر على الكلام بسهولة، ظلَّ ينظر إليَّ ويحدق فاتحًا عينيه قدر استطاعته غير مصدق أني أمامه بعد كل هذه السنوات، أردت أن أكسر حاجز صمته المتأمل فقلت:

- كيف حال حضرتك يا أستاذ رائف؟؟

- حالتي تتدهور ساعة بعد أخرى ولا أعرف إلى متى سأبقى حيًّا!!

ثم صمت وظلَّ يحدق بي ثانية قبل أن يستطرد:

- هل تعرفين لِمَ طلبت رؤيتك؟؟

- لِمَ يا أستاذ رائف؟!

- فقط لأسألك عقب كل هذه السنوات، لماذا يا عبير؟!

أدركت أنه يسأل عن الجرح القديم الذي تركته فيه لما ادعيت كذبًا أنه مسكني من جسمي حينما كان معي بالغرفة أثناء الدرس وما تبع ذلك من طردِهِ وإهانته وتشويه سمعته في الحي والمدرسة، ولم أجد ردًّا على استفهامه هذا سوى السكوت والنظر بالأرض، مدَّ يده ورفع وجهي إليه ثانية وهو يقول:

- اجعليني أرى وجهك يا عبير ولا تُضيعي عليَّ تلك الدقائق التي تذهب ولا تعود ولم يعد لدي الكثير منها، وإذا كنتِ غير راغبة في تفسير ما فعلتِه فدعيني أبرر لك لِمَ شعرت بانجذاب نحوك منذ رأيتك

fb/mashro3pdf

أول مَرَّة بالمدرسة الثانوية رغم كونك حينها في عمر ابنة لي لو كنت تزوجت، ولماذا امتدت يدي لتلامس يدك دون إرادة منّي في هذا اليوم المشئوم قبل صراخك نحو أمك وزوجها سليط اللسان، أبدًا لم أقصد بك سوءًا ولم أكن في يوم من المتحرشين، سأفصح لك عما أخفيتُه عنك وعن غيرك لسنوات طويلة وهو ما كان سببًا في عدم زواجي حتى الآن.

- لا تُجهد نفسك بالكلام أرجوك.

ثم صمتَ قليلًا قبل أن يدير رأسه وينظر من نافذة الغرفة إلى السماء مُتذكرًا:

- كان اسمها سموات وتصغرني بعام واحد، كنت طالبًا بقسم الجغرافيا في كلية الآداب وهي بقسم الفلسفة، في عمري لم أحب مثلها، كانت يتيمة الأم وعلى سبيل الوفاء في الذكرى السنوية كان والدها يصحبها إلى مدافن الإمام الشافعي لزيارة قبر أمها كل عام، وفي هذا اليوم من شتاء ١٩٦٩ لم يستطع أبوها زيارة قبر أمها كعادته بسبب الأمطار الغزيرة وفضل تأجيل الزيارة ليوم لاحق، لكن سموات لم تستطع الغياب عن زيارة أمها، تحججت بالذهاب إلى إحدى زميلاتها من أجل أخذ محاضرات هامة، ثم اتجهت نحو مدافن الإمام، وعقب تلاوة الفاتحة والدعاء، أخذت طريق العودة وانتظرت على محطة الأتوبيس جوار قلعة صلاح الدين، وأثناء وقوفها جاء أحدهم بسيارته مسرعًا، وبسبب الأرض الزلقة اختل توازنه وصعد الرصيف ليدهس سموات، حملها أولاد الحلال إلى مستشفى القلعة، وعلى الفور دخلت إلى غرفة العمليات وهي مصابة بشرخ في الجمجمة ونزيف بالمخ وتهتك بالرئة وكسور مضاعفة بالذراعين والساقين، من الظهيرة

fb/mashro3pdf

وحتى الغروب ظلت سموات بالعمليات لحوالي ٦ ساعات، لتخرج بعدها مباشرة نحو الثلاجة!! لو كنت أعلم أن هذا اليوم هو الأخير لحبيبتي لارتميت في حضنها حتى يأتي عزرائيل!!

بعدما تلقيتُ الخبر عبر التليفون، وضعت السماعة ثم تحركتُ بأقدام ثقيلة نحو الحمّام، أغلقت من خلفي الباب، حدقت بالمرآة في ذهولٍ وأنا أتمتم مرتجفًا غير مصدق: «سموات ماتت»!! ولأنها استأمنتني على سِرّ حبي لها وهي حية فكان فمن باب أولى أنا أسترها وهي غائبة، لذا لم يكن أمامي سوى أن أضع يدي على فمي كي أكتم انهياري عن أمي التي بالخارج، كثيرًا ما تمنيت أن أحمل حبيبتي بذراعيَ فتحققت أمنيتي ولكن وهي داخل خشبة!! ما حييت لن أنسى مشهد سموات وهي تُوارَى بقبرها إلى جوار أمها وبياض كفنها يغيب عن عينيَّ نحو الأسفل شيئًا فشيئًا، كنت مجرد غريب يبكي في جنازة غريبة، لا أقسى من كتمان رجل سر نحيبه على حبيبة توارى في التراب!!

أكان لا بد أن تحرمني منها يا الله؟! وإذا كان كذلك فلماذا على هذا النحو القاسي؟! كثيرًا ما كنت أسأل الله هذا السؤال وأنا أبكيها وحيدًا في عمق الليل، أنا أضعف كثيرًا من صور جنازتها التي ظلت متشبثة بمخيلتي ولم تكف يومًا عن مهاجمتي في النوم واليقظة!! ثم مرت الشهور والسنوات، رحلت حبيبتي سموات وهي ابنة ثمانية عشر عامًا بينما رحت أنا أكبر عامًا بعد آخر، غادرت حبيبتي الدنيا بِكرًا وظلَّ كل شيء في أوله يذكّرني بملامحها، البرتقال الأخضر، رذاذ مطر الخريف، وميلاد البنفسج في الربيع، ظلَّ كل شيء حلو على تلك الأرض يهمس في أذني باسمها حتى تسلل البياض إلى شعري دون شعور ولم أقوَ على الارتباط بغيرها!!

fb/mashro3pdf

وذات نهار لن أنساه، وبرداء أزرق هادئ رأيتك أنتِ يا عبير وسط رفيقاتك تضحكين بفناء المدرسة، خُطِفَت روحي وسُلِبَ عقلي!! لم أصدق هذا القدر من الشبه بينكما!! سموات كانت محجبة رقيقة ورأيت فيكِ كل ملامحها!! اكتشفت منك لأول مَرَّة عقب كل هذه السنوات طول شعرها ولونه!! كان كل ما فيها فيكِ يا عبير، لذا لم أستطع رفع عيني عنكِ، لقد جعلتِني أشعر أنها ما زالت حية تتحرك أمامي!! ثم كان منك كل ما كان...

توقف الأستاذ رائف عن الحكي حينما وجد الدموع على خدي قد جرت مثل ينابيع تفجرت من بين صخر السنوات، مدَّ يده محاولًا مسح دموعي فأمسكت بها وقَبَّلتها في رفق، قلت له:

- سامحني، سامحني أرجوك.

في تلك اللحظة لم أكن أطلب السماح من مدرسي القديم بل من أبي المريض الذي أجرمت في حقه وضاعفت ما على كاهله من جروح الدنيا، قلت له وأنا أبتسم في عينيه:

- لن نفترق ثانية يا بابا، أعمل هنا جوار المستشفى وسأزورك كل يوم مرتين حتى يتم الله شفاءك، لدي الكثير مما أريد أن أحكيه لك وأستشيرك فيه وأبوح.

وقبل أن أودعه مؤقتًا، أخرج الأستاذ رائف من أسفل وسادته مظروفًا أبيض وأوصاني ألا أفتحه إلا في حارة الفص قبل أن أنام في المساء، ثم قال وهو يتنفس بصعوبة:

- هذا يخصك، ما في داخله احتفظت به لسنوات طويلة، صدقيني يا عبير، لا أجمل من تلك الأشياء البسيطة التي تعيدنا إلى الوراء.

fb/mashro3pdf

وضعت المظروف بشنطتي، ثم قمت واحتضنته قبل أن أغادره نحو المجلة، وما إن تركت الغرفة نحو السلم، حتى سمعت رائف وهو يتوجع من فرط الألم، بدا أنه قد تماسك كثيرًا أمامي!!

في المجلة وعقب منتصف النهار، توجهت لمكتب منعم المحمودي، سمح لي بالدخول فورًا بعدما أبلغته مديرة المكتب بوجودي، وقبل أن أعبر من أمامها نحو الداخل رمقتني بنظرة نسوية لا تخرج إلا من أنثى إلى أنثى على سبيل:

- مرحبًا بك في نادي العُراة.

بمجرد دخولي بادرني المحمودي قائلًا:

- فعلًا؟! لم يمضِ من مهلة الأسبوع إلا ٢٤ ساعة!! يعجبني حماسك، يبدو أنك مشروع صغير لصحفية كبيرة.

- العفو، كلنا تلاميذك يا منعم بك.

- جيلكم أذكى، وحظكم أوفر ،والمستقبل أمامكم عريض.

رددت وأنا أضع ساقًا فوق ساق كي أسفر له عن مزيد من بياض ونعومة قدمي والتي حتمًا ستلفت نظره من خلف زجاج مكتبه الشفاف:

- ورغم كل هذا اسمح لي أن أبقى مجرد تلميذة أبدية في وجود حضرتك.

- ألم أقل لك إن جيلكم أذكى.

قالها وهو يبتسم ثم قام من فوق كرسيه وهو يشعل سيجارًا كوبيًا ليجلس بالكرسي الذي قبالتي مباشرة مستطردًا:

- المهم ما هو الجديد عندك؟

- كما أشرت عليَّ حضرتك، قمت بتحضير سلسلة أفكار تصلح

fb/mashro3pdf

كتحقيقات تصب في ذات الاتجاه الذي أعجب الهانم.

قلتها وأنا أمدّ يدي له بملفٍّ فيه بعض الأوراق، أخذه منّي وارتدى نظارته الطبية وظلَّ ينظر فيه ويقلّب لحوالي دقيقتين ثم قال:

- هائل جدًّا يا عبير، لكن ما بتلك الأوراق يحتاج إلى مناقشة عميقة قبل التنفيذ وأجواء المجلة هنا لن تكون مناسبة على الإطلاق.

- طبعًا يا منعم بك، اختر حضرتك المكان المناسب وكذلك الوقت وأنا رهن إشارتك.

- على البحيرة المكان هادئ جميل ويساعد على التركيز ونضمن فيه عدم سرقة أفكارك من زملائك الفضوليين والمتلصصين.

- بحيرة!! أين تلك البحيرة حضرتك؟!

- لا تستبقي الأحداث.

- أن أكون إلى جوار الأستاذ في أي مكان فهذا يعني أني محظوظة جدًّا.

ثم وهو يعاين الصفة التشريحية لقدمي متظاهرًا بالانشغال والتفكير:

- حسنًا، فليكن في نهاية الأسبوع بعيدًا عن الزحام.

ثم أذِنَ لي بالانصراف بعد تبادُل أرقام الهاتف، وقبل أن أخرج اصطنعت تعثري بالسجادة الزهرية كثيفة الشعر فوقعت على الأرض وتعرَّت قدماي أكثر، فقام بنفسه مسرعًا كي يلحق بي، ثم هبطَ إلى الأرض ووضع يده على فخذي سائلًا باهتمام:

- هل يؤلمك؟

رددت مصطنعة التوجع:

- آه، الحمد لله سليمة.

fb/mashro3pdf

ثم ساعدني على القيام من عثرتي، وبفطرة الأنثى كنت على يقين من اشتعاله، تمزُّق غشاء بكارتي من قبل في سرير حضرة الضابط، أعطاني مزيدًا من حرية المناورة ومنحني هامشًا تفاوضيًا أرحب، من الغباء ألا تتفاوض فاقدة العذرية على الجسد من أجل المستقبل!!

وفي نهاية هذا اليوم الطويل نزلت من المجلة، كان الهواء باردًا ومنعشًا والشمس على وشك الغروب، وبدلًا من السير في اتجاه ميدان التحرير، اتجهت نحو قصر العيني للاطمئنان على الأستاذ رائف، أدرت مقبض الباب ودخلت لكنه لم يكن موجودًا!! استوقفت إحدى الممرضات وسألتها فقالت بدم بارد:

- رائف مات قبل أذان الظهر.

لم أشعر بنفسي إلا وبعض الممرضات تحاولن إفاقتي، وبعد أن تماسكت أخبرتني إحداهن:

- رائف كان قد ترك وصية مكتوبة لدى إدارة المستشفى، قال فيها إن لا أهل له، وبالفعل فور وفاته تم استخراج التصاريح اللازمة ودفنه في مقابر مستشفيات جامعة القاهرة.

روت ممرضة أخرى كانت شاهدة على لحظاته الأخيرة:

- كان يتحدث في الفراغ إلى واحدة اسمها غريب جدًّا!! اسمها سموات، ثم ابتسم واسترخت ملامحه وأغمض عينيه ولم يفتحهما ثانية.

من أمام قصر العيني، استوقفت تاكسي حملني إلى البيت، طوال الطريق دموعي لم تكف عن الاختلاط بكلماته التي عادت ترن في أذني بعمق وكأنه جالس بجواري:

- سموات كانت محجبة رقيقة ورأيت فيكِ كل ملامحها!! اكتشفت منك لأول مَرَّة عقب كل هذه السنوات طول شعرها ولونه!!

fb/mashro3pdf

وفي البيت تذكرت المظروف الأبيض الذي أعطاه لي وطلب منّي ألا أفتحه إلا في حارة الفص قبل أن أنام في المساء، فتحته، أخرجت منه صفحة مطوية!! دققت فيها فوجدت خطي وإجاباتي عن أسئلة حوض النيل!! هي الورقة التي كنت أجيب فيها حين فرت من عينيه دمعة بليغة وهو يتأملني أكتب أمامه، حين مدَّ يده للمس يدي فانتفضتُ وكأن حية لدغتني فانسكب الشاي على الأوراق، تلك الورقة كانت من ضمن ما رمته أمي من الشباك وتساقط فوق رأسه بقاع الحارة، يا الله، ها هي الورقة بعد كل تلك السنوات ذكرى قديمة مُتيبسة ومُصفرة من زمن براءتي!! رحمك الله يا رائف وأسكنك الجنة وطيب جروحك بلقاء حبيبتك على نهر الفردوس، الآن فقط فهمت جملتك الأخيرة:

- صدقيني يا عبير، لا أجمل من تلك الأشياء البسيطة التي تعيدنا إلى الوراء!!

صباح اليوم التالي وسط أحزاني على رائف، وقبيل مغادرتي الحارة نحو المجلة، فوجئت باسم منعم المحمودي لأول مَرَّة على شاشة الهاتف، بكلمات مقتضبة أخبرني:

- عندنا اجتماع يوم الجمعة الساعة الثامنة صباحًا، أنا دقيق في مواعيدي، انتظريني جوار ميريديان ميدان الرماية.

وصلت ميدان الرماية مبكرًا قبل موعدي لأقف وحيدة بالطريق كأي عاهرة هرم انتهت في صباح الجمعة من زبون الخميس وتبحث عن مواصلة تعود بها!! وفي الثامنة تمامًا وجدت منعم بك يدخل عليَّ مبتسمًا بسيارته الألمانية السوداء وبدون سائقه، دهشتي من الموعد والمكان زالت تدريجيًّا مع اتخاذه طريق الفيوم حيث البحيرة الهادئة

fb/mashro3pdf

التي قصدها من قبل، بحيرة قارون التي ترك له أبوه على ضفافها بيتًا صغيرًا من طابقين على طراز بيوت وجهاء الريف الإنجليزي، البيت من الداخل كان كلاسيكيًا بسلم خشبي يصل إلى الطابق الأعلى الذي صعد إليه المحمودي وتركني أتأمل هذه المدفأة القديمة وهذا البيانو العتيق وهذه الصور المُعلقة على الجدران لشخص واحد، بدا مفكرًا أوروبيًا أو فيلسوفًا، ظللت غارقة هكذا إلى أن هبط المحمودي دون أن أشعر وسألني فجأة:

- هل تجيدين العزف عليه؟!

التفتُ إليه فوجدته ارتدى بدلة أشبه بملابس أبناء الباشوات في أفلام سيدة القصر وليلى بنت الأغنياء وثورة المدينة!! ثم اقترب منّي ودون أن يجلس على كرسي البيانو تلاعب بأصابعه عازفًا بمهارة بدايات مقطوعة شهيرة، صفقت معبِّرة عن إعجابي وسألته:

- ما اسم هذه الموسيقى ومن صاحب كل هذه الصور؟؟

- دعي هذا الآن وتعالي نتحدث في المفيد قبل أن تأتي صينية الفطور.

جلسنا بالصالون الصغير للنقاش حول أفكار التحقيقات التي اقترحتها، خلع سترة البدلة، وحين اندمج شمر قميصه الأبيض عن ساعديه وارتدى نظارة القراءة وأتى ببعض الكتب الأجنبية من أحد الأرفف ليدلل على بعض النقاط، أشار بيديه يمينًا ويسارًا وسيجاره الكوبي يتأرجح على جانب فمه، فعليًا كان يدرّس لي ولم يكن يتناقش معي، كم أنا محظوظة!! منعم المحمودي بنفسه قرر أن يسقيني تجربته الصحفية بملعقة داخل بيته!! وما إن قارب على الانتهاء من توجيهاته ونصائحه حتى سمعنا طرقات على الباب، إحدى الفلاحات كانت قد حملت لنا على رأسها صينية نحاسية مملوءة بالفطائر الساخنة والجبن

fb/mashro3pdf

والزبد والعسل وبراد شاي ساخن ونعناع أخضر وكوبين، لم أدرِ إن كانت صينية الفطور هذه لرئيس تحرير وصحفية أم لعروسين صباح أول أيام العسل!!

أثناء الطعام وارتشاف الشاي سألته:

- ما سر تلك الملابس الكلاسيكية جدًّا التي ترتديها؟!

- هل تحبين التمثيل يا عبير؟؟

- هل تقصد أني صحفية لا أمل فيها ويتحتم عليَّ تغيير مساري؟!

قلتها ضاحكة فقال بجدية:

- لا طبعًا، أنا أقصد على سبيل الهواية التي لا تغني عن المهنة.

- في الحقيقة هذا لم يخطر ببالي من قبل ولكن يسعدني أن أجرِّب.

- بالضبط يا عبير، لا تحكمي على شيء لم تجربيه، حسنًا ما رأيك؟؟ سأمثل أنا دور ابن الباشا وستقومين أنت بدور خدامة من الفلاحين اسمها صباح، وأثناء عزفي على البيانو وتنظيفك لتلك المائدة سيتلاعب الشيطان برأسي وسأسعى للتحرش بك، حينها ستفزعين من المفاجأة.

- وماذا عن النهاية؟؟

- أنا أحب النهايات المفتوحة.

صمتُّ فاستطرد هو:

- إن ملابسك تلك غير ملائمة على الإطلاق لهذا الدور.

سحبني بعدها من يدي ببهجة وصعد بي عبر السلم الخشبي إلى الدور الأعلى، دفع باب غرفة النوم وبيده بسرعة أزاح ضلفة للدولاب تكشفت عن عدد هائل من جلاليب الفلاحات الممزقة ذات الألوان الزاهية!! صرت أحدق فيهم باندهاش، ثم قال:

- اختاري ما يروق لك منهم.

fb/mashro3pdf

- أنا التي من المفترض أن تُعجب بها فاختر أنت منهم ما يروق لك.

وبالفعل اختار لي جلبابًا ذا لون بنفسجي مقوسًا من عند الصدر ومتهتكًا قرب الركبتين، ثم سأل:

- ما رأيك؟؟

رددت بلكنة ريفية وعينين مُسبلتين:

- أمرك يا سيدي.

فانفجر ضاحكًا يقول:

- هائل يا عبير، يبدو أن مستقبلك الفني عظيم.

ثم أخرج من أحد الأدراج خلخالًا فضيًا وقال:

- ارتدي هذا واتركي قدميك حافيتين، والآن غيّري ملابسك ولا تنزلي إلا حينما أكون قد اندمجت بالعزف.

ثم خرج وخلعت كل ما أرتدي ولبست الجلباب البنفسجي، وعقب لحظات، تعالى صوت عزفه على البيانو بذات المقطوعة الشهيرة، وحين اندمج تهاديت على السلم الخشبي باتجاه المائدة، رفعت الأطباق نحو المطبخ ثم أتيت بقطعة قماش لألمع الصالون، انهمكت في تقمص دور الخدامة حتى نسيت أني عبير، شلحت طرف الجلباب كي لا يعوقني فانكشف بياض قدمي أكثر، وفجأة توقف عن العزف وقام ليقترب مني قائلًا:

- هل أساعدك في شيء يا صباح؟

رددت وأنا مستمرة بالتلميع:

- العفو يا سيدي.

فاقترب أكثر حتى حاصرني بين جسده والجدار ثم قال:

fb/mashro3pdf

- إذا كنتِ غير راغبة في مساعدتي فساعديني أنتِ.

ثم اقترب بوجهه من شفتي وحاول تقبيلي، صرخت وأنا اصطنع التمنع:

- لا يا سيدي، عيب يا سيدي، استر عليَّ لأجل سيدك النبي يا سيدي.

لكنه لم يستجب لتوسلاتي حتى خارت مقاومتي واستسلمت له تدريجيًّا، اكتمل بنا المشهد فوق السرير. وحين انتهى من دوره وانسل من داخلي بهدوء وأنفاس لاهثة، أدركت مدى بلاغته حين قال:

- أنا أحب النهايات المفتوحة.

وبدا أني قد أجهدته كثيرًا حتى ارتوى وارتويت، فاستلقى بعدها عاريًا على ظهره ملتقطًا أنفاسه أما أنا فقد استندت برأسي إلى شعر صدره الأبيض الذي تغطى بشعري البني الكثيف، وكان سؤاله الأول:

- مَن فضَّ عذريتك يا عبير؟؟

- حسام.

- مَن هذا؟!

- حبيبي أيام الجامعة، وعدني بالزواج ثم ضعفت أمامه ذات مَرَّة من فرط إخلاصي لكنه خدعني وحنث بوعده، حسبي الله ونعم الوكيل، لماذا تذكرني به يا منعم؟!

- صدقيني فضول لا أكثر.

- هل من الممكن أن أسألك وتجاوبني بصراحة؟؟

- ممكن.

- هل سقطتُ من نظرك لأني نمت معك؟؟

- هل الممكن أن أطلب منك أنا طلبًا؟؟

fb/mashro3pdf

- طبعًا.

- هذه هي المرة الأخيرة التي أسمع فيها منك مثل هذا الكلام الفارغ.

ثم ضمني إليه بحنانٍ بالغ وهو يمرر أصابعه بشعر رأسي وقال:

- صحفيات كثيرات وإعلاميات جئن إلى هنا في بدايات الطريق وارتدين تلك الجلاليب الممزقة بالدولاب وصعدن إلى هذا الفراش ولم يسقطن من نظري، بل على العكس، أنا الآن أستمتع جدًّا بمقالاتهن المكتوبة كل صباح وصراخهن في البرامج كل مساء عن أهمية التمسك بقيمنا الأصيلة في مواجهة موجات العولمة التي تضرب أخلاقيات مجتمعاتنا الشرقية، يُشرفني جدًّا أن هذا السرير مدرسة من أهم مدارس الصحافة المصرية!!

- ألم تتقزز إحداهن من تقمُّص دور الخدامة وارتداء مثل هذا الجلباب؟؟

- صدقيني، لم تشعر إحداهن للحظة باغتراب أثناء تقمُّصها دور الخدامة، على العكس، لقد أحببن الدور وجئن لأدائه مرات ومرات، مثلما ستأتين أنتِ أيضًا لأدائه مرات ومرات، لمَ لا وقد شجعهن على ذلك متعة الدور ونشوته ومكافآت تجسيده وحوافز إتقانه.

- ولكن لماذا دور الخدامة؟!

- لقد خلقني الله عاشقًا للخدامة، وهو وحده من حباني بموهبة اكتشافها، سامحك الله يا أمي، أكان ضروريًا أن تطردي صباح!!

- مَن صباح؟!

- صباح هي الخدامة الأولى والحب الأول، لا زلت أذكر كيف كانت تجلس القرفصاء بخلخالها مسحورة جوار البيانو وأنا أعزف

fb/mashro3pdf

السيمفونية الشهيرة FÜR ELISE، وكلما كانت صباح تطلب مني أن أعيد عليها السيمفونية، كنت أترحم على الألماني القدير الذي أكّد لكل من سخر منه أنه يؤلف للأجيال القادمة!! هل عرفتِ مَن هو الأوروبي صاحب الصور المعلقة على الجدار؟؟ هو بيتهوفن الذي أحبت الخدامة موسيقاه!!

- ولماذا قامت والدتك بطرد صباح؟!

- لم تكن صباح قد بلغت السابعة عشرة من عمرها حينما قامت أمي بطردها عقب إجهاضها من جنيني، بحثت عنها بعدها في كل مكان ولم أعثر لها على أثرٍ، حتى البدروم الذي سكنت فيه مع أهلها وصلتُ إليه ولكن بعد أن غادروه إلى الأبد نحو قريتهم التي لا يعرفها أحد، جار لها أخبرني أن أباها عشية رحيلهم كان يصفعها بجنون وهو يشتمها «آه يا فاجرة يا بنت الكلب».

- ألم تحاول نسيانها بحبِ غيرها؟

- لمّا غلبني اليأس ووجعني الشوق، صرت أبحث عنها كالمجنون في أحضان كل الخدامات!! وعقب سلسلة من المغامرات غير المحسوبة، لم يكن من الملائم الاستمرار في إهانة نفسي مع خدامات حقيقيات، فاتجهت إلى صناعتهن، هل عرفت الآن لماذا أناديكن جميعًا على السرير باسم صباح، صدقيني يا عبير، أي منصف في هذا العالم لو أدرك بشفتيه مذاق الخدامة ذات الخلخال لطالب بمنح التراب الذي تدوس عليه جائزة نوبل للسلام!!

- سأعوّضك عن كل خدامات العالم.

ومع الوقت تدفقت عليّ حوافز الإتقان، أول الغيث كان مفتاح سيارة كورية الصنع، ثمنها كان مقابل ما بعته عن دمياط للجزيرة، وما

fb/mashro3pdf

بعته لرئيس التحرير من جسدي، وذلك مقابل شيك كتبه لي ذات مَرَّة فوق السرير عندما طلبت منه المبلغ وأنا أعطشه بقسوة قبل أن أباعد بين ساقيّ، ردَّ حينها بصوت متهدج مجهد من فرط الرغبة في المرور:

- مثلك يجب أن تُلف في حرير لا أن تركب مواصلات.

ثم مهر الشيك بتوقيعه والخلخال بشفتيه حتى تفتح صباح الخدامة قدميها!!

****

- آه يا رقية، حرام عليك! متى أنتهي من هذا الوجع؟!

- هانت صدقيني، نامي على بطنك.

المرة الأخيرة التي نمت فيها عارية هكذا أمام أحد كانت بمهمة صحفية من أجل الوطن داخل شقة سفنكس.

* * *

fb/mashro3pdf

رُقـيَّة

لستُ ساذجة للدرجة التي أظن فيها أن عبير تتصنفر هكذا وبشكل منتظم من أجل دواعي النظافة الشخصية وفقط!! لكني اعتدت ألاّ أسأل زبونة عمّا لا يعنيني حتى لا أتسبب في قطع لقمة عيشي، العجيب أن توترها اليوم هو توتر عروس!! على كل حال هنيئًا لها ولمن تتلمع له، الظاهر أن إحساس الندم والحسرة على السنوات التي راحت لن يتركني في حالي!! ولكن كيف يتركني وأنا التي عشت عمري وحيدة بلا رجل أتلمع له مثل كل الحريم!! اللهم إلا في بعض الأوقات التي يستقطعها لي بشير من حياته، بشير الذي لمسني أول مَرَّة فوق هضبة المقطم بمباركة من الحاج مصطفى القواد.

****

أبدًا لن أنسى ملامح الحاج مصطفى القواد، هكذا سميناه أنا وبشير، كان قمحيًا باهتًا، تعدى الستين بجسد نحيف وشعر أبيض وقميص رمادي لا يرتدي سواه، فقط كان يضيف إليه في الشتاء سترة جلدية واسعة وسوداء، في المرة الأولى لنا فوق هضبة المقطم وعقب شرب كوبين رخيصين من الشاي بالنعناع، مدَّ بشير يده ليمنح الحاج عشرين جنيهًا عبر شباك السيارة مع وعدٍ بورقة أخرى مثلها قبل أن

fb/mashro3pdf

نغادر حافة الهضبة، فما كان من الحاج مصطفى إلا أن صمتَ ونظر إليَّ بتمعُّن من خلف الزجاج الأمامي وأصر على أخذ مقابل الشاي فقط، ورفض الاحتفاظ بالباقي قائلًا بكل ما يحمله شعره الأبيض من حكمة:

- عش حياتك معها داخل السيارة وادفع فقط مقابل الشاي بما يُرضي الله، أنا لا أتقاضى أموالًا من أصحاب المشاعر الصادقة، أنا لا آخذ من المحبين رسومًا على عشقهم، يكفي أن الدنيا وأحوالها قد ضاقت بهم وأجبرَتْهم على الصعود إلى هنا، لن أكون أنا والدنيا عليهم، لا يتقاضى أموالًا من العشاق إلا قوَّاد خسيس، الحب رزق من الله وهبة، ومن العار فرض ضريبة نظير التعبير عنه، في كل الأحوال أنت لن تزني بها هنا والعياذ بالله، أنت بالكاد قد تحتضن حبيبتك وتقبِّل يدها وشفتيها، وهل هناك على وجه الأرض ما هو أرقى من ذلك بين البشر، أنا رجل عجوز في المكان ومر عليَّ أشكال وألوان، ومن نظرة واحدة أفهم إن كانت الفتاة أو المرأة التي بالسيارة عاهرة أم حبيبة، أنا لا أتقاضى أموالًا إلا من هؤلاء الذين يرافقون العاهرات ثم أطهِّر هذا المال النجس بالفك عن كبت المحبين، ربنا يفكها عليك ويستر عرض البنية وعرض الناس كلها، أبلغوا كل من تعرفون بأن يأتوا إلى هنا دائمًا لو ضاقت الدنيا بحبهم، إن كان للعشق قِبلة مثل الصلاة لكان المقطم قِبلة للعاشقين!!

انتظمنا في صعودنا إلى المقطم أسبوعيًّا، وفي كل مَرَّة كنا نصعد قبل المغرب بساعة على الأقل، ولأن بشير يعرف أني أحب الشوكولاتة، لذا كان يحضر لي معه عددًا من مستطيلات كورونا الصفراء أو مربعاتها الزرقاء، كنا نصل بالسيارة إلى حافة الهضبة وهناك وتحت براح السماء

fb/mashro3pdf

كنت أتخلص من الخمار تحريرًا لشعري أمام حبيبي، لن أنسى شهقة دهشته لما انسدل أمامه كثيفًا ناعمًا أول مَرَّة، وحين كنا نقف مستندين إلى مقدمة السيارة كي نرقب الشمس وهي تغيب عن القاهرة شيئًا فشيئًا، كنت أميل برأسي على كتفه، أما هو فقد كان يلف وسطي بذراعه، وبيده الأخرى يضع قطع الشوكولاتة بين شفتي، كنت ألتقط بعض القطع وأمدّ له نصفها كي يلتقطها بفمه ويقبّلني قُبلة خاطفة أحببت طعمها، وبعد كل هذا الانصهار وعندما يهبط الظلام وتغيب عن السماء حمرتها كنا نعود إلى داخل السيارة ونشغل شريط ميادة الحناوي وهي تتساءل:

بتحبني ولّا الهوى عمره ما زارك؟!

بتحبني ولا انكتب ع القلب نارك؟!

قول يا حبيبي قول، قول يا ملاك!!

وإجابة على تساؤلات ميادة واستجابة لنداءاتها، كان بشير يُخفض صوت الكاسيت ثم يقترب منّي ليعيد اكتشاف شفتيّ بشفتيه، وعقب كل اكتشاف جديد كنا نتعانق عناقًا لم تعرف أحضان البشر له مثيلًا!! لذوات الزوج الغائب لا أروع من حضن دافئ في سيارة معتمة فوق هضبة المقطم وسط برد الشتاء!!

فقط دوامات لا حدود لها من الأحضان والقبلات ولم أكن أسمح لبشير بما هو أكثر، كنت أجاهد نفسي ونفسه قدر استطاعتي كي أحول بيني ويده المتسللة لمواضع أخرى من جسدي حرَّمتها عليه، كنت أطبق ساقيَ على بعضهما ولا أرتدي شيئًا بأزرار من الأمام يمكن فتحها، قلل هذا كثيرًا مما تبقى من شعور بالذنب تجاه زوجي المسافر يحيى، أنا لم أكن أخونه، فقط دون إرادة كنت إنسانة تبحث عمن ينوب

fb/mashro3pdf

عن زوجها الذي قرر الرحيل في يوم عسلها السابع ثم غاب عن أجمل سنوات عمرها التي راحت تذبل وتتسلل من بين ضلوعها واحدة بعد الأخرى!!

أجمل مشاهد عمري على الإطلاق لم يصنعها إلا بشير بحبه المجنون. في إحدى المرات كنا بالأسبوع الأول من يناير، غربت الشمس وغامت السماء بسُحُب ثقيلة واشتد البرد، ونظرًا لهذه البرودة، خلت حافة الهضبة من كل روادها إلا منا وبعض عمال المقاهي المتجمعين بعيدًا حول حطب مشتعل يتدفئون به في انتظار عشاق جدد، ثم بدأت الأمطار في التساقط بقوة، سارعنا إلى السيارة لنشاهد من الداخل سحر القطرات المنهمرة على الزجاج، ومثلما بدأ المطر فجأة توقف فجأة، صار الجو أكثر دفئًا وبدأ الضباب في الهبوط علينا.

خرجنا من السيارة واستندنا إليها لمشاهدة القاهرة وهي مغسولة في الأسفل، ثم تضاعف الضباب من حولنا مرات ومرات حتى سترنا عن عيون الخلق وكأننا ارتقينا من الأرض إلى وسط السحاب!! أمسينا داخل جنة من البياض الناعم وبالكاد نرى فيها ملامحنا، لم يكن من بشير حينها إلا أن ضمني إليه واحتضنني بجنون تحت السماء، لن أنسى آهة بشير وهو يناجيني بصوت متقطع وصادق:

- آه يا حبيبتي، حضنك حلو يا ست الكل.

ولم أقوَ على الرد، فقط تركت نفسي لأسافر معه في دنيا غير الدنيا، غبنا عن العالم حولنا ولم نفق إلا على وقع أقدام قادمة، ظهر الحاج مصطفى تدريجيًّا من وسط الضباب حاملًا صينية وكوبين ساخنين من حمص الشام، قال بحكمته المعهودة وهو يضعهما فوق سقف السيارة:

fb/mashro3pdf

- الحضن وسط الضباب عوض من السماء عن كثير من شقاء الدنيا، لعدل الله في الأرض صور شتى وإن كانت محرمة، هذا الحضن النادر لا يرزق الله به كثيرين، لذا اصطفاكما اليوم من بين عباده لعيش تلك اللحظات التي هي أقرب إلى الأحلام!!

قالها ثم عاد مختفيًا وسط الضباب وعدنا نحن لأحضاننا المستورة تحت السماء.

تدريجيًّا مع الوقت لم أعد أهتم بيحيى الذي انقطعت خطاباته منذ شهور ودخل عامه الثالث في العراق بعيدًا عنّي وعن أمه وعن ابنه الذي لم يرَه، صار حبيبي بشير هو همي الأول والأخير، وذات صباح وقبل نزولي المحل رنَّ هاتف البيت، رفعت السماعة لأجد من يسأل عما إذا كان هذا بالفعل هو بيت يحيى فرددت بالإيجاب وأخبرته أني زوجته، لا أدري لمَ للحظة توقعت أن من يُحدثني هو أحد أصدقائه وقد وصل للقاهرة ويريد أن يسلمني خطابًا منه أو شريط كاسيت، لكن هذا لم يحدث، فقط أخبرني بشكل غامض أنه يجب عليَّ التوجه غدًا إلى مطار القاهرة لاستقبال يحيى الذي سيصل على طائرة قادمة من بغداد في العاشرة صباحًا ولم يزد، تعجبت من الأمر بشدة واندهشت!! لماذا لم يخبرني يحيى نفسه بموعد وصوله؟! لم أدر حينها إن كان عليَّ أن أبتهج بقدومه لاستكمال شهر عسلنا المؤجل منذ ثلاث سنوات أم أحزن على بدء فراق بشير الذي صار يعرف عنّي أكثر مما يعرف زوجي؟! لماذا كلف يحيى نفسه عناء العودة مَرَّة أخرى وبشير يقوم بالواجب وزيادة؟! متى يخلق الله عقلًا للرجل يدرك به أنه قد تأخر كثيرًا وأن الوقت قد مرَّ وأن حبيبته قد صارت حبيبة لغيره!!

fb/mashro3pdf

وفي المساء انتظرني بشير كعادته جوار المستشفى القبطي في طريق الرجوع، أخبرته بوصول يحيى صباح غد، أصابه الذهول وانعقد لسانه وكأنه هو الآخر لم يتوقع أن يعود يحيى، لمَ لا وقد أصبحتُ كل حياته وعوضته عن سخف الحياة المسلوقة مع وفاء بنت عمه، كنا قد نسينا أننا منذ البداية شركاء لأناس آخرين!! كنا قد نسينا أننا من المتزوجين!! ظلَّ بشير إلى جواري في الميكروباص صامتًا وسارحًا بعينيه في شارع رمسيس، وكل ما قاله:

- تحت أي ظرف لن أتركك يا رقية، لن أتركك أبدًا مهما حدث، سأذهب معك إلى المطار غدًا لاستقباله مثلما كنت في وداعه يوم سفره.

- بشير، لا تتركني أرجوك، لا أريد أن أحس أني سأفقدك، لكن ألن يلفت هذا نظره غدًا؟!

- قولي له إنك صادفتِني على ناصية شارع بستان الثقلبي ولما سألتك عن أحواله أخبرتِني بموعد وصوله، وأني مراعاة لواجب الصداقة وأخوّة السنوات صممتُ على الذهاب معك إلى المطار بالميكروباص تحسبًا لعدد الحقائب وتوفيرًا لمقابل التاكسي، أما أنا فليصبّرني الله على منظر احتضانه لك.

- في المطار سأكون مضطرة لاحتضان زوجي بقوة، هل ستتحمل يا حبيبي؟!

- الصبر من عندك يا رب.

وبالفعل رافقني بشير إلى المطار في الصباح لاستقبال زوجي، لكن المفاجآة لم تكن في وصول يحيى وإنما في وصوله داخل صندوق!! يحيى كان من ضمن المصريين الذين أعادهم صدام حسين في توابيت شهيرة إلى مطار القاهرة، لثلاثة أيام أقمنا عزاء صغيرًا برص بضعة كراسي

fb/mashro3pdf

أمام باب البيت، وفي اليوم الرابع الذي تأخر قدومه كثيرًا، دخل بي حبيبي في الحرام لأندم أشد الندم على السنوات التي أهدرتُها في الحلال!!

****

- فيما سرحتِ يا رقية؟! يدك توقفت وناديت عليك أكثر من ثلاث مرات ولم تسمعيني!!

- لا، لا شيء، فقط سرحت في الحمارة صاحبة شعار «لأن الحلال أجمل سأنتظر»!!

* * *

fb/mashro3pdf

حسام

جرس الـ Yahoo Messenger يُنبهني إلى استقبال رسالة جديدة، يا الله!! أخيرًا يا عبير:

- آسفة جدًا يا حسام، انشغلت طوال النهار، ولم أرَ رسائلك هنا إلا الآن، سنتحدَّث ليلًا، ولكن متأخرًا كما تعوَّدنا.

دخلتْ عبير للحظة واحدة وتركت رسالتها ثم خرجت، كلماتها المُقتضبة كفيلة أن تجعلني ساهرًا حتى الصباح بانتظارها، أحاديثي الإلكترونية السابقة معها في المساء وحتى الفجر هي سِرّ فزعي اليوم من غلاف مجلة اللوتس!!

****

أزمة الحضن الذي منحتني إياه عبير في غفلة من القدر عقب رجوعنا ليلًا من دمياط، أنه أفسد عليَّ وإلى الأبد كل أحضان سحر!! وهو ما تسرَّب جيدًا لسحر في الليالي التالية لكنها أبدًا لم تكتشف سِرّ ما طرأ عليّ!! وعندما سألتني عن تغيري تحججتُ بأني فقط مُنهكٌ من ضغوط العمل مؤخرًا، فقررتْ من فورها أن تمنحني إجازة في محاولة منها لاستعادة دفء حضني المعتاد، وعقب هذا القرار الإداري

fb/mashro3pdf

اصطحبتني لشقتها في الزمالك، وتحت المياه الدافئة دلكتني بصابونٍ سائلٍ له رائحة البنفسج، وأثناء دعكها قالت:

- حبيبي، سأطير غدًا مع الوفد الإعلامي المصاحب لجولة الرئيس في الخارج ولن أعود قبل نهاية الأسبوع.

- فعلًا؟!

- نعم، وبالمناسبة هدية عيد ميلادك ستصلك غدًا على البيت.

قالتها وهي تحتضنني تحت المياه، فأمسكت بيدها لأضع عليها قُبلة قائلًا:

- يا حبيبتي يا سحر!! كيف تذكرتِ؟!

- حبيبي أنت يا ولد، وهل من الممكن أن أنسى تاريخ قدومك إلى الدنيا يا سيدي وتاج رأسي!! رئيس الجمهورية فقط هو أجّل احتفالي به معك.

ثم جففتني بالبشكير ومددتني فوق السرير واعتلتني، وبأناملها أراحت كل عضلة في جسدي المنهك من شعر رأسي وحتى أصابع قدميّ على أنغام موسيقى بحيرة البجع لتشايكوفسكي، ثم أخذتني في حضنها حتى ذهبت في نوم عميق لأحلم من جديد بعبير!! هوة واسعة بحجم هذا العالم تفصل بين حضن الحبيبة وأرجاء العشيقة وإن أعطتك الأخيرة كل الأشياء!!

وفي الصباح قمت معها بتحضير شنطتها، وقبل أن أغادر الزمالك عائدًا نحو السكاكيني ودَّعتها بقُبلة طويلة جدًّا، قُبلة اندهشتُ فيها من مدى حرفيتي في اصطناع الأداء!! صحيح، ما أندر القُبلات الصادقة في حياتنا!! وما أكثر النكهات الاصطناعية التي نُضيفها فوق شفاهنا تأهبًا لقبلات مزيفة تحافظ على مراكب حياتنا من الغرق!!

fb/mashro3pdf

وعند العصر دق جرس الباب، كان اثنان من العمال يحملان صندوقًا كبيرًا مُبهجًا تم لفه بقماش هدايا لونه أحمر، وضعا الصندوق بمنتصف الصالة وسط دهشة أمي وشيماء، أخبرتهما بأنه هدية جماعية من زملائي بالقناة بمناسبة عيد ميلادي، قامت شيماء بفك الشريطين ثم قامت بإسدال القماش فتبدت لنا المفاجأة، كانت الهدية جهاز كمبيوتر كامل بشاشة كبيرة، كان هذا من مشاريعي المؤجَّلة، لم تدر سحر أنها بهذه الهدية مدت جسرًا جديدًا، ليس فقط بيني وعبير وإنما بيني وأخريات غيرها، علمتني الأيام فيما بعد أنه حينما تشتري أنثى لذكرها جهازًا إلكترونيًا للتواصل فإنها على الأرجح قد اشترت له سريرًا أنيقًا سينام فيه مع غيرها!!

وضعت الجهاز داخل غرفتي بجوار النافذة المطلة على تماثيل قصر السكاكيني، وعقب انتهاء الفنّي من توصيل وصلة الإنترنت، أغلقتُ الباب عليَّ ثم استويت على الكرسي لأسافر عبر الشبكة العنكبوتية نحو هذا العالم الواسع العجيب، شهادة ميلادي في هذا العالم صككتها بإنشاء بريد إلكتروني على الصفحة الشهيرة باسم Yahoo، وبالطبع أول رسائلي كانت إلى عبير التي كانت تُذيّل كتاباتها في مجلة اللوتس بعنوان بريدها الإلكتروني من أجل التواصل مع القراء، كانت مجرد رسالة قصيرة سألتها فيها عن حالها بشكل عابر ولكنها لم ترد، ما أقسى أن يشعر الإنسان بالندم عقب أن يضغط إلكترونيًا على علامة «أرسل»!!

وإذا كانت عبير قد عزفت عن الرد فإن كثيرات غيرها قد رددن!! عبر الـ Yahoo Messenger اكتشفت أن للحديث مع المجهولات لذة خاصة، أنا لا أعرف من هُن، وهُن لا يُدركن من أنا، السكندرية شاهي، صاحبة الرغبات المؤرقة والتنازلات المحدودة بسبب تأخُّر

fb/mashro3pdf

زواجها، بُلبلة مُطلَّقة المعادي، جرحها العميق كان بحاجة إلى رجل عاجل، سهام أرملة أسيوط، اليائسة من علاقة شرعية لحيازتها على طفلين، لُبنى وحيدة طنطا التي أقامت أمام الكمبيوتر عقب سفر زوجها إلى السعودية، ولم تعد تستر صدرها الجميل في حمالاته بعيدًا عن الكاميرا إلا بلحظات الأذان ودقائق الصلاة!!

وسط هذا العالم اكتشفت أن بإمكاننا الحياة افتراضيًّا من جديد لنكون كما نريد، وبالأسماء والصور التي تروق لنا، نصبح رجالًا بعضلات مفتولة لإغواء أخريات، أو نتحول لبنات جميلات من أجل التسلي برجال آخرين، يا إلهي!! كم هي رائعة هديتك يا سحر!! كيف كنت غائبًا عن تلك الباحة الإلكترونية الخلفية التي نكون فيها خلقًا آخرين!! باحة نكون فيها أرقى روحًا أو أكثر انحطاطًا!! باحة نمشي فيها ونحن بكامل أناقتنا أو عرايا ونحن بكامل فتنتنا!! باحة للخيارات المتعددة، باحة نبحث فيها عن أنصافنا المفقودة التي تنسينا في الليل أوجاع النهار!! لا أحد يخطو فوق عتبات هذا العالم الافتراضي إلا وأيقن أن وقتًا كبيرًا قد مضى من حياته دون لقاء أنصافه الإلكترونية الحلوة!!

قُرب الفجر، وحين كنت أهِمّ بغلق الجهاز، استقبل صندوق بريدي مفاجأة كبرى، رسالة من عبير، لو سجَّل أحد للتاريخ انفعالَ ملامحي في تلك اللحظة لكان وجهي بلا منازع أحد أهم كلاسيكيات البهجة العالمية!! ابتهجت عبير كثيرًا ورحَّبتْ بقدومي الإلكتروني واعتذرت عن تأخُرها بالرد لأنها للتوّ رأت الرسالة وسط المئات من رسائل القراء، ثم منحتني عنوانها الإلكتروني الخاص والبعيد عن صخب عنوانها الرسمي، كان باسم مستعار منحوت من اسم دلالها

fb/mashro3pdf

بأيام الكلية «بيرو بيرو»، ثم بادرت هي بإضافتي إلى قائمة أصدقائها على الـ Messenger، وبعد أن أضافتني تمنت لي أحلامًا سعيدة وطلبت أن نكون على اتصال مستمر، تسارعت دقات قلبي بقوة على نحو يكاد يكون مدويًا لكل أهالي السكاكيني، كانت الـمَرَّة الأولى التي نتواصل فيها منذ حضنها الليلي المفاجئ بحارة الفص، انتابتني رغبة عارمة في حذف كل هؤلاء الإناث اللاتي تكدست بهن غرفة دردشتي، الحبيبة دائمًا كوكب للروح أما المدردشات الإلكترونيات فهن بأغلب الأحوال أقمار رخيصة في مدارات الجسد!!

في الليلة التالية، طرقت على باب عبير الإلكتروني لكنها لم تكن موجودة، وعلى سبيل اغتيال الوقت صرتُ أتحاور مع أخريات بلا هدف، وفجأة وقبيل أن أضغط على علامة الخروج دوى الجرس الشهير BUZZ!!! وكانت عبير، تحدثنا في كل شيء، أحوال البلد والصحافة والإعلام، هنأتها على سيارتها الجديدة التي رأيتُها بها وإن كانت تهنئة متأخرة فقالت:

- أنت لست غريبًا، مقدم السيارة دفعته من بيع ذهب تركته أمي قبل أن تختفي فجأة.

- تختفي فجأة!!

- سأصارحك، زوجها سيد اللبان كان قد اختفى هو الآخر عقب شجار نشب بينهما بعدما ضبطته وهو يمعن النظر دون حياء بمؤخرة إحدى عابرات الحارة.

- هل كانت مؤخرتها تستحق؟!

- اخرس يا سافل، هذه المعركة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، لقد تذوقت أمي معه الـمُر طويلًا وصبرت، وكان يخونها بانتظام وصمتت.

fb/mashro3pdf

- ولماذا ارتضت أمك بهذه الزيجة، أذكر مشهد فرحهما في الحارة أيام الزلزال وطوال تلك السنوات خجلت من سؤالك عنه؟!

- القسمة والنصيب يا حسام، سيد دخل البيت من بابه وأحبَّته أمي، وموعد الزواج كان مُتفقًا عليه من قبل الزلزال، وكبار الحارة قالوا إن خير البِر عاجله خاصة بعد أن صرنا نبيت في الشارع بلا رجل.

- كان هذا يوم عزاء أبي، ليلتها وللوهلة الأولى ظننت بسذاجة أن سيد اللبان تزوجكِ أنت!! المهم، ما الذي جد بينهما بعد هذا الحب؟!

- هي كانت أكبر منه، ثم وصلَتْ لعُمرٍ أدركت أنها لن تكفيه فيه، ولفارق السنوات كانت تستكثره على نفسها وتحمد الله، أما هو فلم يكف عن النظر إليَّ بسفالة وذلك إلى الحد الذي جعل أمي تغار منّي!!

- ألم تطلبي منّي قبل سنوات ألا نمشي معًا في شوارع السكاكيني لأن أسرتك محافظة وزوج أمك يغار عليك بشدة وكأنك ابنته؟!

- ☺☺☺

- أكملي ☹

- ظلت أمي لأعوام تشتعل في صمت ثم انفجرت في هذا اليوم الأخير كالبركان، فما كان منه إلا أن نفى ما اتهمته به وسبَّ لها الدين ونعتها بالعجوز المخرفة ثم أخذ بعض ملابسه ورحل.

- كان يجب أن تحتفل بذهابه إلى الجحيم.

- لم تحتفل ولكنها انهارت لرحيله وظنت أنه سيغيب مؤقتًا ويعود، لكنه لم يعد، رحل عنها بعد أن بلغت الستين، وكلما طرق أحد على الباب كانت تقول «سيد رجع»، تدهورت نفسيتها كثيرًا، وفي يوم رجعت من المجلة ولم أجدها!! استفسرتُ عنها من الجيران فأخبرتني

fb/mashro3pdf

واحدة بأنها صادفتها على باب الحارة بعينين شاردتين وحينما سألتها إلى أين يا أم عبير؟! ردت بكلمتين «إلى سيد»، بحثتُ عنها في كل مكان، لكنها غابت هي الأخرى ولم تعد!!

- لو كنتُ جوارك الآن يا عبير لمسحت بيدي تلك الدموع الكريستالية على خديك.

- كيف عرفت يا حسام؟!

- وهل هي المَرَّة الأولى التي أعرف فيها حالك عن بُعد يا عبير!!

- لا حرمني الله منك.

- ولا منكِ.

ثم قالت على سبيل تغيير الموضوع أو الفرار من سيرة الحب:

- يجب أن أذهب، أصابعي آلمتني من كثرة الكتابة، في المَرَّة القادمة يمكن أن ندردش بمايكروفون وسماعة.

وعدتها بذلك فألقت سلامًا وأعتمت أيقونتها الصفراء واختفت، وددتُ لو زحفت نحو حارة الفص كي أخفف آلام أناملها بشفتي!! وددت لو وضعت لها قدميها كل مساء في إناء به ماء يطفو على سطحه الورد!!

كنتُ كل ليلة أجلس منتظرًا عبير، ولكن لأيام بعدها لم تظهر، ثم أضيئت أيقونتها الصفراء فجأة ذات مساء فسارعت بالضغط على جرسها:

- BUZZ!!!

- ☺

- أفتقدكِ يا مصيبة.

- كيف حالك يا سافل؟؟

fb/mashro3pdf

كان هـذا السـؤال تمامًـا عنـد منتصـف ليـل القاهـرة، ثـم امتـد بيننـا الحديـث عـن كل شيء إلى أن آلمتهـا أصابعهـا كالعـادة مـن كثـرة الكتابـة، فانتقلنـا ولأول مَرَّة للدردشـة بالمايكروفـون والسـماعة، التواصـل صوتيًـا في عُمق المسـاء جعـل العسـل يزحـف ببطء عـلى مسـارح خيالنـا، ثـم تضاعـف علينـا العسـل وأرهقنـا في هـذا التوقيـت الحميمـي مـن الليـل حتـى فتـح كل منـا الكامـيرا للآخـر، وشـيئًا فشـيئًا وأثنـاء فضفضـة نـادرة بملابـس النـوم، بلـغ البـوح بيننـا حـدًا قامـت معـه عبـير بالكشـف لي عـن فخذهـا الأبيـض مـن الخـارج، وأرتنـي كيـف جـاءت إلى الدنيـا بشـامة بديعـة نقشـها القـدر عـلى جسـدها بألـوان خلابـة مـن مسـاحيق الـورود!!

****

خرجـتُ مسـحورًا مـن تلـك الليلـة التـي كشـفت عبـير فيهـا عـن شـامتها الفاتنـة، ليتنـي لم أُفتـن بـك أبـدًا، ليـت اللوتـس لم تُطبَـع اليـوم، قـد يكـون الجسـد الـذي عـلى الغـلاف لـكِ وقـد يكـون لغـيرك، ولكـن هـل تتطابـق شـامات الفخـذ إلى هـذا الحـد؟! ولِمَ لا؟! ألم يقولـوا «يخلـق مـن الشـبه أربعـين»!! ليتنـي لم أرَ جسـدك أو شـامتك يـا عبـير، ليتنـي عشـت قبـل تلـك الأجهـزة التـي جعلتنـا نخـترق الحجـب، ليتنـي عشـت في عـصر سـليمة!

* * *

fb/mashro3pdf

أوراق سليمة

عقب اكتشافي لوجوده مع أخرى في سريرنا، شيءٌ في داخلي انكسر تجاه كلوت واستعصى على الجبر، ورغم كل شيء حفظت له جميل إنقاذي مما كنت فيه، وكجارية منحته كل ما اعتدت أن أمنحه إياه بالليل أو النهار، وبعيدًا عن جرح القلب وشروخ الكرامة كان الأهم بالنسبة إليَّ هو اليوم الذي أنتهي فيه من دروس الولادة التي حُدِّدَت لي داخل مدرسة الطب، حلمت باللحظة التي تتأسس فيها مدرسة القابلات كي أقف إلى جوار كلوت يدًا يمنى ومساعدة كما وعدني، ثم جاء اليوم الذي انتهيت فيه واختُبرت وتمت إجازتي، يومها في الدرب الأصفر فاجأني كلوت من جديد، ابتسم وقبَّل رأسي ومنحني مبلغًا كبيرًا من المال، ثم أخرج من سترته صك عبوديتي وقال:

- أنتِ الآن حُرة يا سليمة.

اتسعت عيناي من هول الكلمات غير مصدقة ما أسمع!! أنا الآن حُرَّة!! لم أكن أعلم ما ينبغي على الجارية فعله عند منحها آدميتها عقب كل تلك السنوات!! تضحك أم تبكي؟! تقفز أم ترقص؟! تهمس أم تصرخ؟! كل ما أتذكره أنني وبلا أي تعبير ظاهر على ملامحي قبضتُ بيدي على الصك ودسسته بصدري ثم تراجعت ببطء خطوات إلى الوراء كتمثال دبَّت فيه للتو حياةٌ!! تراجعت بظهري أكثر فأكثر حتى

fb/mashro3pdf

ارتطمت بالباب، تلمست بأناملي المزلاج وأزحته بارتباك، جذبت المقبض ولم أنتظر، استدرت وانسللت نحو الخارج، ناداني كلوت:

- سليمة.

لكني لم أعر نداءه أي انتباه، حبات روحي كانت قد انفرطت منّي بلا حكم إلى براح الشمس!! خرجتُ من ضيق الدرب إلى عرض المعز، ظلت خطواتي تتسارع، رويدًا رويدًا أطلقت ساقيّ للرياح كأن شبحًا يطاردني بلا رحمة، وكأني أبحث عن مفرٍّ من هذا السجن الكبير، ركضتُ بلا عقل في اتجاه بوابة الفتوح، كادت أن تصرعني عربة كالتي صرعت سر الختام لكني تفاديتها فحطمت عددًا من القلل كانت بطريقي وأطحت في الهواء بصينية كان يحملها صبي لمقهى فضلًا عن خبز وجبن وبيض كانوا فوق رأس إحداهن، عبرت البوابة التاريخية الضخمة ولم أتجه إلى الحُسينية، انحرفت يمينًا كي أهرب من كل هؤلاء الخلق الذين استعبدوني، ندر الناس وكثرت المقابر وأنا أواصل الفرار من الأحياء والأموات، أين الطريق إلى بلادي؟! جريت أكثر فأكثر ولم يتبق أمامي سوى اصفرار جبل المقطم، هل يمكن إن ارتقيته أن أرى من أعلى دارنا القديمة في شندي؟! بعد كل هذا الزمن لو ناديت هل ستسمعني أمي؟! ولو صرخت هل سيستجيب أبي؟! هل ما زالا على قيد الحياة؟! جسدي الضعيف لم يقوَ على الصعود، استندت إلى صخرة كبيرة، أخرجت من صدري الصك المطوي، قرأته مرات ومرات، بكيت بحرقة، ثم قمت لأمشي كالضالة وحيدة بلا هدى، ثم ركبت قبل الغروب عربة صادفتني يجرها حمار، أمسيت في هذا اليوم فجأة حُرَّة بلا سيد لكني وبلا إرادة عُدت أبحث عن السيد!!

fb/mashro3pdf

بقدمين متعبتين عدت للدرب الأصفر وبأصابع مرهقة طرقت الباب ثلاث مرات، فتح لي، فوجئ وشهق، وبلا كلمات ارتميت في صدره وبكيت بشدة، وبهمة أسرعت إلى الداخل، غسلت قدميه بالماء والملح، أعددت له العشاء الذي يحبه، عطرت المكان، رقصت له بميوعة لم يعهدها، ثم طلبت منه أن يعاشرني في الفراش كجارية أبدية حتى أتأوّه له كما لم تتأوّه أنثى من قبل!! أنا لم أعتد على العيش بحُريّة في بلد مثل هذا!!

وقُرب الفجر وأنا أستند برأسي إلى صدره عقب أن انتهينا من نوبة حب، قال:

- يا أروع بنات الأرض، هذا الصباح القادم بعد قليل هو الأول لك في مصر بلا صك يستعبدك، أنتِ الآن حُرَّة والدنيا كلها بانتظارك، لن أبتعد عنك كثيرًا يا سليمة، سأظل جوارك حتى تستعيد روحك توازنها، لقد استأجرت لك الطابق الأعلى الذي لم يسكنه أحد منذ هجرت كلارا المكان، وسنلتقي نهاية كل أسبوع ونجلس كما اعتدنا على المصطبة جوار المشربية لتروين لي كل ما مَرَّ بك في الأيام الستة الفائتة، وكذلك أنا سأقص عليك كل حكاياتي.

شكرته بعمق على كل شيء ثم قبَّلتُ رأسه وأغمضت عينيّ في حضنه.

ومع مرور الأيام علا نجمي بالحي وذاع صيتي، صرت أتردد على بيوت البسطاء والتجار، أتابع حمل حريمهم بدءًا من الشهور الأولى وصولًا للف أطفالهم في المناشف البيضاء مع الصرخات الأولى، النساء صرن يثقن بي أكثر من القابلة التقليدية الشهيرة باسم «الداية»، أحبني الناس وأطلَقوا عليَّ سليمة الحكيمة، ثم تسربت شهرتي أيضًا بين

fb/mashro3pdf

الأجانب المقيمين بالقاهرة لإجادتي الفرنسية بطلاقة وهو ما كان سببًا باجتيازي بوابة القصر في يوم مشئوم!!

وذات يوم، في وقتٍ متأخر من الليل، تعالت الطَّرقات المتتابعة على الباب، طرقات اعتدت عليها منذ انخرطتُ في توليد الحريم، زوار الدنيا الجدد لا يعترفون كثيرًا بمفهوم التوقيت المناسب، لكن إيقاع الطرقات هذه الـمَرَّة كان مختلفًا، إيقاع لم أسمعه منذ أبلغَت كلارا عنّي رجال الشرطة قبل أعوام، وبالفعل كان الطارقون هذه المرة من ذات الفصيلة، أكاد أجزم أن لرجال الشرطة عبر التاريخ طَرقات على الأبواب سيُخلّدون في النار من أجلها!!

- آسف سليمة هانم، لكن يجب أن تأتي معي إلى القصر فورًا.

- قصر مَن؟!

- الباشا، يبدو أن أحدهم قرر الليلة أن يأتي إلى هذا العالم.

- لكن لماذا أنا تحديدًا؟!

- العربة في انتظارك بالأسفل.

استأذنته بارتداء ملابسي ولملمة الضروري من الأشياء، الجلبة بالمكان في مثل هذه الساعة المتأخرة أيقظت كلوت الذي تهامس مع الضابط ثم ابتسم لي قائلًا:

- بالتوفيق يا سليمة.

لا أدري لِمَ انقبض قلبي!! نظرت إليه باضطراب وقلت:

- وداعًا كلوت.

كانت الـمَرَّة الأولى التي أستخدم فيها بحديثي معه وعلى نحو عفوي تلك المفردة «وداعًا»!!

fb/mashro3pdf

ثم علمت بالطريق قليلًا من التفاصيل، إحدى حريم القصر داهمتها آلام الولادة مبكرًا، وقابلة الحرملك تعاني الحمى فنصحتهم إحدى الوصيفات الفرنسيات بسليمة الحكيمة ودلتهم على مكاني، اجتزنا البوابة، صوت أقدام الحصان كانت تدوي وسط الهواء الساكن، كل ما حولي كان ينم عن كونه عالمًا غير العالم، سلمني الضابط إلى حارس صعد بي عبر أبواب خلفية وسلالم رخامية وسجاد أحمر نحو باب الحرملك، وهناك تسلمتني منه وصيفة متعجرفة تولت مرافقتي نحو الداخل، سألتها بتبسط عن كينونة المرأة التي استدعيت من أجلها فأجابت بلغة عربية ولكنة تركية وبحزم بالغ وعلى نحو يشبه بالأمر:

- علمت قبل قدومك أنك كفيفة وصماء وخرساء، فقط يتحرك لسانك في حدود المطلوب منك، ونصيحة منّي، خلف أبواب الكبار إن لم يوارِ المرء شهوة فضوله تحت التراب فقد يُوارَى هو تحت نفس التراب.

وحين انتهَتْ من نصحها الذي كان أقرب للتهديد كنا قد وصلنا قلب الحرملك، وفي ممرٍ طويلٍ على جانبيه حجرات مغلقة أتت الصرخات من خلف أحد الأبواب، طرقت الوصيفة طلبًا للإذن بالدخول فسُمِح لنا ثم كانت المفاجأة التي غيَّرت مسار حياتي، اطلعت على المرأة سريعًا وعلمت أن تلك الحسناء بالشهر السابع في حين تنبئ كل الإشارات النسوية أنها بالفعل على وشك الولادة، النساء اللاتي أحطن بسريرها بدا أنهن من سيدات القصر، مما دلَّ على أن المرأة التي داهمتها آلام الوضع ذات شأن بينهن، وعلى الفور طلبت من وصيفة بجواري إحضار ماء دافئ وبعض المناشف، تعجبت لأمر تلك المرأة التي تعض الوسادة البيضاء من فرط الألم ولا أحد ينطق باسمها أمامي!!

fb/mashro3pdf

الفضول كاد يقتلني لكنني تذكرت تهديد الوصيفة التركية وفضلت أن أواري شهوة فضولي تحت التراب، قررت أن أفعل المطلوب منّي ثم أنصرف في سلام، باعدتُ بين ساقيها، كان عنق الرحم قد انفتح بشكلٍ كبيرٍ، بدا رأس الجنين على وشك الخروج، خرج الرأس، صراخ الوافد الجديد تعالى بالمكان، ظلت المرأة تدفع بشدة إلى الخارج في حين كان الحبل السري مُلتفًا حول عنق الوليد، أمرتها أن تخفف من دفعها لكنها لم تنفّذ ما أقول، ظلت تدفع إلى الخارج بكل قوة، الجسد الجديد كان يأبى الخروج إلى النور والحبل السري كان يضيق أكثر حول عنقه، من جديد أمرتها بالحد من دفعها، ردت بصراخ فهمتُ منه أنها غير قادرة، إحداهن بجواري تفوهت:

- الحبل على رقبته يا نازلي، تحمّلي قليلًا.

نازلي!! رنّ اسمها في داخلي بقوة مزلزلة!! كلنا نعرف أن توحيدة ونازلي هما ابنتا الباشا من أمينة هانم، لكن نازلي بالنسبة لي لم تكن مجرد ابنة القاتل محمد علي وحسب!! هي أيضًا أخت المحروق إسماعيل الذي أذاق المُر لبلاد السودان، وأرملة السفاح محمد بك الدفتردار الذي سفك دمنا ومرّغ أنوف كرامنا في التراب ثأرًا لحرق إسماعيل في شندي، كم هي ضيقة تلك الحياة!!

ملامح الطفل صارت تميل إلى الزرقة، بسرعة أمرت بوسادتين وضعتهما أسفل مؤخرة نازلي، ثم ضممت ركبتيها إلى صدرها وجعلتها تدفع من جديد.

لكن وطالما أنها أرملة، فمَن صاحب الفعلة التي ظهر منها رأس صغير يصرخ؟! ما اسم الرجل الذي سيعقب اسم هذا الطفل؟! هل صحَّت الهمسات الدائرة في المحروسة عن مشي نازلي على حل

fb/mashro3pdf

شعرها مع رجال أبيها وحراسه؟! هل يتشفى القدر في عِرض الباشا والدفتردار في قبره ثأرًا لأعراضنا؟! أم أنها أوهام ساذجة وتوقعات خائبة؟! وعقب معاناة بالغة خرج الطفل كاملًا لكنه كان قد صمت!! مات مشنوقًا بحبلِ نازلي السُري!!

توقعت صنوفًا من المساءلة والتوبيخ والعقاب فور اكتشاف وفاة الطفل، لكن شيئًا من هذا كله لم يحدث!! لم تحزن إحداهن أو تبكي بمن فيهن نازلي!! فقط تم تلقف الجسد الصغير في بشكير تحسُّبًا لدفنه، بدا أنه من الأصل كان غير مرغوب فيه، لا أدري إن كان حدسي في محله أم أن تماسكهم دربٌ من الصبر على المصائب؟! لحظات ثم كانت المفاجأة، أدار الباشا مقبض الحجرة ودخل، محمد علي بشحمه ولحمه!! القاتل الذي وددت لو اقتصصت منه قبل سنوات في ترسانة الإسكندرية، يدي يومها لم تطله لوقوفه بعيدًا أعلى منصته، هذه المرَّة كان واقفًا إلى جواري جنوبي السرير، ظل يؤنب نازلي بأسى:

- لِمَ كل هذا يا عملي الأسود؟! الحمد لله أن القدر كان أكثر رحمة بنا منك!!

تأنيبه لها كان غامضًا، ولم أدرِ إن كان قصده أن الجنين ابن حرام أم ثمرة لزواج سِرّي تم اكتشافه مؤخرًا؟! بكل الأحوال هذا لم يهمني، كلهم في نظري إما قحاب أو أبناء قحاب، الأهم أتى عقب قليل، حينما لم أشعر بنفسي إلا وأنا أستل سكّينًا جوار طبق قريب للفاكهة، وبلا تردد وبكل قوة سددت النصل لأغرسه في عنق الباشا.

* * *

fb/mashro3pdf

حسام

من المؤكد أن سليمة فشلت في قتل الباشا، لم يذكر التاريخ أن محمد علي مات مقتولًا، لكنها المَرَّة الأولى التي أعرف فيها أن امرأة حاولت اغتياله داخل قصره وفي قلب الحرملك!! وليس هذا فقط، بل إن هذه المرأة التي حاولت اغتياله هي ذاتها التي تعترف بكل هذه التفاصيل التاريخية النادرة ويخط يدها!! أي كنز هذا يا سليمة ستبوحين به في أول أحلامي الوثائقية!! هذا الفيلم لو خرج إلى النور كما أتمنى ستسعى عبير ذات يوم أن تُجري معي حوارًا صحفيًّا مُدويًّا حوله.

* * *

fb/mashro3pdf

عبير

طال نومي على بطني ورُقيّة لم تنته بعد من ظهري، أحاول إغماض عينيَّ وأنا مستندة برأسي إلى الوسادة في محاولة للتفكير بالطريقة التي سأخبر بها حسام بهذا الحدث الذي تقرر فجأة، هل سأدردش معه متأخرًا كما وعدته على الـ Yahoo Messenger أم أبعث له برسالة أخرى قصيرة أختصر له فيها كل شيء؟! المهم الآن أن تنجز رُقيَّة كامل مهمتها.

- متى ينتهي هذ العذاب يا رُقيَّة؟!

- اصبري دقيقة وظهرك سيكون قشدة.

ظهري قشدة!! استخدام البلانة لهذا التعبير تحديدًا كتوصيف لحلاوة ظهري يستدعي داخلي ذكريات آخر لقاء جمعني بنادر الزيني قبل حوالي ثلاثة أسابيع، قبل أن يحدِّد مصيره بيده!!

****

عقب نهاية يوم مرهق جديد تقمصت فيه دور الخدامة مع المحمودي في الفيوم، عدت إلى الحارة ورحت في نومٍ ثقيلٍ عقب حمام دافئ، لكنني استيقظت قُرب الفجر على صوتِ نغمةِ تعني استقبال رسالة نصية من نادر الزيني، شهقت، رسالته كانت سؤالًا

fb/mashro3pdf

من أربع كلمات:

- هل أعجبتكِ بحيرة قارون؟!

حاولت الاتصال به بعدها لكنه أغلق هاتفه، وفي اليوم التالي التقيته بشقته السرية في المعادي، كان أول ما فعل أن صفعني بقسوة، ثم قال بهدوء:

- هذه الصفعة ليست على سبيل الغيرة، الضباط لا يغارون على عميلاتهم، نحن بلا قلب، أنا على عِلم منذ أول ذهاب لك معه إلى هناك في نهايات الشتاء الماضي، وانتظرت شهورًا حتى تخبريني بنفسك، لكنك لم تفعلي.

بكيتُ من صفعته، فما كان منه إلا أن جلس على أحد المقاعد الوثيرة وأخذني في حضنه حتى هدأت وسكنت فيه كعادتي، فاستطرد:

- لا كائن في مصر يمكنه دعمك بغير مشيئتنا، ولا حتى المحمودي المقرَّب من القصر، هذا الكائن بدأ مثلك وسيظل، غير مسموح لأحد أن يبدأ معنا ثم يستقل، كان عليك أن تصارحيني بتفاصيل تطور علاقتك به وكنت سأفك لك وبسهولة شفرات التعامل مع عاشق الخدامات هذا.

- هل أنتم أيضًا تعرفون عنه ذلك؟!

- لا تجعليني أشك بذكائك!! نحن من صنعناه، السيد مدير الجهاز شخصيًا هو من شكّل المحمودي منذ كان طالبًا بالجامعة وتم تصعيده، نعرف كل نقاط ضعفه، وحينما ظنَّ في وقتٍ ما بأنه قد كبر على تنفيذ ما نأمر به حرفيًا، قمنا باستدعائه على نحوٍ عاجل

fb/mashro3pdf

في وسط شهر رمضان، وفي حضور مجموعة من ضباط الجهاز قمنا بعرض أحد أفلامنا الوثائقية عليه، ظن قبل بدء العرض أن الفيلم له علاقة بشأن من شئون الأمن القومي وأننا كالعادة نريد أن نكلفه بالكتابة عن شيء محدد بافتتاحية اللوتس.

- وعماذا كان الفيلم؟!

- ما إن بدأ الفيلم حتى شاهد المحمودي نفسه عاريًا على شاشة كبيرة وهو يمرغ وجهه في باطن قدم خادمة رخيصة من مُنشأة ناصر، كنا ندرك مزاجه الرخيص لذا سهل علينا اصطياده بها وتصويره معها.

- لقد كسرتموه!!

- انهار المحمودي فأوقفنا العرض وبكل هدوء عرضنا عليه طرح هذا الفيلم القصير على المصريين مع آخر يوم في رمضان ليتسلوا به كفيلم العيد!!

- تفننتم في تعذيبه!!

- كان من القاسي جدًّا على خيال صحفي لامع مثل المحمودي، تصوره اطلاع الناس على مدى استدارة مؤخرته واكتشافهم لحقيقة طول عضوه التناسلي على نحو لا يدعو رجلًا بالعالم للزهو أو الافتخار.

- تأكدت من ذلك بنفسي، هذا كفيل بانتحاره.

- من بعدها تاب وأناب وأعدنا إحكام سيطرتنا عليه للأبد بعد أن ظن للحظة أنه قد كبر، المحمودي وأمثاله ليسوا مثل أسلافهم من كبار الصحفيين، لا أقذر في مصر حاليًا من الصحفيين والكُتّاب

fb/mashro3pdf

والمثقفين.

- هل أنا في نظرك من هؤلاء؟!

- أنت حبيبتي، وسأعتبر تقصيرك هذا من قبيل حمى البدايات وقلة الخبرة، ما حدثَ قد حدثَ ومن المؤكد سيكون لديك في سرير المحمودي ما يستحق إخبارنا به، لا بأس أن تكوني مراسلة وطنية لنا من داخل حضن صحفي كبير.

- وأنا كما تعرفني من سنوات، تحت أمر الوطن.

- سامحيني يا عبير إن كنت قد آلمتك بصفعتي، لكن صدقيني، لم أفعلها إلا من أجلك ولن تعرفي قيمتها إلا في المستقبل.

قالها وهو يبدأ في تقبيل آثار صفعته على وجهي، ظل يقبِّلني ببطء حتى وصل بشفتيه إلى ظهري وصرنا بلا شيء يسترنا، أردف حينها بصوت متهدج:

- آه يا عبير، ظهرك قشدة.

وعقب أن انتهينا تمدَّد على السرير ثم أشعل سيجارة بينما بقيت أنا عارية أجفف نفسي من تناثر آثاره على بطني، سألته:

- هل من جديد مع زوجتك؟؟

- باردة كما هي، تمارس الجنس بالمناسبات والأعياد على سبيل إثبات أني ما زلت ذكرًا وهي أنثى على خشبة مسرح تلك الزيجة السخيفة، ما علينا من هذا الآن، أنا أريدك بموضوع آخر مهم وحساس وسري جدًّا، وأتوقع أن يدفعك إلى الأمام قدمًا وبدرجات عالية، أنا شخصيًا من رشحتك له.

انتبهت له وأنا أرفع حمالة صدري السوداء، ثم جلست على

fb/mashro3pdf

حافة السرير وأعطيته ظهري، فاستطرد وهو يغلق لي المشبك:

- الرئيس رجع من جولته الخارجية.

- أنا أصغر من ذلك بكثير.

ردَّ بعدما أزاح خصلات شعري وطبع قُبلة خلفية على رقبتي:

- لا تتعجلي على رزقك، مجموعة نعرفها جيدًا من أقباط المهجر نظموا وقفة وقذفوا الرئيس بالبيض والطماطم، هؤلاء الصعاليك مجرد صبية ولا يتحركون بمعزل عن كبيرهم الذي بالكاتدرائية، ويبدو أن مسئولي النشاط الطائفي بالجهاز اعتزموا مد يدهم الطولى لقرص أذن الكنيسة على نحو مؤلم بعض الشيء هذه المرة، لذا طلب مني المُقدم مجدي الصباغ ترشيح صحفية من بناتنا الواعدين وقد رشحتك له.

- أنا؟!

- غدًا في الرابعة عصرًا سيكون بانتظارك وسيطلعك على المهمة التي انتهى دوري فيها عند حد ترشيحك.

قالها وقد جذبني إليه مَرَّة أخرى على السرير واعتلاني وأنا أضحك بدلال الممانعات في حين كنت أجذبه إليَّ أكثر فأكثر، كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أنام فيها مع نادر.

وفي الموعد كنت بمكتب المقدم مجدي الصباغ والذي رحَّب بي بحرارة بالغة ومودة ثم قال:

- حتى نكون عمليين يجب أن نشاهد بعض الصور قبل أي كلام.

ثم اصطحبني نحو غرفة أخرى أكبر بدا أنها تُستخدَم للاجتماعات، أسدل الستائر وأعتم المكان ثم جلس بجواري، قام

fb/mashro3pdf

بتشغيل آلة العرض التي أظهرت أول صورة أمامنا كبيرة على الجدار، الصورة كانت لدير في حضن الجبل، سألته:

- ما هذا الدير؟؟

- دير العذراء فوق جبل أسيوط الغربي، أحد أهم أديرة الصعيد، يطلقون عليه شعبيًّا دير دُرنكة نسبة لاسم أقرب القرى إليه، والدير ليس المقصود بالمهمة التي استدعيتك لأجلها، أنت هنا من أجل أحد المطرودين منه.

ثم قام بتغيير الصورة فظهر أحد الرهبان بلحية كثيفة وعيون زرقاء، قال الصباغ:

- هذا هو مَن نحن مجتمعين من أجله، راهب مشلوح، هو بالأصل من عائلة ثرية، تخرج في كلية الفنون التطبيقية، منذ صغره لم يكن مستقرًا نفسيًّا وذلك إلى الحد الذي دفع أسرته إلى اللجوء نحو أشهر أطباء مصر النفسيين، وبعد أن استقرت نفسيته انتابته اللوثة الدينية التي قد تصيب أي شاب من أي دين فقرر اعتزال الدنيا ودخل الدير وصار اسمه إبرام، منذ شهور قليلة ولسبب غامض تم شلحه وطرده من هناك، ولأنه من الصعب معرفة كل ما يدور خلف أسوار دُرنكة، لذا لم يتسن لنا اكتشاف سِرّ شلح هذا الراهب!!

ثم غير الصباغ الصورة فظهرت مجموعة من العمائر المطلة على ميدان سفنكس بالقاهرة، أشار نحو إحداها قائلًا:

- إبرام عاد لاسمه الدنيوي «رشدي» بعدما خلع زِيّ الرهبان وشذب لحيته وصار أكثر وسامة، ثم اتخذ من إحدى شقق هذا

fb/mashro3pdf

البرج مقرًا له بعيدًا عن الإقامة مع عائلته، ما قادنا إليه هو تقرير أمني يفيد بأن أحد المسيحيين قد صمم مُدوَّنة إلكترونية على الإنترنت باسم «حكيم الروح»، قدم نفسه من خلالها باعتباره خبير علاقات اجتماعية، يناقش فيها مشكلات الناس ويساهم بالنصح لحلها.

قام المُقدم بتغيير الصورة وظهرت المدونة، فاستطرد:

- بالتحري عن السلوك الإلكتروني للمُدوِّن، وجدناه شديد الحرص، لا يضع صورة فوتوغرافية واضحة له، فقط صورة بنظارة شمسية أنيقة، ولا يتحدث عبر الإنترنت إلا على نحوٍ وقورٍ مبالغ فيه، وهو ما دعم بقوة هالته المحترمة عند مرتادي المدونة.

- وما مشكلة كل هذا؟!

- الأخطر هو ما رصدناه عن دعواته لبعض مريدات المدونة إلى مكتبه في سفنكس من أجل الحكي والفضفضة وتقديم المشورة وجهًا لوجه.

- وماذا بعد؟!

- لفتَ نظرنا ثلاثة أمور، الأول أن الراهب السابق في أيِّ مَرَّة لم يوجّه دعوته إلى رجل، الثاني هو أننا رصدنا أن مَن تذهب إليه مَرَّة لا تعيد الكرة أبدًا، الأمر الثالث أنه لا يتحدث معهن أبدًا عبر الهاتف في أي تفاصيل، هو ذكي جدًّا ولهذا لم نستطع فك غموضه عبر مراقبة هاتفه، نحن بإمكاننا أن نقتحم المكتب ونعرف كل شيء، أو نستدعي أي واحدة ممن ثبت لدينا أنها قد صعدت إليه، لكننا نتريث ونراقبه بهدوء كفريسة محتملة وتاريخية، الحس الأمني يشي بأننا على موعد مع صيد ثمين جدًّا لا نودّ أن نفسده بخطوة غير

fb/mashro3pdf

محسوبة.

- وما المطلوب؟؟

- مشاكلك مع زوجك كربّة منزل حسناء ستكون طعمًا لاصطياده.

- مشاكلي أنا؟!

- بدءًا من الليلة سيبدأ أحد رجالنا نيابة عنك بالتواصل معه إلكترونيًا باسم مدام سامية، تلك الزوجة الشابة التي تعاني جفافًا في علاقتها بزوجها، وسنظل نناوره حتى يسعى لاستدراجها ويطلب منها زيارته بالمكتب على سبيل تقديم الاستشارة الاجتماعية، حينها سنستدعيك ونطلعك على كل الدردشات التي دارت معه لتكوني على علم بكل شيء قبل ذهابك إليه.

- هل سأذهب إليه؟!

- أنت صحفية تبحثين عن الحقيقة يا عبير.

- صحيح، لكنه من الممكن أن يكون سافلًا؟!

- ونحن نتمنى ذلك، وفي النهاية لن يستطيع إجبار مدام سامية على شيء لا تريده، مهمتك اكتشاف ما يدور في عالمه، ولو ثبت ظننا تجاهه فأنتِ على موعد مع تحقيق صحفي شهير، سيهز الكنيسة وسيقفز بك سنوات إلى الأمام.

- أنا سأهز الكنيسة!!

- قبل أن تغادري سنلتقط لك في الأستوديو الخاص بنا صورًا سنجعلك ترتدين فيها الحجاب بألوان وربطات مختلفة فضلًا عن بعض الصور وأنت بشعرك، ونحن على الـ Photoshop سنقوم بالواجب وزيادة، سنجعل رشدي يشاهد سامية وهي في الشارع

fb/mashro3pdf

والصالـة والمطبـخ وحجـرة النـوم، سـنحتاج كل هـذا كزُبـدة ندهـن بهـا كلامنـا الليـلي معـه.

خرجـت مـن عنـد الصبـاغ شـاردة في السـنوات التـي مـن الممكـن أن أقفزهـا إلى الأمـام عـلى حـد قولـه إن ثبـت ظنهـم، وعقـب أسـبوع واظبـت فيـه عـلى متابعـة كل كبـيرة وصغـيرة عـلى مدوَّنـة «حكيـم الـروح»، اتصـل بي المقـدم ليخـبرني بالجديـد:

- رشـدي اتفـق مـع مـدام سـامية عـلى زيـارة في سـفنكس غـدًا، أنـا بانتظـارك لوضـع اللمسـات الأخـيرة عـلى هـذه الزيـارة المرتقبـة.

داخـل مكتـب الصبـاغ طالعـت نسـخة مطبوعـة مـن كل الدردشـات التـي دارت بـين الراهـب المشـلوح ومـدام سـامية طيلـة الليـالي السـابقة، وتحسـبًا للزيـارة أعطـاني الصبـاغ بطاقـة شـخصية مزيفـة باسـم سـامية فضـلًا عـن هاتـف آخـر محمـول عليـه كل صورهـا التـي أرسـلتها لرشـدي مـن قبـل.

وفي الموعـد المحـدد، صعـدت للـدور العـاشر في الـبرج المطـل عـلى ميـدان سـفنكس، ضغطـتُ عـلى الجـرس، فتـح رشـدي البـاب، اسـتقبلني بترحـاب بالـغ، كان أربعينيًـا بشوشًـا وعـلى ملامحـه كل سـمات الوقـار والوسـامة، مظهـر الشـقة دل عـلى أنـه يتخذهـا مكتبًـا أنيقًـا، أجلسـني عـلى كـرسي المكتـب أمامـه وتبادلنـا حديثًـا مبدئيًـا عـن صخـب القاهـرة عـلى خلفيـة الميـدان المكـدس في الجـدار الزجاجـي مـن ورائـه، رشـدي كان مهذبًـا جـدًا لدرجـة أنـه حينـما بـدأ في الإنصـات لمشـاكلي مـع زوجـي بصفتـي مـدام سـامية، لم يكـن حتـى ينظـر في عينـيّ كـي لا يربكنـي، فقـط كان يـدوِّن مـا أقـول في نقـاط عـلى ورقـة أمامـه اسـتعدادًا لإبـداء رأيـه واقـتراح حلولـه، بـدا لي حينهـا أن المُقـدِّم مجـدي الصبـاغ قـد ظلمـه كثـيرًا

fb/mashro3pdf

وأساء به الظن، لن أنسى جملة رشدي التي استهل به بداية مشورته بعدما فرغت من كل ما يُغضبني من زوجي:

- اسمعي هذا جيدًا يا سامية، عليك المحاولة مع زوجك من جديد، لا يوجد حب يموت بين اثنين، لكن دائمًا هناك منهما من يقرر أن يدفنه حيًا!!

هذه العبارة كانت آخر ما سمعت من رشدي وأنا أشرب العصير، بعدها ثقلت رأسي وغامت صورته في عينيَ ثم اسودت!!

أفقت بعد ذلك بساعات قُرب الغروب، لأجد نفسي عارية تمامًا فوق سرير بغرفة أخرى كل جدرانها بيضاء، بصعوبة شديدة حاولتُ أن أتذكر أين أنا وما هذا المكان!! أدركت كل شيء حينما التفتُّ عن يميني لأجد رشدي في ركن بالغرفة، شهقتُ من المفاجأة وارتعبت، وبسرعة مددتُ يدي على نحوٍ فطريَ لجذب طرف الملاءة في محاولة منّي لستر جسدي عن عينيه، كان نصف عارٍ بشعر كثيف في صدره، ظل يتأملني متأرجحًا ببطء على كرسي خشبي نافثًا دخان سيجارته بالفراغ وبين يديه كتاب وإلى جواره كاميرا صغيرة مثبتة فوق حاملها، حملقت فيه وفي نفسي غير مصدقة!! تنبهت لآثار سائله اللزج الذي جف على جانبي فخذي!! صرخت بوجهه:

- يا وسخ يا ابن الكلب!!

ما كان منه إلا أن أغلق الكتاب وبنظرة ميتة قال ببرودٍ:

- أهكذا يكون جزائي على الصور والمقاطع الرائعة التي التقطها لك؟!

قلت وأنا ألتقط في ذهول قطعة سُفلية من ملابسي المكومة على

fb/mashro3pdf

الأرض جوار السرير:

- صور يا زبالة يا حقير!!

- لقد قضيتِ وقتًا مثيرًا وممتعًا جدًّا مع هذا الحقير، وعلى كل حال من مصلحتك أن تبتلعي لسانك هذا إلى الأبد، كل شيء لك ولأمثالك مصور وموثق هنا.

قالها وقد أشار بيده نحو الجدار خلفه، وجدت رفًا كاملًا من شرائط الفيديو السوداء، ثم استكمل:

- صدقيني يا سامية وعن تجربة، المرأة العاقلة هي التي تخرج من هنا دون شوشرة حتى لا يشاهد زوجها صورها الحراقة أثناء تسليه على صفحات الإنترنت في المساء!!

حينها أدركت لماذا مَن تأتي إلى هنا أبدًا لا تعود، استكملت ارتداء ملابسي في جنون صامت، وقبل أن أخرج من باب الشقة قام رشدي خلفي ومدَّ يده على نحو جدي وقال:

- ألن ترتدي حجابك يا سامية؟!

رمقتُه بنظرة كلها شعور بالغثيان وأنا أسحب منه الإيشارب، ثم لففته حول رأسي أمام مرآة كابينة المصعد، ترى كم امرأة محجبة خرجت من تحت هذا الراهب المشلوح لتهبط في نفس هذا المصعد؟! كثير من مشاهد حياتنا السرية تؤكد أن حجاب الرأس لا يعني بالضرورة أبدًا نقاء الجسد!!

ركبت السيارة وقد صعبت عليَّ نفسي، وبدموع متحجرة تمنيت لو رزقني الله بمن يصدمني ويخلصني من كل هذا، وحين وصلت لمشارف شارع ٢٦ يوليو من ناحية بولاق وسط الشرفاء الذين تزاحموا على الصفين من أجل شراء ملابس مستعملة لهم ولأبنائهم

fb/mashro3pdf

وبناتهم، انفجرت باكية دون شعور وكأني أنعي شرفي الذي فرطتُ فيه منذ زمن بِرهاني على المستقبل، وبيدٍ مرتجفة ضغطتُ على رقم مجدي الصباغ، رد عليَّ فورًا ضاحكًا بسخرية:

- فضول الضابط يقتلني يا مدام، ماذا كنت تفعلين في كل هذه الساعات يا سامية؟!

لم أستطع الرد من فرط البكاء فتيقن من تردي حالتي وطلب منّي الحضور فورًا لمبنى الجهاز، وفي مكتبه كنت منهارة، طلب لي كوب ليمون وسقاني الرشفة الأولى منه بيده ثم ربت على كتفي سائلًا:

- ما الذي دار بينكما وبالتفصيل الممل؟!

ما إن انتهيت من كلامي حتى وجدت الصباغ يقف في مكانه مُصفقًا بيديه على مهل وعيناه تبرقان بفخرٍ نادر اللمعة وهو يقول:

- صدق حدسنا الأمني، اسمعيني جيدًا يا عبير وكُفي عن هذا البكاء الطفولي.

- طفولي!!

- ستكتبين هذه القنبلة المدوية في تحقيق صحفي تحت إشرافنا، وسنزودك بمعلومات عن عائلة رشدي وعن دير درنكة تصقلين بها تحقيقك وتُسخنيه.

- كيف سأكتب عمّا حدث لي هكذا على الملأ؟! هل سأفضح نفسي وأقول إنه قد عاشرني؟! ماذا لو خرج ما سجله لي إلى النور؟!

- ومَن قال إنه عاشرك يا عبير؟! لقد عاشر نيافته مدام سامية أو بالأحرى اغتصبها وهي منومة تحت تأثير المخدر، هل أنتِ مدام سامية؟!

fb/mashro3pdf

- والشريط الذي سجله والصور التي التقطها!!

- لا تقلقي أبدًا، سنحصل على كل الشرائط والصور ونتلفها.

صمتُّ فاستطرد بنبرة بطيئة فهمت مغزاها:

- يا عبير، هذا التحقيق إن لم يُنشر باسمك سيُنشر باسم غيرك، وحينها سيكون كل ما حققتِه هو أن هذا الراهب المشلوح فشخك دون مقابل!!

بقيت صامتة للحظات أخرى أعقل فيها ما قال، ثم سألته بشكل عملي:

- وأين سيُنشر التحقيق عقب أن أنتهي من كتابته.

انبسطت ملامحه قائلًا:

- هذه هي عبير صاحبة الملف الوطني المشرِّف، وهل يوجد أنسب من اللوتس لنشره؟! الليلة سنستصدر أمرًا باقتحام شقة سفنكس ونلقي القبض على رشدي وسنُحرز كل ما سنجده، وفي العدد التالي من المجلة سيكون اسمك هو الأشهر بالصحافة المصرية.

صمتُّ فاستطرد بنبرة ناصحة وحميمية:

- عبير، ريّحي أعصابك، قدامنا شغل كبير، ارجعي البيت، استرخي تمامًا، واستحمي.

****

- ظهرك قشدة يا ست البنات، بسرعة نامي لي على ظهرك، دقائق وننتهي.

- حاضر يا رُقيّة، لكن هل من الممكن أن تختاري أي كلمة غير القشدة.

fb/mashro3pdf

في الواقع أن قشدة ظهري صارت تذكِّرني بـنادر الزيني وبتاريخ وددت لـو يُدفـن إلى جواره!!

****

مـا جرى لي على سرير رشدي في سفنكس لم يقضِ أبدًا على سمعتي ومستقبلي، بـل قـضى عـلى حياة نـادر الزيني وسُـمعته في جهـاز أمـن الدولـة!! لا أحـد كان يتصـور انتحـار شـخص بقـوة نـادر الزيني بعـد قتله زوجتـه وابنـه في أعقـاب اكتشـافه بالصدفـة البحتـة أن زوجتـه كانـت مـن ضمـن هـؤلاء الـلاتي اسـتدرجهن الراهـب المشلوح إلى شقة سـفنكس!!

لـن أنسـى كيـف كان نـادر يشـتكي لي منهـا ويصفهـا دائـمًا بأنهـا بـاردة!! لكـن القـدر شـاء بعـد كل هـذه الـبرودة أن يكـون هـو نفسـه شـاهدًا عليهـا وهـي بالغـة السـخونة داخـل حضـن رجـل آخـر تعرفـت عليـه عـبر الإنترنـت واسـتطاع فـك شـفراتها، هـذا الإنترنـت الـذي تُرِكَـت صفـاء مدرِّسـة الموسـيقى أمامـه وحيـدة، مُهملـة، ومُتروكـة بالسـنوات!! ليكتشـف حـضرة الضابـط أخـيرًا مَـن هـو رشـدي الـذي كانـت تتحـدث إليـه زوجتـه وهـي مغيَّبـة في غرفـة الإفاقـة بمستشـفى العجـوزة عقـب الـولادة:

- رشدي، قل لي يا لبؤة!!

فوجـئ نـادر بزوجتـه العاريـة وهـو وسـط زملائـه أثنـاء تفريغهـم المـواد المصـورة المحـرزة بشـقة سـفنكس، فانـصرف صامتًـا واتجـه في ذهـولٍ نحـو البيـت ليفـرغ ماسـورة مسدسـه الكاتـم للصـوت في رأسـها ورأس ابنـه، وقبـل أن يُطلـق الرصاصـة الأخـيرة عـلى نفسـه، بعـث برسـالة نصيـة مـن هاتفـه لرئيسـه في الجهـاز يخـبره فيهـا بـأن لـن يحـضر في الصبـاح لأنـه سـينتحر!!

fb/mashro3pdf

وإذا كان انتحار نادر بكل ملابساته مفاجأة، فإن جنازته التي تناقلتها كل نشرات أخبار التليفزيون المصري كانت بالنسبة لي مفاجأة المفاجآت، لا أدري أي شيطان هذا الذي أوحى لوزارة الداخلية بفكرة خروج نعوش نادر وأسرته الصغيرة من مسجد الشرطة بشارع صلاح سالم وهي ملفوفة جميعها بأعلام مصر وذلك عقب إصدار بيان رسمي من الوزارة يدعي استهداف أفراد الأسرة داخل الشقة من عناصر تنظيم جهادي سري انتقامًا من الضربات الموجعة التي وجهها «الشهيد نادر الزيني» لأوكار التنظيم!!

كل ما أتمناه أن يلقى مجدي الصباغ في يوم من الأيام نفس مصير زميله نادر، لمَ لا وهو لم يتسبب فقط في فشخي وتصويري، بل تسبب أيضًا في ظهور جسدي عاريًا وأنا تحت الراهب المشلوح على غلاف اللوتس، ظل الصباغ صباح اليوم يبرر لي طويلًا عبر الهاتف هذا الخطأ غير المقصود:

- كنت في مهمة أثناء إشراف السيد رئيس الجهاز بنفسه على الإخراج الصحفي للغلاف، هو الذي اختار صورتك مع رشدي وطمسَ ملامحك وقرر أن يكون العنوان «راهب الغرام»، ولو كنتُ موجودًا لتدخلت لحذف جسمك من الغلاف قبل إرساله لمنعم المحمودي، كل العاريات بالشرائط والصور كن سواسية أمام سيادته، هو فقط وبشكل موضوعي جدًا اختار الأجمل للغلاف.

ولما صمتُّ استطرد يقول:

- لو كنا نريد فضحك لما اخترنا أن نكافئكِ بزوجٍ مثل هذا!! ولما أمرناه أن يعقد قرانه عليك غدًا، أنتِ اليوم من أشهر صحفيات مصر وقريبًا سندفع بك لعالم البرامج الليلية، الأمن لا ينسى المخلصات من حريمه.

****

fb/mashro3pdf

- افتحي رجليكِ يا عبير.

- حاضر يا رقيّة، لكن انجزي.

من الأفضل الآن أن أستغل الوقت الذي تعبث فيه هذه البلانة بحلاوتها بين ساقيّ وأبعث برسالة إلى حسام أخبره فيها بكل شيء بدلًا من الاتصال به، هذا سيكون أسهل عليَّ وعليه، حسام الوحيد الذي أحبَّني بصدقٍ ولا أود إيلامه، وسيعذرني كثيرًا حينما يعرف مَن الذي سيُعقد قراني عليه.

* * *

fb/mashro3pdf

حسام

- حسام سامحني، لم أتمكن من الاتصال بك طوال اليوم، البطارية ماتت من فرط ثرثرتي مع رقيّة كالعادة، والشوارع كانت مغلقة بسبب المسيحيين الغاضبين عند الكاتدرائية، ووصلت البيت ميتًا من التعب مع آذان المغرب، نمت كالقتيل والآن فقط صحيت وشحنت البطارية وكلمتك.

- ولا يهمك يا صاحبي، شيماء أختي كانت في مشوار ولما رجعت قالت لي أنهم ما زالوا متجمعين هناك.

- غدًا على أقصى تقدير سيأمرهم البابا بالانصراف.

- طبعًا.

- المهم قل لي، ما هذا الكلام المجنون الذي هذيت به في التليفون صباحًا!! بالعقل، كيف تظن أن حبيبتك هي نفسها الست الموجودة على غلاف المجلة التي فجرت الأزمة!! لقد بحثت عن العدد عند رجوعي ووجدته مع كل الخلق على المقهى، واكتشفت أن عبير هي نفسها التي كشفت هذه الفضيحة في اللوتس!! بالعقل، هل ستفضح نفسها بنفسها؟!

fb/mashro3pdf

- يخلق من الشبه أربعين يا بشير، وعلى كل حال أنا تأكدت أنها ليست هي.

- تأكدت!! كيف؟!

- عبير أبلغتني في رسالة أن قرانها سيُعقد غدًا على رئيس تحرير مجلة اللوتس ذات نفسها، منعم المحمودي!!

- يا دين النبي محمد!! رئيس التحرير بحاله!!

- نعم رئيس التحرير بحاله، وشخص في شهرة وسُمعة منعم المحمودي من المؤكد لن يتزوج من عاهرة على غلاف مجلته.

- صحيح، إن بعض الظن إثم.

- بصراحة يا بشير بعد هذا اليوم العصيب، أنا لا أعرف هل أسعد لشرفها أم أحزن لفقدها؟!

- يا حسام احمِد ربنا، لا أصعب على الرجل من الشعور بضياع عمره في حب رخيصة!! وبصراحة عبير لم تكن في يوم معك حتى تحزن لفقدها.

- أنا أحب عبير.

- قصدك مدام منعم المحمودي يا صاحبي، ركز في أكل عيشك يا حسام وحافظ على علاقتك بسحر، ونصيحة منّي، انتظر الإنسانة التي ستأتي في موعد غير متوقع كي تُنسيك كل الحكايات.

- لأول مَرَّة منذ سنوات طويلة سأضع رأسي على الوسادة دون أمل بلقائها ولو في عالم الأحلام!!

- عبير اختارت مستقبلها، وعليك أن تختار مستقبلك.

- معك حق، يجب أن أفعل.

- قل لي، ما رأيك في الأوراق التي ورثناها عن سليمة؟؟ هل تصلح لفيلمك الوثائقي الذي صدعتني به؟

fb/mashro3pdf

- بل تصلح لفيلم عظيم من إنتاج جهة محترمة.

- قُل والمصحف!!

- كم أتمنى لو أن مكان قبرها معروف.

- قبرها!!

- كي أصور أوراقها وهي تتطاير إلى جواره ببطء في مشهدٍ أخيرٍ رائع عند الغروب قبل ظهور اسمي كمخرج.

- حسام، الظاهر أنك لم تصل حتى الآن لمفاجآت الصفحات الأخيرة!! سليمة لم تُدفن من الأساس..

- لم تُدفَن!!

* * *

fb/mashro3pdf

أوراق سليمة

بلا تردد وبكل قوة سددت السكين في عنق محمد علي، لكن كبير الطواشية الذي دخل في إثر الباشا دون أن أنتبه، حاول إبعاد يدي فجعلها تنحرف، لينغز النصل في عمامته الضخمة بدلًا من عنقه ولم يُصَب بأذى يُذكَر، علا الصراخ من الحريم، أما هو فقط أصيب برعب برقَ في عينيه لحظة نجاته، بدا أمامي كأجبن مخلوق على ظهر الأرض، هرب كفأرٍ مذعورٍ من الحجرة التي انقلبت رأسًا على عقب، ثم كتّفني الطواشي بيديه فلم أستطع الفكاك حتى وصل حفنة من الطواشية الآخرين وقاموا بتقييد يديّ وتكبيل قدميّ، وأثناء ربطي وجرجرتي نحو الخارج خاطبت كبيرهم الذي أنقذ سيده:

- عار عليك أيها العبد الأصيل!! ماذا تبقى لك في تلك الدنيا أيها الكلب الوفي!! كانوا محقين حينما خصوك في أسيوط أنت وأمثالك من المخلصين!!

قلتها ثم بصقتُ على وجهه الصامت فانهال عليَّ الطواشية ركلًا، ولما أمرهم كبيرهم بالكف عن إيذائي، لمحت في عينيه دمعة متحجرة ذكَّرتني بمرارة قهر سر الخاتم قبل رحيله.

fb/mashro3pdf

وقُرب الفجر تم نقلي في عربة نحو السجن، وهناك قبعت وحيدة في زنزانة تحسُّبًا لقتلي، لقد حاولت قتل الباشا!! ولفداحة ما ارتكبت حوكِمتُ صوريًا، فُتح عليَّ الباب الحديدي ودخلَ رجلٌ عرفت أنه من القضاة، سألني سؤالًا واحدًا:

- هل صحيح أنك شرعت في قتل ولي النعم محمد علي باشا؟؟

- نعم.

انتظرت أن يسألني لماذا؟؟ لكنه لم يفعل، وهكذا انتهت المحاكمة التي كنت أدرك حكمها مسبقًا، فقط أخبرته أثناء قيامه بمعلومة كان يتحتم عليَّ إخباره بها رغم أنه لم يستفسر عنها:

- أنا حامل بالشهر الثالث.

- لكنك غير متزوجة، مَن صاحب هذا الجنين؟!

لم أرد حتى لا أسبب أذى له، أنا أحبه، لذا آثرت الصمت. كان حيضي قد انقطع عن موعده لشهرين ولما حل الثالث وأنا بالزنزانة أيقنت حملي، كان عليهم انتظار ولادتي، وقد علمت أنه لجرم ما ارتكبت فلن ينتظروا أن أتم إرضاع المولود وفطامه في عامين.

لذا كان كل ما تبقى لي من حياة حوالي مائة وثمانين يومًا وقد أوشكوا على الانتهاء، حاولت فيهم أن أسرد بصدقٍ ومرارة كل ما حدثَ، كي أجيب لابني أو ابنتي من بعدي عن السؤال الذي لم يطرحه القاضي:

- لماذا أردتِ قتل الباشا يا سليمة؟؟

ومن أجل الإجابة على هذا السؤال، طلبتُ من «عبد الهادي» حارس الزنزانة ذي الأصل الأسواني أن يأتي لي سرًا بأوراقٍ وحبرٍ، وبمروءة انطوت على كثيرٍ من المخاطرة فعلها الحارس وأحضر لي ما طلبت، لا مقابل مال وإنما إشفاقًا على امرأة ترقد وحيدة في زنزانة

fb/mashro3pdf

انتظارًا لقتلها عقب الولادة!! حتى هذه اللحظة لا أعرف الطريقة التي سأُقتَل بها، هل رميًا بالرصاص؟؟ هل بالحبل شنقًا؟؟ هل سيضربون عنقي الصغير بالسيف، أم سأجلس على الخازوق؟؟

أخبرت عبد الهادي أني كما يقولون مقطوعة من شجرة، لذا استأمنته على وصيتين، الأولى أن يذهب بالمولود إلى الحاج عمر في ترسانة الإسكندرية، هذا الرجل الشهم الذي زرته ذات يوم في رفقة كلوت ودي سريزي واعتبرني مثل ابنته، وصيتي الثانية والأخيرة لعبد الهادي كانت أن يضع كل ما دوَّنته من أوراقٍ في رفقة المولود باعتبارها ميراثه الوحيد منّي، حتى لا يعايره أحدٌ في يومٍ أنه بلا أصل.

ما زال لدي الكثير كي أدوّنه، لكن لا أعرف ماذا أصابني الليلة، أنا الآن في منتصف شهري التاسع وأشعر بآلامي تتزايد، كان بودي أن أرى كلوت ولو لمرة واحدة قبل أن أموت، ولا أدري هل خاف كلوت على مركزه من جراء فعلتي ولم يُقدم على زيارتي منذ جئت إلى هنا أم أنه حاول وهُم الذين رفضوا؟! آلامي تتزايد ولا أقوى على مزيد من الكتابة، لا أدري لماذا أشعر أن تلك الليلة ستكون هي...

****

أنا عبد الهادي حارس الزنزانة، أُبحِر الآن وسط ترعة المحمودية في طريقي للإسكندرية بحثًا عن الحاج عمر في الترسانة تحقيقًا لوصية سليمة رحمها الله، وإن لم أنجح سأبعث به إلى أهلنا في النوبة.

لقد تملكني الفضول لقراءة المكتوب في هذه الأوراق، وبعد أن انتهيت وجدت أن الأمانة تقتضي إضافة بعض كلمات كان من المستحيل أن تتمكن سليمة من كتابتها:

fb/mashro3pdf

كان الوقت عقب الفجر مباشرة حينما فتحنا باب الزنزانة من أجل اقتياد سليمة نحو إحدى المراكب النيلية تنفيذًا لحكم الموت فيها، ربطنا ساقيها بثقل من حديد بعدما ارتدت جوالًا من خيش عقدناه بإحكام من عند رأسها، وعند شروق الشمس ألقينا بها لتستقر في قاع النهر مثل عرائس النيل.

سليمة أبدًا لن تموت، وحكايتها مع عسكر الباشا لن تنتهي، وحقها في الثأر لن يزول، طالما أن طفلها البرونزي إلى جواري الآن يصرخ ويضرب بقدميه الثائرتين ظهر المركب.

* * *

fb/mashro3pdf

داخـل قاعـة مُعتمـة لمهرجـان سـينما الواقـع «Cinéma Du Réel» في باريس

فـوق كوبـري قـصر النيـل بالقاهـرة، قـد لا يُـدرك أحدهـم وهـو يحتضـن حبيبتـه بحنـانٍ بالـغ في آخـر لحظـات المسـاء، أن سـليمة بقصَّتِهـا رُبّـما تكُـون بالأسـفل تمامًـا!!

قرابة قرنـين من الزمـان، ورُوحـك يا سليمة سارية بالنهـر!! أبديـة شـفافة، أضافهـا مُحمـد علي باشـا لخلـود طعـم النيـل!!

مـع كل ضربـة مجداف لقـارب شراعـيٍّ صغـيرٍ عنـد الفجـر، أكاد أنصـت لـدويّ لحظـة ارتطامـك بالمـاء!! أكاد أقسـم أنـك لم تكـبري ولم تعـرف شـفتاك الرائعتـان مـذاق الفنـاء!!

أنـتِ كـما أنـتِ، بمجـرد لمسـك القـاع، تحـررتِ، عُـدتِ سـيرتك الأولى، فاتنـة، برونزيـة، بصـدرٍ بُرتقـاليّ، وشـالٍ أزرق، وجلبـابٍ سـماويّ، ونقـشٍ للحنـاء يوحـي بأمـيرة قديمـة فـرَّت للتـوّ مـن أهـرام البجراويـة!!

fb/mashro3pdf

كل نكهاتك الخلابة ذابت في النيل!! كل ما فيكِ رغمًا عنا يجري في عروقنا!! كُتِبَ عليهم جميعًا حُبك وإن لم يعرفوا!! صدقيني، كلهم حول قصر السكاكيني وبعيدًا عنه، وإن لم يُدركوا.. يُحبونك، وأنا..

Fade to Black

أُحِبُّكِ يا سَليمة

***

أبدًا لم تتم

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

للتواصل مع الكاتب:

Twitter: @sheriefsaid

Facebook: Sherief Said

Instagram: sherief_said

E.Mail: sherief_said2002@yahoo.com

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

كثير مما نعانيه كان سينقضي لو أن الله قد أضاف إلى الإنسان خاصية الحذف الفوري لبعض مساحات الذاكرة!! لكن القدر أراد أن تؤرقنا ذكريات هؤلاء البشر الذين ظننا في البداية أننا اخترناهم بعناية!! ثم اكتشفنا مع السنوات أنهم لم يكونوا مُناسبين لنا على الإطلاق!! أوراق "سَليمة" القادمة من القرن التاسع عشر، والتي وقعت بيد مُخرج وثائقي في رحلة بحثه عن حُلم فني، هذه المُذكرات كشفتْ له أثناء مشيه في سراديب الماضي، ما هو أكثر من طاقة خياله!! حكايات "سَليمة" تقاطعت مع قصة حبه، شاركته بكلماتها مرارة الوجع، طعم الألم، وكل نكهات الفقد والحنين!! بدا أن الأرواح المُنهكة تتآلف!!

في رواية مُمتعة، مُختلفة، مُمتلئة بالتفاصيل والحكايات السرية للقاهرة وكواليس أهلها، وما حوته من مشاعر ورغبات إنسانية كادت أن تُغير في أحيان كثيرة من مسار التاريخ الذي نَعرفه .. يُقدم "شريف سعيد" في روايته، رؤية مُغايرة للواقع، كُتبت بأسلوب عذب وروح مُغامر.

شريف سعيد

مُخرج وكاتب مصري، وُلد بالقاهرة في 1979، تخرج في كلية الإعلام بجامعة القاهرة، كتبَ بالعديد من الدوريات المصرية مثل الأهرام والوطن والمصري اليوم، عملَ بالعديد من القنوات الفضائية، أخرج ورسم السيناريو لعدد من الأفلام الوثائقية منها دير العذراء، الجمالية، ناس من شُبرا، وصناعة الكذب، رواية "وأنا أحبك يا سَليمة" تُعد أول أعماله الأدبية.

تصميم الغلاف كريم آدم

fb/mashro3pdf

ISBN 978-977-806-024-9

9 789778 060249

دون